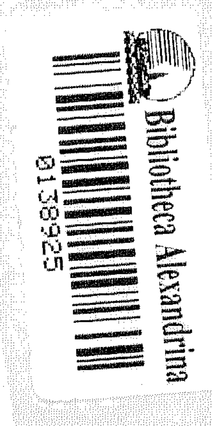
الإيضاح

في علوم البلاغة

للخطيب القزويني المتوفى عام ٧٣٩ هـ

شرح وتعليق وتنقيح
الدكتور
محمد عبد المنعم خفاجي

الجزء الأول



الطبعة الثالثة

١٤١٣ هـ — ١٩٩٣ م

الناشر
المكتبة الأزهرية للتراث
درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف
ت ٥١٢٠٨٤٧٠





الإيضاح

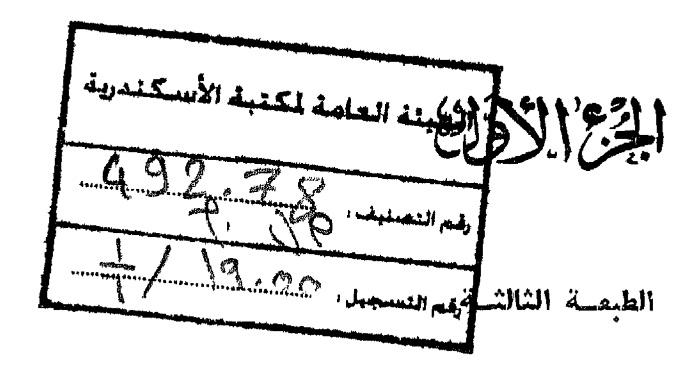
في علوم البلاغة

للخطيب القزويني المتوفى عام ٧٣٩ هـ

شرح وتعليق وتنقيح

الدكتور

محمد عبد المنعم خفاجي



الجزء الأول

الطبعة الثالثة

١٤١٣ هـ — ١٩٩٣ م

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف

ت ٥١٢٠٨٤٧٠



بسم الله الرحمن الرحيم

الكلمة الأولى

أحمده وأسأله التوفيق والسداد ، وبعد :

فهذا شرح جديد مفصل ، لكتاب الايضاح ، تأليف العالم الامام الخطيب القزويني ، امام البلاغة وشيخ البيان ، المتوفى عام ٧٣٩ هـ .

توخيت فيه عمق البحث ، ودقة التحليل ، والعناية ببسط المسائل ، وحل المشكلات ، وأومأت فيه الى شتى المراجع والمصادر . ليكون جامعا لمسائل البلاغة ومصدرا للدراسات العالية فيها ، ومرجعا للطلاب والدارسين والباحثين . والله يعلم مقدار ما أخذ منى من جهد وبحث ومراجعة ، ومع ذلك فقد ثابرت على كتابته واخراجه ، ليسد النقص الذى نلمسه فى دراسات البلاغة .

وقد ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب ١٩٤٩ والطبعة الثانية عام ١٩٨٤ ، وها هى ذى الطبعة الثالثة منقحة مهذبة ، والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه ، وأن ينفع به العلم والثقافة ولغة الكتاب العزيز . فهو وليى ، نعم المولى ونعم النصير .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

محمد عبد المنعم خفاجى

مقـــــدمات

● نشأة البلاغـة العربية ومراحل التأليف فيها :

١ ــ كان القرن الثانى الهجرى أول عصر شهد نشأة آراء كثيرة أصيلة ومترجمة حول البلاغة[١] وعناصرها ، بعد فساد الملكات ، وقد أخذ العلماء فى بحث أصول بلاغات العرب ، وفى تدوين آرائهم فى معنى كلمةالبلاغة والفصاحة. وأهم ما يؤثر من ذلك : وصية بشر بن المعتمر ــ من زعماء المعتزلة وتوفى نحو عام ٢١٠ هـ ــ فى البلاغة[٢] ، وتفسير ابن المقفع للبلاغة[٣] ، وتعريف العتابى لها[٤] ، ووصية [٥] أبى تمام للبحترى تدخل فى هذا الباب ، ويقول البحترى : خير الكلام ما قل ودل ولم يمل[٦] .. وفى البيان للجاحظ تحديد للبلاغة كما يراها حكيم الهند[٧] ، ويقسمها الكندى فيلسوف العرب المتوفى عام ٢٦٠ هـ الى ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ، ونوع بالعكس ،

---

(١) لا تجد فى العصر الجاهلى كلمات عن البلاغة الا ما روى عن عامر ابن الظرب حين سئل من أبلغ الناس ؟ فقال : من حلى المعنى المزين باللفظ الوجيز وطبق المفصـل قبل التحريز (٢٠٦ ج ١ العمـدة ، ٢٨٠ ج ٢ الامالى) .. وفى العصر الاموى نجد لمعاوية كلمات فى البلاغة ولسواه ، روى أن معاوية سأل صحارا عنها فأجابه (راجع ٨١ ج ١ البيان ، ١٨ ج ٢ الكامل) .

(٢) ١٠٤ وما بعدها ج ١ البيان .

(٣) ٩١ ج ١ البيان ، ٢١٤ ج ١ العمدة ، ٧٥ ج ١ البيان ، ٤٤ ــ ٤٦ الرسالة العذراء ، ٢ و ٣ و ٢٢ و ٢٣ ج ٣ العقد ، ١٤٠ ــ ١٥٠ ج ١ زهـر الآداب .

(٤) ٩٠ و ١٥٧ ج ١ البيان .

(٥) ١٥١ ج ١ زهر الآداب .

(٦) ٣٦٠ ج ١ المستطرف وتروى عن الثعالبى برواية أخرى : « ما قل ودل » (٢١٨ ج ١ العمدة) .

(٧) ٧٨ و ٧٩ ج ١ البيان ، ٢٠ ــ ٣٨ الصـناعتين ، ١٤٤ ج ١ زهر ، ٤٤ الرسـالة العذراء .

ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحمدها[١] ، وذكر بزر جمهر حكيم الفرس فضائل الكلام ورذائله فى كلمة مترجمة رواها صاحب الموازنة[٢] . الى آخر هذه الكلمات والآراء .

٢ ــ ثم ألفت بعد ذلك كتب تجمع كثيرا من الآراء والدراسات الموجزة حول البلاغة وبحوثها . ومن هذه الكتب : مجاز القرآن لأبى عبيدة م ٢٠٧ هـ والفصاحة للدينورى م ٢٨٠ هـ[٣] والتشبيه والتمثيل للفضل بن نوبخت[٤] وصناعة الكلام للجاحظ[٥] ، ونظم القرآن[٦] والتمثيل[٧] له أيضا ، والبلاغة وقواعد الشعر للمبرد[٨] ... وفى الكامل اشارات لمسائل كثيرة فى البلاغة ، وكذلك الرسالة العذراء لابن المدبر ، والبلاغة للحرانى[٩] ، وقواعد الشعر لثعلب ، وقد نشرته عام ١٩٤٨ بشروح كثيرة ، والبلاغة والخطابة للمروزى[١٠] والمطابق والمجانس لابن الحرون[١١] وتهذيب الفصاحة لأبى سعيد الأصفهانى[١٢] واعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه للواسطى المعتزلى م ٢٠٦ هـ ، وصنعة البلاغة للباحث ، وللسيرافى م ٣٦٨ هـ . ونظم القرآن لابن الأخشيد[١٣] ، وكذلك لابن أبى داود م ٣١٦ هـ[١٤] وكتاب الرد على من نفى المجاز فى القرآن للحسن بن جعفر[١٥] ... ومن هذه الكتب أيضا المفصل فى البيان ، والفصاحة للمرزبانى م ٣٧٨ هـ .

على أن أهم الكتب التى تناولت بعض مسائل البلاغة بالبحث ،

---

(١) ٢١٩ ج ١ العمدة .
(٢) ١٨٣ الموازنة .
(٣) ١١٦ الفهرست لابن النديم .
(٤) ٣٨٣ المرجع .
(٥) ٣٨ الجاحظ لمردم .
(٦) ٤٠ المرجع .
(٧) ٧٦ ج ٦ معجم الأدباء .
(٨) ٨٨ فهرست ، ١٤٤ ج ٧ معجم الأدباء .
(٩) ١٧٨ فهرست .
(١٠) ٢١٥ فهرست .
(١١) ٢١٢ فهرست .
(١٢) ١٩٧ فهرست .
(١٣) ٥٧ و ٥٨ فهرست .
(١٤) ٣٢٤ فهرست .
(١٥) ٥٢٠ فهرست .

أو التى ألفت فيها خاصة هى : كتاب جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ، ففى مقدمته بحوث موجزة طريفة تتصل بالبلاغة . وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهو أهم ما ألف فى هذا الطور من كتب تتصل ببلاغات العرب نثرا وشعرا ، وتتعرض لتحديد البلاغة وما حولها من آراء كانت ذائعة فى عصر الجاحظ ، وفيه كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة[1] ويتكلم على السجع[2] ويشير الى التفصيل والتقسيم[3] والاستطراد والكناية[4] والأمثال [5] والاحتراس[6] والقلب[7] والأسلوب الحكيم[8] ، والجاحظ أول من تكلم على المذهب الكلامى[9] ويرى البلاغة فى النظم لا فى المعانى[10] وهو ما ذهب اليه ابن خلدون[11] . والجاحظ يشيد بالايجاز[12] ، كما يدعو فى البيان كثيرا الى ترك الوحشى والسوقى ، ويحث على الافهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتهذيب فى صناعة الكلام ، الى غير ذلك من شتى ما دونه فى البيان .. ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال[13] ، فهى على كل حال ذات أثر كبير فى نشأة البيان ، وهى التى أوحت الى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان . ومن الخطأ التهوين بأثر الجاحظ فى البيان كما ذهب اليه بعض الباحثين المحدثين .

---

(١) ١١٦ ج ١ البيان . (٢) ١٩٤ ج ١ البيان .

(٣) ١٧٠ ج ١ و ٩١ ج ٢ البيان .

(٤) ١٨٠ ج ١ و ٨ و ٢٩ و ٣١ و ٨٠ ج ٣ البيان .

(٥) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ ج ١ و ٢٢٤ ج ٢ البيان .

(٦) ١٦١ ج ١ البيان . (٧) ١٨٠ ج ١ البيان .

(٨) ٢٠١ و ٢٠٢ ج ٢ البيان .

(٩) ١٠١ البديع لابن المعتز نشر محمد خفاجى ، ٧٦ ج ٢ العمدة .

(١٠) ٤٠ ج ٣ الحيوان .

(١١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون . ويقول شيلر : فى الفن الشكل هو كل شىء والمعنى ليس شيئا مذكورا .

(١٢) ٨٣ و ٨٦ ج ١ ومواضيع اخرى .

(١٣) ص ٦ و ٧ الصناعتين .

٣ ــ وقد بدأ التدوين فى البـلاغة على يد ابن المعتز الذى ألف كتابه القيم « البديع »[١] وثعلب الذى ألف كتابه « قواعد الشعر » ، وبعد قليل ظهر نقد النثر كما ظهر نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى عام ٣٣٧ هـ • ثم كتاب الصناعتين لأبى هلال المتوفى عام ٣٩٥ هـ ، ثم كتاب الموازنة للآمـدى ، والوسـاطة للجرجانى ، واعجـاز القـرآن للباقلانى ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ، والعمدة لابن رشـيق وهما أكثر الكتب اتصالا بالبلاغة •

٤ ــ ثم جـاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجانى شيخ البلاغة العربية والمتوفى عام ٤٧١ هـ • فألف فى البلاغة كتابين جليلين هما :

١ ــ أسرار البلاغة ، وفيه دراسـات واسـعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وفيـه شرح للسرقات وبعض ألوان البـديع •

٢ ــ دلائل الاعجاز ، وفيه بحوث كثيرة هى أصول علم المعانى • كما أنه تحدث فيه عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات أيضـا •

٥ ــ وبعـد عصر الجرجـانى بحث الزمخشرى فى تفسـيره ، والرازى فى كتابه « نهـاية الايجاز » ، وابن الأثير صاحب المثـل[٢] السـائر ، وبدر الدين بن مالك صاحب المصـباح ، والتنوخى صاحب « الأقصى القريب » ، وكثير من العلماء ، فى البلاغة والفصاحة •

ومن أهم هؤلاء العلماء فى هذا الطور أبو يعقوب السكاكى المتوفى عام ٦٢٦ هـ تلميذ الحاتمى [٣] ، الذى ألف كتابه « المفتـاح » ، وجعله

---

(١) على نهجه الف ابن منقذ المتوفى عام ٨٤ هـ كتابه « البديع » .
(٢) شرحه عز الدين بن أبى الحديد م ٦٦٥ هـ فى كتابه « الفلك الدائر على المثل السـائر » .
(٣) ٧٣ المفتـاح .

أقساما ، وخص البلاغة بالقسم الثالث منه ، وقسمها الى ثلاثة أقسام المعانى ــ البيان ــ البديع • وبذلك تميزت علوم البلاغة ومباحث كل علم منهـا بالتفصيل •

والفلسفة والمنطق تغلب على السكاكى الى حد كبير ، من حيث كان يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر •

وبذلك تنتهى مراحل التأليف والابتكار فى بحوث البلاغة وتدوينها تدوينـا كاملا •

٦ ــ وجاء الخطيب القزوينى المتوفى عام ٧٣٩ فألف فى البلاغة كتابيه : تلخيص[1] المفتاح والايضـاح • وقد ألف الايضـاح ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح وجمع فيه كثيرا من آراء عبد القاهر والسكاكى فى شىء من التنظيم والشرح •

وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشى والتقـارير وفى مقدمتها الأطـوال للعصام ، والمطـول[2] للسـعد وشروح التلخيص وسواها ••• وهذه أهم كتب البلاغة وشروحها فى هذا العهد : قوانين البلاغة لعبد اللطيف البغـدادى م ٦٢٩ هـ ، والتبيـان لابن الزملكانى م ٦٥١ هـ ، والمعيار للزنجانى م ٦٥٤ هـ ، وبديع القرآن لابن أبى الاصبع م ٦٥٤ هـ ، والفوائد الغيـاثية للعضـد م ٧٥٦ هـ وشرحهـا الكرمانى م ٧٨٦ هـ ، والتبيان لشرف الـدين الطيبى م ٧٤٣ هـ ، والطراز ليحيى ابن حمزة العـلوى م ٧٤٩ هـ ، وعروس الأفراح للسـبكى م ٧٧٣ هـ ، والسمرقندية للسـمرقندى وهى رسـالة فى الاسـتعارات ، وتوفى السمرقندى عام ٨٨٠ هـ •

---

(١) لزكريا الانصـارى م ٩٢٦ هـ « مختصر تلخيص المفتـاح » : وللعباسى م ٩٦٣ هـ شرح لشواهد التلخيص سماه معاهد التنصيص .

(٢) عليه كتاب فى شرح شواهده اسمه عقود الدرر فى حل أبيـات المطول والمختصر ، وهو مطبوع طبعة حجر عام ١٣٠٧ هـ فى ١٦٦ صفحة .

٧ ــ شروح المفتاح للسكاكي .

(أ) شرحه بتمامه المولى حسام .

(ب) وشرح القسم الثالث منه : الشيرازى م ٧١٠ ه فى « مفتاح الفتاح » . والترمذى وهو معاصر للشيرازى ، والخلخالى م ٧٤٥ ه ، والسعد (٧١٢ ــ ٧٩١ ه) ، والسيد م ٨١٦ ه فى « المصباح » الذى ألفه عام ٨٠٣ ه[1] ، وعماد الدين الكاشى . وله رسالة فى حل المتشابهات التى أوردها الخطيب على المفتاح ، والابهرى سلطان شاه ، وطاشكبرى زاده م ٩٦٢ ه ، وشيخ زاده م ٩٥١ ه ، والشربينى م ٧٦٩ ه ، والخوارزمى ، وقد فرغ منه عام ٦٤٢ ه ، والفنارى م ٨٣٤ ه ، وله على شرحى السعد والسيد تعليقات ، وابن كمال باشا م ٩٤٠ ه ، وسواهم .

(ج) واختصر القسم الثالث منه :

المعانيجى م ٩٩٠ ه ، والقزوينى ٦٦٦ ــ ٧٣٩ ه ، والايجى م ٧٥٦ ه فى الفوائد الغياثية ، وبدر الدين ابن مالك م ٦٨٦ ه فى « المصباح فى اختصار المفتاح » ونظم « المصباح » المراكشى ، ثم شرحه وسماه « ضوء المصباح على ترجيز المصباح » ، واختصر هذا المختصر ابن النحوية م ٧١٨ ه ، وسماه « ضوء الصباح » ، ثم شرحه فى مجلدين فى كتاب اسفار المصباح عن ضوء المصباح ، ولمحمد بن خضر « مصباح الزمان فى شرح المصباح » .

هذا وقد ألف السعد « المطول على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى » وانتهى من تأليفه عام ٧٤٨ ه ، كما انتهى من تأليف مختصر المطول عام ٧٥٦ ه .. وفرغ ابن يعقوب من تأليف شرحه على مختصر

---

(١) على شرح السيد حواش : للبسطامى م ٨٧١ ه ، وللمولى اللطفى م ٩٠٠ ه ، ولحميد الدين م ٩٠٨ ه ، ولأسعد الناجى م ٩٢٢ ه ، ولمحيى الدين الفنرى م ٩٥٤ ، وللشهاب الخفاجى م ١٠٦٩ ه .

السعد في مكناسة في المحرم ١١٠٨ هـ .. وانتهى ابن السبكي من تأليف شرحه « عروس الأفراح » على مختصر السعد في جمادى الأولى عام ٧٥٨ هـ .. وانتهى الدسوقي من كتابة شرحه على مختصر السعد في شوال عام ١٢١٠ هـ .

٨ ـ يمتاز الايضاح للخطيب القزويني بعدة ميزات ظاهرة : فهو أوفى كتاب في بحوث البلاغة ، وهو أوضح الكتب المؤلفة فيها نظاما وأسلوبا ، وهو كثير البحث والتعمق والاستنباط لأسرار البلاغة العربية ، فوق أنه كتاب تطبيقي جميل في البلاغة ، وينقد القزويني فيه كثيرا من آراء السكاكي ، وان كان يعتمد الخطيب فيه على عبد القاهر والسكاكي كثيرا . ومع ذلك فالخطيب يجمع في كتابه خلاصات لبحوث علماء البلاغة في شتى العصور حتى عصره ، والكتاب بعد ذلك غزير المادة ، كبير الفائدة في الأدب والنقد والبلاغة والبيان[1] .

وهناك مؤلفات جديدة ظهرت في البلاغة في عصر الحواشي ، ومن بينها عقود الجمان للسيوطي . كما ظهرت في العصر الحديث عدة مؤلفات في البلاغة فيها لون من التهذيب والتنسيق وحسن الأخذ والاختيار .

وبذلك تنتهي مراحل التأليف في البلاغة منذ نشأتها حتى الآن .

***

---

(١) شرحه الأقصرائي م ٨٠٠ هـ وحيدرة م ٨٢٠ هـ ، والأستاذ الصعيدي والأستاذ التنوخي .

● الخطيب وأثره فى البلاغـة العربية :

والخطيب القزوينى[1] هو « جمـال الدين أبو المعالى محمد بن عبد الرحمن ، ابن خطيب دمشق » كما يقول جورجى زيدان ، وبتفصيل أوسـع هو « الشيخ الامام العـالم العلامة خطيب الخطبـاء ، مفتى المسلمين ، جـلال الدين ، أبو عبد الله ، محمـد ، ابن حفص عمـر ، القزوينى الشافعى » كمـا يقول تلاميـذه أو هـو نفسه فى مقـدمة كتـابه الايضـاح .

فهو من أسرة علمية ودينية كبيرة ، كان لها ولا شك أثرها فى حياته وتفكيره وروحـه .

ولد عام ٦٦٦ هـ ، وتعلم الفقـه ، وتولى القضـاء ، وانتقل الى دمشق ، وتولى الخطابة فى مسجدها ، ثم تولى القضاء بمصر ، وتمكن نفوذه فيها أيام الملك الناصر ، اكتسب مالا طائلا ، ثم جـاء الى دمشق وتوفى فيهـا . وأشهر مؤلفاته تلخيص المفتاح ، والايضاح فى المعانى والبيان[2] ، وكانت وفاته عام ٧٣٩ هـ ، كمـا يقول صـاحب الـدرر الكامنـة .

وتدل مؤلفات الخطيب فى البلاغة على ثقافة بلاغية وأدبية واسعة وقراءة مستفيضة لأهم المؤلفات فى البـلاغة وفى مقدمتهـا : « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر ، والمفتاح للسكاكى .

ألف الخطيب مختصرا صغيرا للمفتاح فى البـلاغة ، أو للقسـم

---

(١) شـذرات الذهب ، الدرر الكامنـة فى أعيـان المـائة الثامنة ، وسـواها .

(٢) وقد حرف جورجى زيـدان اسمه فذكره « الافصاح » بـدل الايضـاح (٤٤ جـ ٣ تاريخ آدب اللغة العربية) .

الثالث بعبارة أوضح ، وسماه « تلخيص المفتاح »[1] . لخص فيه ذلك السفر القيم وقدم فيه وأخر ، وحذف واختصر ، وفيه بعض آراء له لم يرتضها جهابذة هذه الفنون ، » ومن العجيب أن يسمى كتابه بهذا الاسم ، وهو فى رأى أحد الباحثين ليس بالتلخيص له وحده ، بل أشبه بأن يكون تلخيصا لكتابى أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبد القاهر ولسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى .. وروح التلخيص من الكتاب الأخير واضح كل الوضوح فى مقدمته »[2] . وقد يكون فى هذا الرأى لون من المبالغة ، فمتن التلخيص ليس تلخيصا للأسرار والدلائل وسر الفصاحة فى قليل ولا كثير ، انما هو تلخيص للقسم الثالث من المفتاح وحده ، وما فيه من روح التأثر بعبد القاهر فمرجعه الى المفتاح نفسه ، الذى اعتمد فيه السكاكى على عبد القاهر الى حد بعيد . وقد يستساغ ذلك فى الايضاح لا فى « تلخيص المفتاح » .

ثم ألف الخطيب كتابه الايضاح فى البلاغة على ترتيب التلخيص ، وبسط القول فيه ليكون كالشرح له ، فأوضح مواضعه المشكلة ، وفصل معانيه المجملة ، واعتمد على المفتاح والأسرار والدلائل وغير هذه المؤلفات فى بحوثه ودراساته فيه ، كما يشير اليه الخطيب نفسه فى مقدمة الايضاح . والكتاب « فيه أمهات مسائل هذه الفنون بعبارة واضحة فيها روح من أسلوب عبد القاهر الجامع بين التحقيق العلمى والرصانة الأدبية[3] .

---

(١) شرحه الخلخالى م ٧٤٥ هـ ، وناظر الجيش م ٧٧٨ هـ والبابرتى م ٨٧٦ هـ ، وشمس الدين القونوى م ٧٨٨ هـ ، والتيزيتى م ٧٩٣ هـ ، والسيد عبد الله م ٨٠٠ هـ ، وعصام الدين م ٩٥١ هـ ، والسعد م ٧٩٥ هـ ... وعلى شرح السعد شروح : ليس الحمصى م ٩٦١ هـ ، ولابن يعقوب م ١١٠٨ هـ وللدسوقى م ١٢٣٠ هـ .

(٢) ٦٢ ، ١٣٧ بحوث وآراء فى علوم البلاغة للأستاذ المرحوم احمد المراغى .

(٣) ٦٣ المرجع .. وفى المكتبة الأزهرية حاشية مخطوطة على أبيات

=

وعلى « تلخيص المفتاح للخطيب » كثير من الشروح والحواشي والتقارير مما يدل على مدى شهرته العلمية عند الباحثين . ولا يزال منهج الخطيب فى البلاغة وفى تلخيصه بالذات هو المنهج العلمى فى علوم البلاغة الى عصرنا الراهن .

وكتاب الايضاح عمل جليل فى البلاغة سواء فى ترتيبه وتقسيمه وتنظيم بحوثه ، أم فى استيعابه واستقصائه وتحليله ، أم فى جمعه واستمداده من شتى المصادر والمراجع ، أم فى أسلوبه الأدبى وروحه وكثرة تطبيقاته الأدبية ، وهو أهم كتاب دراسى فى البلاغة فى العصر الحاضر .

* * *

وهذا شرح جديد للايضاح ، يتناول بالبحث والتحليل والدراسة والتعليق والشرح جميع مسائله وشواهده ، ويشير الى مصادره ومراجعه التى ألف منها الخطيب هذا الكتاب . وهو عمل سيكون له أثره فى البلاغة العربية ، وفى خدمة الايضاح وتذليل صعوبات البحث فيه بتوفيق الله .

ويمتاز هذا الشرح بدقة البحث . وطول المراجعة ، وكثرة الشرح والتفصيل ، والالمام بكل رأى ، وتحليل كل مذهب ما عليه وما له ، وبعرض آراء جديدة فى شتى بحوث البلاغة وعلومها .. كما يمتاز بمقدمته التى هى تأريخ للبلاغة ونشأتها وأطوار التأليف فيها ، وغير ذلك مما يحتوى عليه من مميزات ، وقد وضعنا للكتاب بعض العناوين المساعدة على فهمه وايضاحه .

* * *

=

الايضاح ، وهى نسخة فى مجلد بقلم فارسى فى ١٢٦ ورقة بنمرة (٤٣) ١٠٩٥ . وفيها نسخة فى مجلد بقلم معتاد بخط محمد حسن سنة ١٣٦٥ فى ١٥٠ ورقة بنمرة (٢١١٠) ٥٢٨٦ .. شرح مخطوط على الايضاح ، بدار الكتب المصرية .

ترجمة الخطيب

عن الدرر الكامنة لابن حجر (١) ، والعقد المذهب لابن الملقن ، وشذرات الذهب (٢)

هو قاضي القضاة أبو المعالي جلال الدين محمد بن القاضي سعد الدين أبي القاسم عبد الرحمن بن امام الدين عمر القزويني الشافعي .

ولد بالموصل سنة ٦٦٦ وسكن بلاد الروم ، مع والده وأخيه واشتغل بالعلم وتفقه على والده وولي قضاء تيكسار من بلاد الروم ثم قدم دمشق وسمع من العز الفاروثي وطائفة وحدث وتفقه واشتغل في الفنون وأتقن الأصول والعربية والمعاني والبيان ، وكان فهما ذكيا مفوها ذا ذوق سليم حسن الايراد والمحاضرة حلو العبارة فصيحا جميل الهيئة كبير الذقن جوادا أديبا حسن الخط ، وناب عن أخيه الأكبر امام الدين قاضي قضاة الشام الى أن مات أخوه سنة ٦٩٩ ثم ولي خطابة جامع دمشق فأقام بها مدة طويلة ثم طلبه الملك الناصر الى القاهرة في سنة ٧٢٤ وكان قدومه على البريد يوم الجمعة فاتفق أنه اجتمع بالناصر ساعة وصوله فأمر به أن يخطب بجامع القلعة فخطب مرتجلا مع ما هو عليه من التعب وأثر السفر فأعجب به السلطان وشكره وسأله عن حاله وكم عليه من الدين فذكر أن عليه ثلاثين ألفه فأمر بوفائها عنه فشافهه بقضاء دمشق فباشرها والخطابة جميعا الى أن ولاه قضاء الديار المصرية في سنة ٧٢٧ فعم أمره جدا وصرف مال الأوقاف على الفقراء والمحتاجين وحج مع السلطان فأعانه بمال وأحسن الى المصريين والشاميين وكان لهم ذخرا وملجأ ولم يزل على

---

(١) ص ٦ ج ٤ طبع الهند عام ١٣٥٠ هـ — لابن حجر م ٨٥٢ هـ .
(٢) ١٢٣ / ٦ شذرات الذهب .

حاله الى أن أعيد الى قضاء الشام بسبب أحوال أولاده وفرح به أهل الشام فأقام قليلا وتعلل وأصابه فالج فمات منه فى سنة ٧٣٩ هـ عن ٧٣ سنة فأسفوا عليه كثيرا وشيعه عالم عظيم ، وللشعراء فيه مدائح كثيرة ومراث عديدة وكان يرغب الناس فى الاشتغال بأصول الفقه وفى المعانى والبيان . وتصنيفه المسمى تلخيص المفتاح مشهور ونظمه السيوطى وسماه عقود الجمان .. وله ايضاح التلخيص أيضا .. وكان يعظم الارجانى الشاعر ويقول انه لم يكن للعجم نظيره واختصر ديوانه فسماه (السور المرجانى من شعر الارجانى) . وقال الذهبى : عظم شأنه لما ولى قضاء الديار المصرية وبلغ من العز ما لا يوصف بحيث لا ترد له شفاعة وربما رمى على يد السلطان نفسه وكان فصيحا حلو العبارة ، مليح الصورة ، سمحا حليما كثيرة التحمل وسيرته تحتمل كراريس ، وذكر اليوسفى فى سيرة الملك الناصر محمد أن القاضى كان محسنا الى الناس كثير التصدق والمكارم والبر لأرباب البيوت ، قال : انه لم يوجد لأحد من القضاة منزلة عند سلطان تركى نظير نزلة جلال الدين ، وكان الناصر يحتمل ما ينقل اليه من سيرة ولده حتى كان يقول لوالى البلد : اكبس فلانا ثم يرسل اليه يقول : لا تفعل ، نبقى فى حياء من والده ... فرحمة الله تعالى عليهم وغفرانه .

وترجم له السيوطى فى بغية الوعاء (ص ٦٦) ، فنسبه الى أبى دلف العجلى ، وذكر ما لا يخرج عما سبق ، ثم قال : ولا أعلمه نظم شيئا مع قوة باعه فى الأدب ، ومات فى منتصف جمادى الأولى عام ٧٣٩ هـ .

ويقول صاحب الدرر الكامنة : ان له ابنا اسمه محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزوينى ، وهو ابن القاضى جلال الدين خطيب جامع دمشق .. وقد ترجم له[1] .

* * *

(١) ١٨٥ جـ ٤ .. ويقول فيه : انه ولد عام ٧٠١ هـ وتفقه ومهر فى الخطابة ومات فى جمادى الآخر عام ٧٤٢ هـ .

اول كتاب الايضــاح للخطيب القزوينى

● تمهيـــــد :

قال الشيخ الامام ، العـالم العـلامة ، خطيب الخطباء ، مفتى المسلمين ، جلال الدين : أبو عبد اللـه محمد ، ابن قاضى القضـاة سعد الدين أبى محمد عبد الرحمن ، ابن إمام الدين أبى حفص عمر ، القزوينى الشافعى . متع الله المسـلمين بمحياه ، وأحسن عقباه :

الحمد لله رب العالمين ، وصلاته على محمد وعلى آل محمد أجمعين .

أما بعـد : فهذا كتاب فى علم البلاغة وتوابعها[1] ، ترجمتـه[2] بـ « الايضـاح » وجعلته على ترتيب مختصرى الذى سميته تلخيص المفتاح . وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له ، فأوضحت مواضعه المشكلة ، وفصلت معانيـه المجملة وعمدت الى ما خلا عنه المختصر ، مما تضمنه « مفتاح العلوم[3] » ، والى ما خـلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الامام عبد القاهر الجرجانى[4] رحمه الله ــ فى كتابيه : دلائل الاعجاز ، وأسرار البلاغة ، والى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما[5] ، فاستخرجت زبدة[6] ذلك كله ، وهذبتها ورتبتها ، حتى استقر كل شىء منها فى محله ، وأضفت الى ذلك ما أدى اليه فكرى ، ولم أجده لغيرى .

فجاء بحمد الله جامعا لأشتات هـذا العلم . واليه أرغب فى أن يجعله نافعا لمن نظر فيه من أولى الفهم .

وهو حسبى ونعم الوكيل .

* * *

---

(١) علم البلاغة يشتمل على المعانى والبيان وتوابعها هو علم البديع والكلام فى السرقات الشعرية .

(٢) المـراد : سميته .　　　(٣) تأليف السكاكى م ٦٢٦ هـ .

(٤) هو شيخ البلاغة العربيـة وفيلسـوفها . توفى عـام ٤٧١ هـ . واسـمه أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى : وله ترجمة فى فوات الوفيات وفى بغية الوعاة للسـيوطى وعرض له ولكتابيه : الأسرار والدلائل صاحب كتاب بحوث وآراء فى علوم البلاغة (ص ٥٨ ، ١٢٩ ــ ١٣٢) . . وقد ألفت فيه كتابا عنوانه « عبد القاهر والبلاغة العربية » .

(٥) أى غـير السكاكى والجرجانى .

(٦) زبدة الشىء : جوهره وخلاصته .

مقــــدمة (١)

فى الكشف عن معنى الفصاحة والبلاغة
وانحصار علم البلاغة فى علمى (٢) المعانى والبيان

للناس فى تفسير الفصاحة والبلاغة أقوال مختلفة ، لم أجد فيما بلغنى منها ما يصلح لتعريفها به ، ولا ما يشير الى الفرق بين كون الموصوف بهما الكلام وكون الموصوف بهما المتكلم[٣] ، فالأولى أن نقتصر على تلخيص القول فيهما بالاعتبارين ، فنقول :

---

(١) الايضاح مقسم الى : مقدمة وثلاثة فنون وخاتمة . فالمقدمة ليست من قبيل مقاصد علم البلاغة وتوابعها ، بل هى تمهيد لذلك . والفنون الثلاثة هى من مقاصد البلاغة الا أن موضوع كل فن منها يختلف عن موضوع الآخر ، فموضوع الفن الأول — وهو علم المعانى — الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وموضوع الفن الثانى — علم البيان — الاحتراز عن التعقيد المعنوى . وموضوع الفن الثالث — البديع — ليس الاحتراز عن شىء أصلا . بل مجرد تحسين اللفظ وتزيينه . والخاتمة تشمل السرقات والكلام على حسن الابتداء والتخلص وحسن الخاتمة ، فهى من الفن الثالث أو متصلة به بصلة كبيرة .

والمقدمة هنا لبيان معنى شيئين : الأول معنى الفصاحة والبلاغة ، والثانى انحصار علم البلاغة فى علمى المعانى والبيان . وكل ذلك مما يرتبط بالمقصود من الكتاب .. فالمقدمة هنا هى مقدمة كتاب .

وذكر معنى الفصاحة والبلاغة قبل الشروع فى مسائل المعانى والبيان والبديع ضرورى ، لتوقف معرفة معانيها على معرفة معنى البلاغة والفصاحة .

(٢) فى الأصل « فى علم » .

(٣) فى هذا الكلام شىء من المجازفة : فقد سبق أبو هلال ببيان الفرق بين الفصاحة والبلاغة فى الصناعتين ، فذكر أن البلاغة هى كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه لتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة

=

= ومعرض حسن ، ثم قال : وأما الفصاحة فقد اختلفوا فيها ، فقال قوم : انها مأخوذة من قولهم : أفصح فلان عما فى نفسه اذا أظهره وعلى هذا ترجع الفصاحة والبلاغة الى معنى واحد وان اختلف أصلهما فى اللغة ، وقال بعضهم : الفصاحة تمام آلة البيان ، وعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفين ، وذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان فهى مقصورة على اللفظ والبلاغة انما هى انهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى الخ (٣٩ وما بعدها صناعتين) .

وذكر ابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون الا وصفا للألفاظ مع المعانى ، فلا يقال فى كلمة واحدة انها بليغة وان قيل انها فصيحة اذا فضلت عن مثلها ، وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا كالذى يقع فيه الاسهاب فى غير موضعه ، ثم قال : والفصاحة على ذلك شطر البلاغة واحد جزءيها ، ولها شروط اذا تكاملت فى الألفاظ فلا مزيد على فصاحتها ، وتلك الشروط : منها ما يتعلق باللفظة الواحدة ، ومنها ما يوجد فى الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض .. وهذا كله هو خلاصة رأى القزوينى اقتبسه من ابن سنان (راجع ص ٥٥ وما بعدها من سر الفصاحة طبعة الرحمانية) وذكر ابن رشيق فى العمدة : أن البلاغة والفصاحة راجعان الى اللفظ والمعنى جميعا الخ (ص ٨٠ طبعة هندية) .

وذكر عبد القاهر : أن البلاغة والفصاحة وما يجرى مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية اليه دون المعنى معناها حسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة ثم تبرجها فى صورة هى أبهى ، ولا جهة لذلك غير أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذى هو أخص به وأكشف عنه وأحرى بأن يظهر مزية (ص ٣٥ من دلائل الاعجاز) ، وقال فى أسرار البلاغة : أما رجوع الاستحسان (أى الوصف بالبلاغة والفصاحة) الى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه فلا يعدو نمطا واحدا ، هو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالهم ويتداولونه فى زمانهم ، ولا يكون وحشيا غريبا أو عاميا سخيفا (ص ٣ أسرار البلاغة) ، فالبلاغة والفصاحة عنده مترادفان ، وان اختلف فهم كلامه فيهما وفى هل يرجعان عنده الى اللفظ أو الى المعنى . ويرى عبد القاهر أن الفصاحة تقال لكون اللفظ جاريا على القوانين المستنبطة من استقراء كلامهم كثير الاستعمال على السنة =

كل واحدة منهما[1] تقع صفة لمعنيين : أحدهما الكلام كما فى قولك قصيدة فصيحة أو بليغة : ورسالة فصيحة أو بليغة ، والثانى المتكلم كما فى قولك شاعر فصيح أو بليغ . وكاتب فصيح أو بليغ . والفصاحة خاصة تقع صفة للمفرد فيقال : كلمة فصيحة ، ولا يقال كلمة[2]

= العرب الموثوق بعربيتهم (ص ٣٥٢ دلائل الاعجاز) وهو كلام السكاكى أيضا (ص ١٧٦ من المفتاح) .

ويرى السكاكى أن البلاغة بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وايراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ؛ وأما الفصاحة فهى عنده قسمان : قسم يرجع الى المعنى وهو خلوص الكلام من التعقيد المعنوى . وقسم يرجع الى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية جارية على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم . لا مما أحدثه المولدون . ولا مما أخطأت فيه العامة (وأن تكون) سليمة من التنافر (راجع ص ١٧٦ من المفتاح) .

. . ويرى ابن الأثير أنه يحتاج فى تأليف الكلمات الى ثلاثة أشياء : اختيار الألفاظ المفردة . ونظم كل كلمة مع أختها بحيث لا يكون هناك قلق ولا منافرة ، والغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه ... والأول والثانى عنده هما المراد بالفصاحة ، والثلاثة بجملتها هى المراد بالبلاغة . وتكلم فى كتابه المثل السائر على الصناعة اللفظية (وهى عنده قسمان : قسم اللفظة المفردة ، وقسم الألفاظ المركبة) ، وعلى الصناعة المعنوية .

(١) أى من البلاغة والفصاحة .

(٢) هذا هو الفرق بين الفصاحة والبلاغة عند الخطيب ، فالفصاحة عنده صفة للمفرد والكلام والمتكلم ، والبلاغة صفة للكلام والمتكلم فقط ، ولا شك أن من يرى أن البلاغة والفصاحة مترادفان يجيز أن يقال كلمة بليغة كما يقال كلمة فصيحة ، وان كان عبد القاهر — الذى يرى أن الفصاحة والبلاغة مترادفان — يجعلها وصفا للكلام لا للفظ المفرد فلا تقول عنده كلمة فصيحة ولا كلمة بليغة .

هذا والمراد بالكلام ما يقابل الكلمة فيشمل المركب الاسنادى والمركب الناقص جميعا ، فانه قد يكون بيت من القصيدة غير مشتمل على اسناد يصح السكوت عليه مع أنه متصف بالفصاحة مثل :

=

بليغة(١) .

* * *

اذا ما الغانيات برزن يوما وزججن الحواجب والعيونا

فيكون المراد بالكلام تاما أو ناقصا . وورد على هذا الرأى اعتراضات منها : أن المركب الناقص انما يصح ادخاله فى مدلول الكلام لو كانوا يطلقون على مثل هذا المركب أنه كلام فصيح ولم ينقل عنهم ذلك بل المنقول وصفهم له بأنه فصيح دون كونه كلاما ، على أنه يجوز أن يكون وصفه بالفصاحة باعتبار فصاحة مفرداته .

وقيل أن المركب الناقص خارج عن المفرد وعن المركب التام فلا يتصف بالفصاحة والبلاغة بالنظر لذاته بل قد يوصف بها بالنظر لمفرداته .

والصحيح أن المراد بالكلام ما يقابل المفرد ، حقيقة (وهو اللفظة الواحدة المفردة) أو حكما (وهو المركب الناقص) ، فالمركب الناقص على هذا داخل فى المفرد ، لأن المفرد يطلق على ما يقابل المركب ، وعلى ما يقابل المثنى والمجموع وعلى ما يقابل الكلام ، ومقابلة المفرد ههنا بالكلام قرينة دالة على أنه أريد به ما ليس بكلام تام الافادة ، فيكون المركب الناقص داخلا فيه ـ أى فى المفرد .

(١) اذا لم يسمع ذلك عن العرب ، وهذا هو التعليل الصحيح . وبعضهم يعلل لهذا بأن البلاغة انما هى باعتبار المطابقة لمقتضى الحال وهى لا تتحقق فى المفرد ، وورد على هذا التعليل بأن عدم تحقق المطابقة لمقتضى الحال فى المفرد انما هو فى بلاغة الكلام والمتكلم ، فلم لا يجوز أن تكون هناك بلاغة أخرى غير المطابقة يصح وجودها فى الكلمة ؟

الفصـــــاحة (١)

أما فصاحة المفرد[٢] فهى خلوصه[٣] من تنافر الحـروف والغرابة ومخالفة القياس اللغـوى :

---

(١) هى فى اللغة تنبىء التزاما عن الظهور والابانة (راجع ص ٣٥٣ من الدلائل (يقال : فصح الأعجمى وافصح : اذا انطلق لسانه وخلصت لغته من اللكنة وجادت فلم يلحن ، وأفصح به أى صرح ، وفصـح اللبن اذا أخذت رغوته وذهب لباؤه ، قال أبو محجن الثقفى أو نضلة السلمى :

رواه ، فازدروه ، وهـو خـرق ٍ وينفـع أهله الرجـل القبيـــح

فلم يخشـــوا مصـالته عليهـم وتحت الرغـــوة اللبن الفصـــيح

(٢) بدأ بذكر أقسام الفصاحة وتعريف كل قسم منهـا على حـدة دون أن يعرفها فى نفسها على الاطلاق لتعـذر جمع المعانى المختلفـة غـير المشتركة فى أمر يعمها فى تعريف واحـد .. وقدم الكلام على الفصـاحة قبل البلاغة ، لأن معرفة البلاغة سـواء كانت بلاغة كلام أم متكلم موقوفة على معرفة الفصاحة فى الجملة (اذ لا دخل لفصاحة المتكلم فى بلاغة الكلام أو المتكلم) ، لكون الفصاحة مأخوذة فى تعريف البلاغة ، ولهذا أيضا قدم فصـاحة المفرد على فصـاحة الكلام والمتكلم ، أما توقف فصـاحة الكلام على فصاحة المفرد فظاهر ، وأما توقف فصـاحة المتكلم عليه فبواسـطة أخذ فصاحة الكلام المتوقف عليها فى فصاحة المفرد .. هذا وعيب المفرد اما فى مادته أى حروفه وهو التنافر أو فى صـورته وهو المخالفة للقياس اللغوى المستنبط من استقراء اللغة (فالقياس اللغوى هو الضابط المتقرر من استعمالات العرب وهو القياس الصرفى) ؛ واما من دلالته على معناه وهـو الغـرابة .

(٣) تفسير الفصاحة بالخلوص من هذه العيوب لا يخلو عن تسامح ، لأن الفصاحة تحصـل عند الخلوص ، لأنها هى كون الكلمة جـارية على القوانين الصرفية متناسـبة الحروف كثيرة الاستعمال ، ويلزم من ذلك الخلوص ، وبتفصـيل أدق أقول : الفصـاحة هى كون اللفظ جاريا على القوانين المستنبطة من استقراء كلام العرب كثير الاستعمال على ألسـنة العرب الموثوق بعربيتهم .

● **فالتنــــافر (١) :**

منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية فى الثقل على اللســـان وعسر النطق بها ، كما روى أن أعرابيـــا ســـئل عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهخــع(٢) .

---

(١) هـــو وصف فى الكلمة يوجب ثقلها على اللســـان وعسر النطق بها ، والحكم فى التنافر هو الذوق ؛ وهو قـــوة يدرك بهـــا لطائف الكلام ووجوه تحسينه ؛ فكل ما يعده الذوق الصحيح ثقيلا متعسر النطق به فهو متنافر سواء كان من قرب المخارج أو بعدها أو غـــير ذلك ؛ وقد صرح بذلك ابن الأثير فى « المثل الســـائر » . وقال الزوزنى : أن قرب المخارج سبب للثقل المخل بالفصـــاحة ، وان فى قوله تعالى « ألـــم أعهـــد إليكم بنى آدم » ثقلا قريبا من التناهى فيخل بفصاحة الكلمة ، ولكن الكلام الطويل المشتمل على كلمة غير فصيحة لا يخرج عن الفصاحة ، كما لا يخرج الكلام الطويل المشـــتمل على كلمة غير عربية عن أن يكون عربيا . ورد رأى الزوزنى بمـــا يأتى :

١ ــ أن فصاحة الكلمات مأخـــوذة فى تعريف فصاحة الكلام من غير تفرقة بين طويل وقصير .

٢ ــ وأن الزوزنى يرى أن الكلام ما لبس بكلمة ؛ وحينئذ فالقول بوجود كلمة غير فصيحة فى كلام فصيح أكثر فسادا من ذلك القول على تفسير غيره ، فالفســـاد لازم لكلام الزوزنى فى المركب التـــام وفى المركب الناقص اذا اشتمل كل منهما على كلمة غير فصيحة ؛ أما على قول غـــير الزوزنى وهو الشارح (السعد) فالفساد فى المركب التام فقط لأنه يجعل المركب الناقص داخـــلا فى الكلمة .

٣ ــ على ان القيـــاس على الكلام العربى ظاهـــر الفســـــاد ، لأن القرآن عربى باعتبـــار كله أو جله ، وأيضـــا فلم يشـــترط فى عربية الكلام عربيـــة الكلمـــات .

٤ ــ ولو سلم عدم خـــروج السورة عن الفصـــاحة مع اشـــتمالها على كلمة غير فصيحة ، فان مجرد اشتمال القرآن على كلام غـــير فصيح بل على كلمة فصيحة مما يقود الى نسبة الجهل أو العجز لله .

(٢) هى اسم شجرة من شجر الصـــحراء ، وتنطق الكلمة بصـــور كثيرة ، وقيل انهـــا كلمة معاياة لا أصل لها فى اللغـــة .

ومنه ما هو دون ذلك كلفظ مستشزر فى قول امرىء القيس:
غدائره مستشزرات الى العـــلا تضل العقاص فى مثنى ومرسل[1]

● والغــرابة :

أن تكون الكلمة وحشـية لا يظهر معناها ، فيحتاج فى معرفته

---

(1) من معلقة امرىء القيس امام الشـعراء الجاهلين التى مطلعها :

قفـا نبـك من ذكرى حبيب ومنزل بسـقط اللوى بين الدخول فحومل

وقبل هذا البيت :

وفـرع يزين المتـن اسـود فاحم أثيـث كقنـو النخـلة المتعثـكل

الفرع : الشعر التام . المتن : ظهر المراة . أثيث : كثير . قنو النخلة : عنقودها . المتعثكل : المتراكم . الغدائر : الذوائب ، جمع غديرة . والضمير فيها عائد الى الفرع فى البيت الاول . مستشزرات اى مرتفعات ان كان بكسر الزاى على لفظ اسـم الفاعل ، او مرفـوعات ان روى بالفتح على لفظ اسم المفعول ، استشزره اى رفعه متعديا ، واستشزر اى ارتفـع لازما . تضل : تغيب وتختفى . العقاص : جمع عقيصة وهى الخصـلة المجموعة من الشعر . المثنى : المفتول . المرسل : خلاف المثنى .

والمعنى : ان ذوائبه مشدودة على الراس وان شـعره مقسـم الى عقاص ومثنى ومرسل والاول يغيب فى الأخيرين . والمراد وصف الشـعر بالكثافة والكثرة والطول .. والشـاهد هنا قوله مستشـزرات فهو لفظ متنافر ثقيل على اللسـان ، ولكنه أقل ثقـلا من « الهعخع » .. وقال الخلخالى : ان سبب الثقل فى مستشـزرات راجع الى توسط الشين التى هى من الحروف المهموسة (وهى عشرة يجمعها قولهم : سكت فحثـه شخص . وما عداها فحروف مجهورة) الرخوة (وهى ما عـدا الحروف الشـديدة التى يجمعهـا قولهم : أجـد قط بكـت ، وماعدا الحـروف المتوسطة التى يجمعها قولهم : لن عمر) ، بين التاء التى هى من المهموسة الشديدة وبين الزاى التى من المجهورة الرخوة ، ولو قال : مستشرف لزال الثقل . ورد راى الخلخالى بأن الراء المهمـلة ايضـا هى من الحـروف المجهورة ... ومن الالفاظ المتنافرة : اطلخم بمعنى اشـتد ، ومثعنجر : للسـائل من المـاء أو الدمع .

الى أن ينقر[١] عنها فى كتب اللغـة المبسـوطة ، كما روى عن عيسى ابن عمر[٢] النحوى أنه سقط عن حماره ، فاجتمع عليه الناس ، فقال : ما لكم تكأكأتم على تكأكؤكم على ذى جنة افرنقعوا عنى ، أى اجتمعتم تنحـوا .

أو يخرج لها وجه بعيد[٣] كما فى قول العجاج[٤] :

ومقـلة وحاجبـا مزججا وفاحما ومرسـنا مسرجا

---

(١) ينقر : أى ينقش . والكلمة الوحشـية هى التى لا تكون مأنوسة الاستعمال عند العرب الخلص من سكان البادية ، لا بالنسبة للمولدين .

(٢) عالم جليل من ثقيف ومن ائمة النحـو واللغـة ومن المتقعرين فى كلامهم توفى عام ١٥٠ هـ ، وتروى هذه القصـة عن أبى علقمـة النحـوى حين هاجت به مرة ببعض طرق البصرة فوثب عليه قوم يعضون ابهـامه ويؤذنون فى أذنه ، وكان أبو علقمة نحويا مغربا فى ألفاظه .
وقوله : ذى جنـة ، أى صاحب جنون .

(٣) سبب هذا التخـريج هـو عدم ظهـور معنى الكلمة ، وسبب التفتيش والتنقير عن الكلمة فى المعاجم هو وحشيتها .

وما يحتاج الى تخريج يعده بعض البلاغيين من التعقيد ، والبعض يجعله خطأ ، وكلا الوجهين غير صحيح ، لأن الوارد من هذا الباب انمـا ورد من عربى موثوق بعربيته فلا يعد خطا ، كما أن هنا فرقا بين هذا الباب وبـين التعقيـد ، لأن التعقيـد فيـه خطـأ ناشىء عن ظهـور الـدلالة على المراد ، وهنا لا خطأ ولا خفـاء فى الدلالة فلا تعقيد .

(٤) شـاعر راجز مشهور أدرك الدولة الأموية . والبيت من أرجوزة العجاج « ما هاج أحزانا وشجوا قد شجا » . وفى أسرار البلاغة ص ٤٨ ذكره عبد القاهر مع الاسـتعارات القبيحة (فى قوله : ومرسـنا) ... المقلة : العين . مزججا : مدققا مطولا . فاحما : أى شعرا أسود كالفحم . المرسن : الأنف ... والشـاهد فى البيت فى قوله مسرجا فانه غير ظاهر المعنى ، اذ أن العلماء قد اختلفوا فى معناه . والحاصل أن مسرجا اسـم مفعول مشتق فلابد له من أصل يرجع اليه فقيل هو :

=

فانه لم يعرف ما أراد بقوله « مسرجا » ، حتى اختلف فى تخريجه: فقيل هو من قولهم للسيوف : سريجية ، أى منسوبة الى قين[1] يقال له « سريج » ، يريد أنه فى الاستواء والدقة كالسيف السريجى ، وقيل : من السراج ، يريد أنه فى البريق كالسراج[2] . وهذا يقرب من قولهم : سرج وجهه أى حسن ، وسرج الله وجهه أى بهجه وحسنه[3] .

=

= ١ ــ فعل (بالتشديد) للنسبة مثل كرمته اى نسبته للكرم . ولما لم يوجد التسريج الذى حق النسبة أن تكون اليه جعلنا مسرجا منسوبا للسراج أو للسريجى نسبة تشبيهية أى هو منسوب لهما من حيث أنه شبيه بهما . ووجه بعد هذا التخريج أن مجرد النسبة لا يدل على التشبيه .

٢ ــ وقيل انه من فعل بشديد العين بمعنى صيرورة فاعله كأصله مثل قوس الرجل أى صار كالقوس ، فمسرج أى صائر كالسراج أو كالسريجى ... وهذا مردود بأن سرج على هذا لازم فلا يصاغ منه اسم مفعول .

٣ ــ وقيل انه من فعل بمعنى صيرورة فاعله أصله أو صيرورته ذا أصله مثل عجزت المرأة أى صارت عجوزا وورق الشجر صار ذا ورق ، فمسرج أى صار سراجا أو سريجا اى مثل احدهما أو صار ذا سراج وهذا مردود بما يرد به الوجه السابق .

٤ ــ وقيل هو اسم مفعول من سرج الله وجهه أى نوره وبهجه ، فمعنى مسرج : منور ، فليس فيه نسبة تشبيهية ، وهذا وان لم يكن غريبا من حيث عدم احتياجه لتخريج بعيد ، لكنه بعيد من حيث انه يحتاج الى تفتيش عليه فى كتب اللغة المبسوطة .

(١) القين : الحداد .

(٢) هذان التخريجان هما حاصل الوجه الأول الذى سبق ذكره والذى سبق بيان ما عليه من رد .

(٣) اى أن الوجه المذكور قريب من هذا الوجه الثانى فى أن كلا منهما غريب والكلمة عليهما غير ظاهرة المعنى ، وهذا التخريج الثانى هو الوجه الرابع الذى سبق ذكره ، ورد بانه يحتاج الى تفتيش على معناه فهو غريب . وقال الامام المرزوقى : ان مسرجا لفظ مستحدث من السراج أى

=

● **ومخالفة القياس (١) :**

كما في قول الشاعر[٢] :

الحمد لله العلى الأجلل   (أنت مليك الناس ربا فاقبل)

فان القياس الأجل بالادغام .

وقيل هي :[٣] خلوصه مما ذكر[٤] ، **ومن الكراهة في السمع**[٥]

=

أنه لفظ احدثه المولدون وأخذوه من السراج واستعملوه بمعنى حسن ولم يكن ذلك اللفظ واقعا في لغة العرب أصلا ، ويرد عليه أن العجاج قبل عصر التوليد والاستحداث .

ووجه القرب بين الوجهين المذكورين أن مسرجا عليهما مشتق من سرج ، لكن على الوجه الأول مشتق منه للنسبة التشبيهية ، وعلى الوجه الثاني مشتق منه اشتقاقا لغويا لا على افادة النسبة التشبيهية .

(١) هو أن تكون الكلمة على خلاف قانون مفردات الألفاظ الموضوعة ، اعنى على خلاف ما ثبت عن الواضع ، فالموافقة للقياس أن تكون الكلمة على وفق ما ثبت عن الواضع سواء وافقت القانون التصريفي أم خالفته ولكن ثبتت عن الواضع كذلك ، والمخالفة أن تكون الكلمة على خلاف ما ثبت عن الواضع سواء خالفت القانون الصرفي أيضا أم لا ؛ فنحو آل وماء وأبى يأبى وعور يعور فصيح . لأنه ثبت عن الواضع كذلك .

(٢) هو ابو النجم الراجز المشهور . وهذا الشاهد في الكتاب لسيبويه صحيفة ٣٠٢ من الجزء الثاني وروايته فيه هكذا : الحمد لله الوهوب المجزل .

ومثل البيت قول الشاعر :

مهلا أعاذل قد جريت من خلقى   انى أجود لأقوام وان ضننوا

(٣) أى فصاحة المفرد .

(٤) أى من التنافر والغرابة ومخالفة القياس .

(٥) وهذا القول لابن الأثير في « المثل السائر » . قال : الألفاظ داخلة في حيز الأصوات ، فما استلذه السمع منها فهو الحسن ، وما

=

بأن تمج الكلمة ويتبرأ من سماعها كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة، فان اللفظ من قبيل الأصوات ، والأصوات منها ما تستلذ النفس سماعه ومنها ما تكره سماعه ، كلفظ الجرشى فى قول أبى الطيب :

(مبارك الاســـــم أغــر اللقب) كريم الجرشى شريف النسب [1]

أى كريم النفس ، وفيه[2] نظر .

ثم علامة كون الكلمة فصيحة ، أن يكون استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لهـا كثيرا ، أو أكثر من استعمالهم ما بمعناها[3] .

=

استكرهه فهو القبيح (راجع ص ٥٨ المثل السائر) . وهو رأى أشار اليـه ابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة ص ٦١ .

(١) من قصيدة يمدح بهـا المتنبى سيف الدولة .. الأغر من الخيل : الأبيض الجبهــة ، ثم استعير لكل واضـح . الجرشى : النفس . والمعنى ان اسم ســيف الدولة على وهــو اسم جميل ميمون ولقبـه لقب واضح مشهور . وهو كريم النفس عظيم الحسب . شريف النسب ... والشاهد الجرشى فانها لفظ غير فصيح ، لكراهته فى السمع كما يقول هذا القائل ، أو لغرابته على رأى من عــداه من البلاغيين والبيت فى ص ٦٢ من سر الفصــاحة .

(٢) اى فى هذا القول وهو أن تكون كراهة الكلمة فى السمع ســببا لعدم فصاحتها ... ووجه النظر كما قالوا هو ما يأتى :

١ ــ ان الكراهــة فى الســمع انمــا هى من جهــة الغرابة المفسرة بالوحشية مثل تكأكأتم ، وافرنقعوا ، ونحو ذلك .

٢ ــ وأن الكراهة فى السمع وعدمها يرجعان الى عــدم طيب النغـم أو الى طيبه لا الى نفس اللفظ . ويمكن رد هــذا الوجــه الثانى بالقطـع باستكراه الجرشى دون « النفس » مع قطع النظر عن النغم .

(٣) هذا منقول عن السكاكى (ص ١٧٦ من المفتاح) . وخلاصته : أن فصاحة الكلمة تعرف بأحــد أمرين :

١ ــ أن تكون هذه الكلمة كثــيرة الاستعمال عنــد العرب الموثوق بعربيتهم : اذا لم يكن لها مرادف .

=

● **وأما فصاحة الكلام :**

فهي خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد ، مع فصاحتها .

● **فالضعف (١) :**

كما في قولنا ضرب غلامه زيدا ، فان رجوع الضمير الى المفعول المتأخر لفظا ممتنع عند الجمهور ، لئلا يلزم رجوعه الى ما هو متأخر لفظا ورتبة .

=

٢ ـ أو أن تكون هذه الكلمة أكثر استعمالا عندهم من الكلمات الأخرى المرادفة لها المشتركة معها في المعنى وهذا فيما اذا كان للكلمة مرادف .

فعلامة فصاحة الكلمة التي ليس لها مرادف كثرة استعمالها ، والتي لها مرادف أن تكون استعمالا من مرادفها .

(١) هو أن يكون تأليف الكلام على خلاف القانون النحوي المشهور بين الجمهور كالاضمار قبل الذكر لفظا ومعنى وحكما ، نحو ضرب غلامه زيدا ، فلو تقدم المرجع على الضمير لفظا (بأن يتقدم عليه لفظا ورتبة مثل ضرب زيد غلامه أو لفظا فقط مثل ضرب زيدا غلامه) ، أو تقدم معنى بأن يتقدم المرجع على الضمير لفظا لكن هناك ما يدل على تقدمه معنى ، كالفعل المتقدم الدال على المرجع ضمنا نحو اعدلوا هو أقرب للتقوى ، وكسياق الكلام المستلزم له استلزاما قريبا نحو ولأبويه أي المورث أو بعيدا نحو توارت بالحجاب أي الشمس ، وكون المرجع فاعلا المقتضى لتقدمه على المفعول نحو خاف ربه عمر ، أو مبتدأ المقتضى لتقدمه على الخبر مثل في داره زيد ، أو مفعولا أول في باب أعطى مثل أعط درهمه زيدا ، أو تقدم حكما بأن يتأخر المرجع عن الضمير لفظا وليس هناك ما يقتضى ذكره قبله الا حكم الواضع بأن المرجع يجب تقدمه ، لكن خولف حكم الواضع لأغراض تأتى في بحث وضع المضمر موضع المظهر . فالمرجع المتأخر لغرض متقدم حكما مثل : ربه رجلا ، ونعم رجلا زيد ، وقل هو الله أحد . وفي باب التنازع مثل ضربني وضربته محمد وباب البدل والمبتدأ المفسر بالخبر . نعم لو تقدم المرجع في كل ذلك جاز ولا يكون هناك ضعف ولا يضر ذلك بفصاحة الكلام .. وقد اشار السكاكي الى ضعف التأليف في المفتاح ص ٩٤ .

وقيل يجوز[١] ، كقـول الشاعر[٢] :

جـزى ربـه عنـه عـدى بن حـاتم
جزاء الكلاب العاويات ، وقد فعـل[٣]

وأجيب عنه بأن الضمير لمصدر جزى ، أى (جزى) رب الجزاء[٤] كما فى قوله تعالى : اعدلوا هو أقرب للتقوى ، أى العدل .

---

(١) أى يجوز رجـوع الضمير الى المفعول المتأخر لفظا .

(٢) هو النابغة الذبيانى الشـاعر الجـاهلى المشـهور ، كمـا فى الخصـائص لابن جنى .

(٣) يدعو الشاعر على عدى بأن يجزيه شرا كجزاء الكلاب العاويات التى تضرب وترمى بالحجارة ، ثم يقول الشـاعر . بل قد حصل هذا الجزاء فعلا وأصبح حقيقة لا دعـاء . والشاهد فى البيت قوله : « جزى ربه عنى عدى بن حاتم » ، فقد رجع الضمير الى المفعول المتأخر فى اللفظ كما هو متأخـر فى الرتبـة .

ومثل هذا البيت قول سليط بن سعد :

جـزى بنـوه أبا الغيـلان عن كبر وحسـن فعـل كما يجزى سـنمار

ومثله :

الا ليت شـعرى هـل يلومن قومه زهيرا على ما جـرى من كل جانب

وفى معنى البيت قول النابغة :

جـزى الله عبسـا عبس آل بغيض جزاء الكلاب العاويات وقـد فعـل

ومن ضعف التأليف :

فلو أن مجدا أخلد الدهـر واحـدا من الناس أبقى مجده الدهر (مطعما)

(٤) فى هذا تكلف وحمل للاسلوب على مالا يفيده وان كان أخف من حمل البيت على ضعف التأليف .

● **والتنـــافر (١) :**

منه ما تكون الكلمات بسببه متناهية فى الثقل على لســان وعسر النطق بها متتابعة ، كما فى البيت الذى أنشده الجاحظ[٢] :

وقبر حــرب بمكان قفــر وليس قــرب قبر حــرب قبر[٣]

ومنه ما هو دون ذلك كما فى قول أبى تمام :

كــريم متى أمدحـــه أمدحه والورى معى
(واذا ما لمتــه لمتــه وحــدى[٤])

---

(١) هو أن تكون الكلمات ثقيلة على اللسان وان كان كل منها فصيحة.

(٢) البيت فى دلائل الاعجاز ص ٤٦ مع تعليق لعبد القاهر عليه .. وهو لا يعرف قائله .

(٣) حرب : اسم رجل . القفر : الخالى من المـاء والكلأ .. ويقول القزوينى الرحالة فى « عجائب المخلوقات : ان هاتفا من الجن صاح بحرب ابن أمية فمات فرثاه ذلك الجنى بهذا البيت .. قوله « قفر » بالرفـع نعت مقطوع . والبيت خير مراد منه التأسف والتحزن .

(٤) الواو فى « والورى » للحال ، وهو مبتدأ ، وخبره « معى » .. يقول أبو تمام فى ممدوحه : هو كريم فى خلقه ومعروفه ، اذا ما مدحته كان الورى كلهم معى يمدحون ويشيدون أو يسمعون ويؤيدون ، واذا ما أردت لومــه على تأخــير معروف أو على شــبه ذلك وقفت وحــدى لا يشاركنى فى ذلك أحــد ولا يؤيدنى فيه انسان .. والبيت فى ص ٤٦ من دلائل الاعجاز ، وذكر الصاحب اسماعيل بن عباد الكاتب أنه أنشــد القصيدة التى منها هذا البيت بحضرة الاستاذ ابن العميد الوزير ، فلما بلغ هذا البيت قال له الاستاذ : هل تعرف فيه شيئا من الهجنة ؟ قال : نعم مقابلة المدح باللوم وانما يقابل بالذم أو الهجاء ، فقال الاســتاذ : هذا التكرير فى أمدحه أمدحه مع الجمــع بين الحــاء والهاء وهمــا من حــروف الحلق خــارج عن حــد الاعتدال نافر كل النفــار ، فأشــاد الصاحب بذوقــه ونقــده .

فان في قوله « أمدحه (أمدحه) » ثقلا لما بين الحاء والهاء من التنافر[1] .

● **والتعقيد (٢) :**

أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد به وله[3] سببان : أحدهما ما يرجع الى اللفظ وهو أن يختل نظم[4] الكلام . ولا يدرى

---

(١) وهناك فرق آخر بين البيت والبيت الذى قبله ، وهو أن منشأ الثقل في الأول نفس اجتماع الكلمات وفي البيت الثاني اجتماع حروف منها . ومجموع الحروف التي في الكلمتين والتي حصل الثقل باجتماعها أربعة وهي : الحاءان والهاءان ، فما ذكر من مجموع الحروف التي حصل الثقل باجتماعها حاصل مع تكرير أمدحه ، ولو قال وفي الثاني تكرير حروف منها لكان أوضح وأحضر . أما نقل مجرد الجمع بين الحاء والهاء فلا يخل بالفصاحة لوقوعه في التنزيل كما في قوله « فسبحه » .

(٢) أى كون الكلام معقدا فهو مصدر المبنى للمفعول لا للفاعل ، والمراد بأنه مصدر المبنى الحاصل بالمصدر أى الهيئة المترتبة عليه . وتجد الكلام في التعقيد في (أسرار البلاغة ص ١١٨ ، وفي دلائل الاعجاز ص ٦٥ ، وفي المفتاح ص ١٧٦) .

(٣) أى عدم ظهور المعنى المراد منه للمتكلم ، أما الغرابة فهى كون اللفظ غير ظاهر الدلالة على المعنى الموضوع له ، وأما اللغز والمعنى : فقيل هما غير فصيحين مطلقا ولا يعدان من البديع لعدم ظهور الدلالة ، وقيل ان الدلالة فيهما أن كانت ظاهرة للفطن فهما فصيحان ويعدان من البديع والا فلا . واللغز والمعنى بمعنى وهو قول يدل ظاهره على خلاف المراد .

(٤) النظم هو تأليف الكلمات مترتبة المعانى متناسقة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل لا تواليها في النطاق وضم بعضها الى بعض كيفما اتفق ، بخلاف نظم الحروف فانه تواليها في النطق من غير اعتبار معنى يقتضيه (راجع دلائل الاعجاز ص ٤٠ و ٤٥) .

السامع كيف يتوصل الى معناه[١] ، كقول الفرزدق[٢] :

وما مثله فى النـــاس الا مملكا   أبو أمـــه حى أبـــوه يقـــاربه

الا مملك أبو أمه أبوه ، فانه مدح ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومى[٣] خال هشام بن عبد الملك بن مروان ، فقال وما مثله ـ يعنى ابراهيم الممدوح ـ فى الناس ، حى يقـــاربه ـ أى أحـــد يشـــبهه فى الفضائل ـ الا مملكا يعنى هشاما ، أبو أمه ـ أى أبو أم هشام ـ أبوه ـ أى أبو الممدوح ـ فالضمير فى أمه للمملك ، وفى أبوه للممدوح ، ففصـــل بين أبو أمه ـ وهو مبتدأ ـ وأبوه ـ وهو خبره ـ بحى ـ وهو أجنبى ـ ، وكذا فصل بين حى ويقاربه وهو نعت حى ـ بأبوه ـ وهو أجنبى ، وقدم المستثنى على المستثنى منه[٤] . فهو كما تراه فى غـــاية التعقيد .

---

(١) بأن لا يكون ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعانى ، بسبب تقديم أو تأخير أو حذف أو اضمار أو غير ذلك ، مما يوجب صعوبة فهم المراد ، وان كان ذلك فى الكلام جاريا على قواعد النحو .. فان سبب التعقيد يجوز أن يكون اجتماع أمور كل منها شائع الاستعمال فى كلام العرب ، ويجوز أن يكون التعقيد حاصلا ببعض منها لكنه مع اعتبار الجميع يكون أشد وأقوى، فذكر ضعف التأليف لا يغنى عن ذكر التعقيد اللفظى كما توهمه البعض .

(٢) هو الشـاعر الأموى المشهور قرين جـــرير والأخطـــل توفى عـــام ١١٠ هـ . والبيت فى ١٥ و ٥٦ أسرار البلاغة ، ٧٦ مفتـــاح ، ٦٥ دلائل الاعجاز ، ١٥٤ و ١٩٧ الصناعتين ، قال ابن عبد ربه فى العقد : معنـــاه وما مثل هذا الممدوح فى الناس الا الخليفة الذى هو خاله ، فقال أبو أمـــه حى أبوه يقاربه ، فبعد المعنى القريب ووعر الطريق السهل ، وليس المعنى بتوعر اللفظ وقبح البنية حتى ما يكاد ينفهم (٤/١٣ العقد) .

(٣) من الأمراء الأشراف السادة الفرسان توفى عام ١٢٥ هـ وهشـــام احـــد الخلفاء الأمويين المشهورين .

(٤) ما نافية ، « مثله » اسمها ، « فى الناس » خبرها . ممكا : مستثنى مقدم منصوب على الاستثناء . أبو أمه : مبتدأ ومضاف اليه ، وحى بدل من مثله ، ففيه أيضا فصل بين البدل والمبدل منه ، أبوه خبر

فالكلام الخالى من التعقيد اللفظى ما سلم نظمه من الخلل ، فلم يكن فيه ما يخالف الأصل من تقديم أو تأخير أو اضمار أو غير ذلك ، الا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة ، لفظية أو معنوية ، كما سيأتى تفصيل ذلك كله وأمثلته اللائقة به[1] .

والثانى ما يرجع الى المعنى ، وهو ألا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول الى المعنى الثانى ـ الذى هو لازمه والمراد به ـ ظاهرا[2] كقول العباس بن الأحنف :

=

المبتدأ ، يقاربه صفة لحى . ويصح أن يكون « مملكا » مستثنى من الضمير المستثنى فى الجار والمجرور الواقع خبر ما ، وابو أمه مبتدأ خبره ، وأبوه خبر ، والجملة صفة لمملكا ، وكذلك جملة يقاربه وعلى هذا الوجه فلا تعقيد فى البيت ، ولكن فى حمله عليه تكليف شديد .

(١) قال الخلخالى: ذكر ضعف التأليف يغنى عن ذكر التعقيداللفظى. وأجيب بأنه يجوز أن يحصل التعقيد باجتماع عدة أمور موجبة لصعوبة فهم المراد وان كان كل واحد منها جاريا على القانون النحوى مثل الا عمرا الناس ضارب زيد . وينفرد ضعف التأليف فى مثل جاءنى أحمد ، ويجتمع الضعف والتعقيد فى بيت الفرزدق ، فبينما عموم وخصوص من وجه ...
هذا ومن التعقيد اللفظى قول أبى تمام :
ثانيه فى كبد السماء ، ولم يكن   كاثنين ثان اذ هما فى الغار

وقول المتنبى :
انى يكون أبا البرايا آدم   وأبوك والثقلان أنت محمد
وتركيب البيت الصحيح : أنى يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت الثقلان ، وكذلك قول الفرزدق :
الى ملك ما أمه من (محارب)   أبوه ولا كانت (كليب) تصاهره
أى الى ملك أبوه ما أمه من محارب ولا كانت تصاهره كليب .

(٢)أى الى أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد لخلل واقع فى انتقال الذهن ـ أى بسبب بطء نفس السامع فى انتقالها ـ من المعنى الأول الذى هو المعنى الأصلى الحقيقى للكلام الى المعنى الثانى الملابس له وهو المعنى الكنائى أو المجازى . والحاصل أن من شروط فصاحة الكلام أن يسلم من التعقيد المعنوى بأن لا يكون ما فيه من كناية أو مجاز بعيدا عن
=

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا
وتسكب عيناى الدموع لتجمدا[1]

كنى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق من الحزن ، وأصاب ، لأن من شأن البكاء أن يكون كناية عنه ، كقولهم : أبكانى وأضحكنى أى ساءنى وسرنى ، وكما قال الحماسى[2] :

=

الفهم والوضوح : فان من شروط فصاحة الكناية والمجاز قرب فهم المعنى الثانى من أصله الحقيقى ، والا كانا غير فصيحين بحيث يفتقر فى فهمه الى وسائط مع خفاء القرينة . فالمدار فى صعوبة الفهم على خفاء القرينة كثرت الوسائط أو لا ؛ وخفاء القرائن أو عدم خفائها بحسب جريان الكلام على أسلوب البلغاء أو عدم جريانه . وسبب الخفاء ايراد اللوازم البعيدة المفتقرة الى الوسائط الكثيرة مع خفاء القرائن الدالة على المقصود بسبب عدم جريان الكلام على أسلوب البلغاء ، فلو كانت القرينة ظاهرة فلا خلل تعددت الوسائط أم لا . هذا وتجد الكلام على التعقيد المعنوى فى دلائل الاعجاز صحيفة ٢٠٧ .

(١) العباس شاعر عباسى ، غزل مجيد . والبيت فى ٢٠٨ دلائل الإعجاز ، وتعليق الخطيب على البيت مأخوذ من عبد القاهر فى دلائل الاعجاز . وتسكب فى البيت بالرفع وهو الصحيح ، ونصبه على العطف على « بعد » أو على « لتقربوا » وهم . ومعنى البيت : انى اليوم أطيب نفسا بالفراق والبعد ، وأوطنها على مقاساة الأحزان والأشواق ، واتجرع غصصها وأتحمل لأجلها حزنا يفيض الدموع من عينى ، لأتسبب بذلك الى وصل يدوم فان الصبر مفتاح الفرج ولكل بداية نهاية ومع كل عسر يسرا ، كما يشير اليه عبد القاهر فى دلائل الاعجاز ... وعلى هذا فالسين فى « سأطلب » لمجرد التأكيد على ما ذكره صاحب الكشاف فى قوله تعالى « سنكتب ما قالوا » .

(٢) هو حطان بن المعلى ، شاعر اسلامى مشهور . والبيت من السريع ، وهو فى الحماسة ، وتجده أيضا فى دلائل الاعجاز (ص ٢٠٨) ومثل البيت قول مسلم :

أبكانى الدهر مما كان أضحكنى والدهر يخلط احلاء بامرار

وقول الخنساء :

الا يا صخر ان أبكيت عينى لقد أضحكتنى زمنا طويلا

أبكانى الدهـــر ويا ربمـــا أضحكنى الدهـــر بمـــا يرضى

ثم طرد ذلك فى نقيضه ، فأراد أن يكنى عما يوجبه دوام التلاقى من السرور بالجمود ، لظنه أن الجمود خلو العين من البكاء مطلقا من غير اعتبار شىء آخـــر ، وأخطأ[1] :

لأن الجمود خـــلو العين من البكاء فى حال ارادة البكاء منهـــا ؛ فلا يكون كنـــاية عن المسرة ، وانما يكون كنـــاية عن البخل كما قال الشـــاعر[2] :

ألا ان عينا لم تجد يوم (واسط) عليك بجـــارى دمعهـــا لجمـــود

ولو كان الجمود يصلح أن يراد به عدم البكاء فى حال المسرة لجاز أن يدعى به للرجل ، فيقال : لا زالت عينك جامدة ، كما يقال : لا أبكى الله عينك . وذلك مما لا يشك فى بطلانه .

وعلى ذلك قول أهل اللغة : سنة « جماد » لا مطر فيها ، وناقـــة جماد : لا لبن لها ، فكما لا تجعل السنة والناقة جمادا الا على معنى أن السنة بخيلة بالقطر ، والناقة لا تسخو بالدر ، لا تجعل العين جمودا

---

(١) لعدم فهم ذلك اللازم بسرعة من جمود العين ففيه مخالفة لموارد استعمال البلغاء لأن تعارف البلغاء على خلافه ، فهو مخطىء فى نظر البلغاء وان صح أن يكون لكلامه وجـــه من التأويل بحمل كلامه على ما يصـــححه بأن نقـــول : استعمل جمود العين الذى هـــو يبسها فى حـــال خلوها من الدموع مطلقا مجازا مرسلا من باب استعمال المقيد فى المطلق ، ثم كنى بـــه عن دوام السرور لكونه لازما لذلك عادة ، وهـــذا وان كان معنى صحيحا الا أن فيه بعدا وتعقيدا .

(٢) هو أبو عطاء يرثى ابن هبيرة وقد قتل فى معركة يوم « واسط » والبيت فى ص ٢٠٨ من دلائل الاعجاز وهو من أبيات عزاها المرتضى لمعن ابن زائـــدة .

الا وهناك ما يقتضي ارادة البكاء منها ، وما يجعلها اذا بكت محسنة موصوفة بأنها قد جادت ، واذا لم تبك مسيئة موصوفة بأنها قد ضننت .

فالكلام الخالي عن التعقيد المعنوي ما كان الانتقال من معناه الأول الى معناه الثاني — الذى هو المراد به — ظاهرا ، حتى يخيل الى السامع أنه فهمه من حلق اللفظ ، كما سيأتى من الأمثلة المختارة للاستعارة والكناية

وقيل فصاحة الكلام هى خلوصه مما ذكر [١] ومن كثرة التكرار [٢] وتتابع الاضافات . كما فى قول أبى الطيب (المتنبى) :

(وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة)
سبوح لها منها عليها شواهد[٣]

وكما فى قول ابن بابك [٤] :

---

(١) أى من الضعف والتنافر والتعقيد .
(٢) أى للفظ الواحد اسما كان أو فعلا او حرفا .

(٣) سبوح : أى فرس حسن الجرى لا تتعب راكبها كأنها تجرى فى الماء « لها » صفة لسبوح ، و « منها » حال من شواهد ، و « عليها » متعلق بشواهد ، و « شواهد » فاعل الظرف — أعنى « لها » — ، يعنى ان لها من نفسها علامات دالة على نجابتها واصالتها . والغمرة : هى الشدة . قيل التكرار الشيء مرة بعد أخرى ولا يخفى انه لا تحصل كثرته بذكره ثالثا بل لا تحصل الكثرة الا بذكره ست مرات فالتكرار ذكر الشيء مرتين وتعدده بالتربيع وكثرته بالتسديس ، واجيب بأن المراد بالكثرة ما يقابل الوحدة ولا يخفى حصولها بذكره ثالثا . والشاهد فى البيت كثرة التكرار فيه .

(٤) من شعراء العصر العباسى . وله ترجمة فى اليتيمة . مدح عضد الدولة والصاحب ، وتوفى عام ٤١٠ هـ .

حمامة جرعا حومة الجنـــدل اســجعى
(فأنت بمرأى من سعاد ومســـمع)[1]

وفيه نظـــر[2] ، لأن ذلك[3] أن أفضى باللفظ الى الثقـــل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه بما تقدم[4] ، والا فلا يخل بالفصاحة ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم • يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم »[5] •

---

(١) الشاهد فى البيت كثرة الاضافات المتتابعة ، ففيه اضافة حمامة الى جرعى وجرعى الى حومة ، وحومة الى الجندل .

والجرعى : تأنيث الأجرع قصرها للضرورة ، وهى أرض ذات رمل لا تنبت شيئا . والحومة : معظم الشيء . الجندل : أرض ذات حجارة . فى هذا المكان غنى واصدحى فأنت بحيث تراك ســعاد المحبوبة وتســـمع السجع : هدير الحمام ونحوه . والمعنى أيتها الحمامة التى تعيش أو تحلق صوتك ، يقال : فلان بمرأى منى ومسـمع ، أى بحيث أراه وأسمع قوله كما فى الصحـــاح ، ومن الخطأ أن يقال فأنت بموضـــع ترين منه سعاد وتســـمعين كلامهـــا .

ومثل البيت فى تتابع الاضافات قول أبى العتاهية :

ســـبحان ذى الملكــوت أيـــة ليـــلة   مخضت بوجه صباح يوم الموقف

وقول مســـلم :

ثاروا الى صفق الشمول فأشـــعلوا   نـــيران حـــرب كؤوســـها اشـــعالا

(٢) أى فى القول السابق الذى يجعـــل خلو الكلام من كثرة التكرار وتتابع الاضافات شرطا لفصاحته .

(٣) أى كثرة التكرار وتتابع الاضافات .

(٤) أى بما سبق ذكره من التنافر .

(٥) يسمى هذا اللون فى البديع « الاطراد » . ووردت أيضـــا مثل التكرار وتتابع الاضافات غـــير معيبة ، قال تعالى : ونفس وما ســـواها فألهمها فجورها وتقواها . وقال : مثل دأب قوم نوح . وقال : ذكر رحمة ربك عبـــده زكـــريا .

قال الشيخ عبد القاهر[١] : قال الصاحب[٢] : اياك واضافات المتداخلة ، فانها لا تحسن ، وذكر أنها تستعمل فى الهجاء ، كقول القائل :

يا على بن حمزة بن عماره أنت والله ثلجة فى خياره

ثم قال الشيخ[٣] : ولا شك فى ثقل ذلك فى الأكثر ، لكنه اذا سلم من الاستكراه ملح ولطف . ومما حسن فيه قول ابن المعتز[٤] أيضا :
وظلت تدير الراح أيدى جآذر عتاق دنانير الوجوه ، ملامح[٥]

ومما جاء فيه حسنا جميلا قول الخالدى[٦] يصف غلاما له :

ويعرف الشعر مثل معرفتى وهو على أن يزيد مجتهد
وصيرفى القريض وزان دينار المعانى الدقاق ، منتقد[٧]

---

(١) راجع هذا القول فى ص ٨٢ من دلائل الاعجاز .
(٢) هو الصاحب بن عباد الوزير م ٣٨٥ هـ ، والبيت الآتى يتهكم فيه بعلى بن حمزة البصرى اللغوى المتوفى عام ٣٩٠ هـ .
(٣) أى عبد القاهر أيضا .

(٤) هو الخليفة العباسى الشاعر الأديب العالم الناقد ، توفى عام ٢٩٦ هـ .

(٥) الراح : الخمر . جآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية. عتاق جمع عتيق اى كريم .

(٦) سعيد بن هشام ، من شعراء اليتيمة ، رقيق الشعر مطبوع توفى عام ٣٧٠ هـ .

(٧) الصيرفى : المحتال فى الامور . المنتقد : الخبير بالدراهم الجيدة والزيوف ثم أطلق فصار بمعنى الخبير بالشىء مطلقا . والمعنى هو مثلى فى معرفة الشعر والبصر به ونظمه بل هو لديه القدرة على ان يكون أبرع مما هو فيه وهو دقيق البصر بالشعر ناقد له يزن المعانى الدقيقة بموازين النقد التى لا تسرف فى الحكم والتقدير .

* * * * * * * * * * * *

=

والشاهد فى البيت كثرة الاضافات مع حسنها ، وهو الشاهد فى البيت السابق .

● **شواهد للاخلال بالفصاحة :**

قال تأبط شرا :

يظل بموماة ويمسى بغيرها ... جحيشا ويعرورى ظهور المسالك

وقال حسان يرثى :

ولو أن مجدا أخلد الدهر واحدا ... من الناس أبقى مجده الدهر مطعما

وقال المتنبى :

كيف ترثى التى ترى كل جفن ... رآءها غير جفنها غير راق

وقال الفرزدق :

واذا الرجال رأوا يزيد رايتهم ... خضع الرقاب نواكس الأبصار

وقال أبو تمام :

قد قلت لما اطلخم الأمر وانبعث ... عشواء تالية غبسا دهاريسا
لى حرمة بك أضحى حق نازلها ... وقفاعليك، فدتكآلنفس ،محبوسا

وللمتنبى :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم ... شيم على الحسب الأغر دلائل

وقال :

اقل، انل، اقطع، احمل سل، اعد ... زد ،هش،بش،تفضل،سرادن، صل

وقال الشاعر :

كأن قفرا رسومها قلما

وللمتنبى :

ومن جاهل بى وهو يجهل جهله ... ويجهل علمى انه بى جاهل
فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا ... قلاقل عيس كلهن قلاقل =

● وأما فصاحة المتكلم :

فهى ملكة(١) يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح . فالملكة قسم من مقولة الكيف التى هى هيئة قارة لا تقتضى قسمة ولا نسبة ، وهو مختص بذوات الأنفس راسخ فى موضوعه .

وقيل : ملكة . ولم يقل صفة ، ليشعر بأن الفصاحة من الهيئات الراسخة ، حتى لا يكون المعبر عن مقصوده بلفظ فصيح فصيحا الا اذا كانت الصفة التى اقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح راسخة فيه .

وقيل يقتدر بها ، ولم يقل يعبر بها ، ليشمل حالتى النطق وعدمه : وقيل : بلفظ فصيح ، ليعم المفرد والمركب(٢) .

***

وقال الحريرى :

فازور من كان له زائر وعاف عافى العرف عرفانه

ولبشر بن عوانة أو للبديع فى وصف الأسد :

فخر مضرجا بدم كأنى هدمت به بناء مشمخرا

المتنبى :

فلا يبرم الأمر الذى هو حالل ولا يحلل الامر الذى هو مبرم

المتنبى :

أنى يكون أبا البرايا آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

امرؤ القيس فى وصف الفرس :

وأركب فى الروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر

أبو تمام :

جذبت نداء غدوة السبت جذبة فخر صريعا بين أيدى القصائد

(١) الملكة : كيفية راسخة فى النفس .

(٢) أما المركب فظاهر ، وأما المفرد فكما تقول عند التعداد : دار ، غلام ، جارية ، ثوب ، الى غير ذلك .

البــــــلاغة

● **وأما بلاغــة الكلام :**

فهى مطابقته لمقتضى الحال[1] مع فصاحته .

---

(١) أى لجميع ما يقتضيه الحال على قدر الطاقة ، فالمراد المطابقة الكاملة وقوله لمقتضى الحال أى لمناسب الحال لا موجبه ، والمراد بمناسب الحال الخصوصيات التى يبحث عنها فى علم المعانى دون كيفيات دلالة اللفظ التى يتكفل بها علم البيان اذ قـد تتحقق البـلاغة فى الكلام بدون رعايتها بأن يؤدى الكلام المطـابق بدلالات وضعية . نعـم اذا أدى المعنى بدلالات عقلية مختلفة فى الوضوح والخفاء فلابد فى بلاغة من رعاية كيفيـة الدلالة أيضـا .

والحال هو الداعى للمتكلم الى ايراد الكلام على وجـه مخصوص ، أى الى أن يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به أصـل المعنى خصوصية ما ، وهى مقتضى الحال . مثلا انكار المخاطب للحكم حـال يقتضى تأكيـده ، والتأكيد مقتضى الحال . ومعنى مطابقته له أن الحال أن اقتضى التأكيد كان الكلام مؤكدا وان اقتضى الاطلاق كان الكلام عاريا عن التأكيد ، وهكذا أن اقتضى حذف المسـند اليه حذفه وان اقتضى ذكره ذكره ، الى غير ذلك من التفاصيل المشتمل عليها علم المعانى . فالانكار حال ، والتأكيـد مقتضى ، وقولك « ان زيدا فى الدار » مؤكدا بان كلام مطابق لمقتضى الحال ، يعنى أنه مشتمل عليه ، اذ هذا المثال مشتمل على التأكيد . وليس المراد بكونه مطابقا له أنه جزئى من جزئياته اذ لا يصـدق عليه أى لا يحمل عليـه ، ضرورة أن مقتضى الحال هو التأكيد وهو لا يحمل على قولك ان زيدا فى الدار اذ لا يقال « ان زيدا فى الدار » تأكيد ، فالمراد بالمطابقة هنا الاشتمال لا مصطلح المناطقة الذى هو الصدق .

والتحقيق أن مقتضى الحال هو الكلام الكلى المشتمل على الخصوصية، ومطابقة الكلام لذلك المقتضى كون الكلام الجزئى الصادر من المتكلم الملقى للمخاطب المشـتمل على الخصوصية من أفراد ذلك الكلى الذى يقتضيه الحال ، فان ذلك المقتضى صـادق عليه ، فقولنـا « ان زيدا فى الدار » مؤكدا جزئى من جزئيات ذلك الكلام الكلى الذى يقتضيه الحال ، الذى هو
=

ومقتضى الحـال مختلف . فان مقامات الكلام متفاوتة[1] فمقام التنكير يباين مقام التعريف[2] ومقـام الاطـلاق يباين مقـام التقييد[3] ومقام التقديم يباين مقام التأخير[4] ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقـام الوصـل ،

= الانكار المقتضى لكلام مؤكد بمطلق تأكيد لا بتأكيد مخصوص ، فقولنا « ان زيدا فى الدار » مطابق له بمعنى أنه صـادق ومحمـول على هـذا الجزئى المؤكد الذى هـو مقتضى الحـال صادق ومحمول على هـذا الجـزئى لكونه جزئيا من جزئياته . فالبلاغة على هذا التحقيق مطابقة هذا الجزئى لذلك الكلى بمعنى كونه جزئيا من جزئياته بحيث يصح حمل مقتضى الحال عليـه ، فالكلام الجزئى مطـابق (بكسر البـاء) والكلام الكلى مطـابق (بفتحها) . هذا هو تحقيق السعد فى مختصره ، وان كان قد حقق فى كبيرة ان التحقيق هو مذهب الجمهور الأول : من أن المقتضى هى الخصـوصية والمطابقة هى الاشتمال . هذا والحـال على المذهبين واحد ، وهو الأمـر الداعى للمتكلم الى أن يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به أصل المراد خصوصية ما ، سواء كان ذلك الأمر داعيا له فى نفس الأمر أو غير داع فى نفس الأمـر بل بتنزيل ، فالحال هو الأمر الداعى مطلقا . أما ظاهر الحال فهو الأمر الداعى فى نفس الأمر لاعتبار المتكلم خصوصية ما ، فهو أخص من الحال .

(١) لأن الاعتبار اللائق بهذا المقام يغاير الاعتبار اللائق بذلك ، وهذا عين تفاوت مقتضـيات الأحوال ، لأن التغاير بين الحال والمقام انما هـو بحسب الاعتبار ، وهو أنه يتوهم فى الحال كونه زمانا لورود الكلام فيه ، وفى المقـام كونه محـلا له .

(٢) فالمقام الذى يناسبه تنكير المسـند اليه أو المسـند يباين المقام الذى يناسبه التعريف .

(٣) أى مقام اطلاق الحكم أو التطبيق أو المسـند اليه أو المسـند أو متعلقه يباين مقـام تقييـده بمؤكـد أو اداة أو تابع أو شرط أو مفعول أو ما يشـبه ذلك .

(٤) أى مقام تقديم المسـند اليه أو متعلقاته يباين مقام تأخيره .

ومقام الايجاز يباين مقام الاطناب والمساواة ، وكذا خطاب الذكى يباين خطاب الغبى[1] .

وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام[2] .. الى غير ذلك كما سيأتى تفصيل الجميع .

وارتفاع[3] شأن الكلام فى الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب[4] ، وانحطاطه بعدم مطابقته له .

فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب[5] .

---

(١) فان مقام الأول يباين مقام الثانى ، لأن الذكى يناسبه من الاعتبارات اللطيفة والمعانى الدقيقة الخفية ما لا يناسب الغبى .

(٢) راجع ص ١٣ من المفتاح . وقوله ولكل كلمة أى كالفعل ؛ مع صاحبتها أى كأداة الشرط مثل آن الشرطية ، اذ لها معها مقام ليس لذلك الكلمة مع ما يشارك تلك الصاحبة فى أصل المعنى كاذا الشرطية ، فالفعل الذى قصد اقترانه بأداة الشرط له مع أن مقام ليس له مع اذا وكذلك من أدوات الشرط مع الماضى مقام ليس له مع المضارع ، على أن المراد بالكلمة أداة الشرط وبصاحبتها الماضى وبمشارك الصاحبة الفعل المضارع . وهكذا ما يشبه ذلك فللفعل مع هل الاستفهامية مقام ليس له مع الهمزة ؛ والمسند اليه مع المسند الفعلى له مقام معه ليس له مع المسند الاسمى الخ .

(٣) راجع ص ٧٣ من المفتاح تجد ما هنا مأخوذا منه بالنص والمقصود من هذا بيان تعدد مراتب البلاغة ، والحسن المراد منه الحسن الذاتى الداخل فى البلاغة لا العرضى الخارج لحصوله بالمحسنات البديعية ، والمراد بالقبول عند السامع . والمراد بالكلام الكلام الفصيح .

(٤) أى باشتماله على الأمر المعتبر المناسب لحال المخاطب ، فكلما كان الاشتمال أتم كان الكلام أرفع وأعلى . فالمراد بالاعتبار المناسب الأمر الذى اعتبره المتكلم مناسبا بحسب السليقة للعرب الخاص أو بحسب تتبع خواص تراكيب البلغاء لغيرهم .

(٥) يعنى اذا علم أن ليس ارتفاع شان الكلام الفصيح فى الحسن الذاتى الا بمطابقته للاعتبار المناسب على ما يفيده اضافة المصدر ـ لأنه =

وهـذا ـ أعنى تطبيق الكلام على مقتضى الحـال ـ هو الذى يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظـم ، حيث يقـول : النظـم تآخى معانى النحو فيما بين الكلم ، على حسب الأغراض التى يصاغ لهـا الكلام .

فالبلاغة صفة راجعة الى اللفظ باعتبـار افـادته المعنى[1] عنـد التركيب[2] .

وكثيرا ما يسـمى ذلك[3] فصاحة أيضـا[4] . وهو مراد الشيخ

=

مفرد مضاف لمعرفة فيعم والعموم فى هذا المقام يستلزم الحصر .. فالمعنى كل ارتفاع فهو بالمطابقة ، فالباء فى قولنا : بمطابقته للسـببية القريبة حتى يفيد العموم ـ ومعلوم أنه آنما يرتفع بالبلاغة التى هى عبارة عن مطـابقة الكلام آلفصيح لمقتضى الحال ، فقـد علم أن المراد بالاعتبار المناسـب ومقتضى الحال واحد ، فهما متخذان أو متساويان ، فمقتضى الحـال هو مناسب الحـال لا موجبـه .

(١) صرح عبد القاهر بأن وصف اللفظ بالفصاحة انما هو من حيث انه دال على المعنى (٥٠ دلائل الاعجاز) . والحاصل أنه اذا كانت البلاغة هى المطابقة والمطابقة صفة المطابق فتكون المطابقة راجعة للكلام من رجـوع الصفة للموصوف ، لكن رجوعها له باعتبـار أفادته آلمعنى الحاصل بسبب التركيب ، وهو المعنى الثانى الذى يعتبره البلغاء ، وهو الخصوصيات التى يقتضيها الحال الزائد على أصل المراد . فالبلاغة اذا وصـف بهـا المعنى كان المراد المعنى آلثانى باعتبار أن المقصـود من اللفظ افادته . واذا وصف بها اللفظ فهو باعتبار افادته ذلك المعنى المقصـود ونفيه عن اللفظ مراد به اللفظ المجرد عن آلمعنى والخصوصيات ، ونفيها عن المعنى مراد به المعنى الأول للفظ الذى هو مجرد ثبوت المحكوم للمحكوم عليه .

(٢) لأن البلاغة عبارة عن مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحـال ، فظاهر أن اعتبار المطابقة وعدمها آنما تكون باعتبار المعانى والاغراض التى يصاغ لها الكلام لا باعتبار الألفاظ المفـردة والكلم المجردة .

(٣) أى الوصـف المذكـور .

(٤) كما يسمى بلاغة ، فهما مترادفان ، عند عبد القاهر حقيقة ، وعلى شيء من آلتجـوز عند الخطيب .

ابن خلدون[١] ، ويقول شيلر : فى الفن الشكل هو كل شيء والمعنى ليس شيئا مذكورا ٠٠ وفى البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع فى اختيار شواهد أساليب البلاغة منها ، مما لا داعى الى ذكره هنا خوفا من كثرة الاسهاب ، والجاحظ يشيد بالايجاز ويدعو اليه كثيرا فى بيانه[٢] ، وفى الحديث عن رسول الله : اذا قلت فأوجز واذا بلغت حاجتك فلا تتكلف[٣] ، ويحث على ترك الوحشى والسوقى وعلى الافهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتهذيب فى صناعة الكلام ، وعلى أى حال فالبيان والتبيين أثر أدبى وعلمى نفيس ، والجاحظ يده على البيان العربى لا تجحد ، ويعده ابن خلدون من السابقين فى التأليف فيه[٤] •

وبعد فالجاحظ أظهر من خص البيان بالتأليف وهو أعظم السابقين الى جمع وتدوين آراء رجال البيان والبلاغة ، وله مع ذلك آراء كثيرة وصل اليها بفكره وذوقه وملكته البيانية الدقيقة الاحساس بالأساليب البلاغية ودقائقها ، ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته فى كتاب البيان موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال[٥] ، فهى على كل حال ذات أثر كبير فى نشأة البيان •

(جـ) وقد كتب بعد الجاحظ كثير من العلماء فى مسائل تتصل بالبلاغة والبيان : كالمبرد فى كامله ، وابراهيم بن المدبر فى الرسالة العذراء ، وثعلب فى قواعد الشعر ، وابن عبد ربه فى العقد ، وسوى هؤلاء مما يطول الحديث لو فصلنا القول فيه •

* * *

(١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون •

(٢) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ٢/١٩٨ البيان •

(٣) ١/٥ الكامل للمبرد •

(٤) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون •

(٥) ٦ الصناعتين •

هذا لفظه ، وهو صريح فى أن الكلام من حيث هو كلام لا يوصف بالفضيلة باعتبار شرف معناه ، ولا شك أن الفصاحة من صفاته الفاضلة ، فلا تكون راجعة الى المعنى ، وقد صرح فيما سبق بأنها راجعة الى المعنى دون اللفظ .

فالجمع بينهما بما قدمنا بحمل كلامه حيث نفى أنها من صفات اللفظ على نفى أنها من صفات المفردات[1] من غير اعتبار التركيب ، وحيث أثبت أنها من صفاته على أنها من صفاته باعتبار افادته المعنى عند التركيب .

● وللبلاغة طرفان :

أعلى ، اليه تنتهى ، وهو حد الاعجاز[2] ، وما يقرب منه[3] .

---

(١) أى المفردة عن اعتبار افادة المعانى ـ وهى الخصوصيات ـ وليس المراد التى هى غير مركبة .

(٢) الاعجاز أن يرتقى الكلام فى بلاغته الى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته .

(٣) عطف على قوله (وهو) ، والضمير فى منه عائد الى أعلى ، يعنى أن الأعلى مع ما يقرب منه كلاهما حد الاعجاز ، وهذا هو الموافق لما فى المفتاح فالبلاغة أمر كلى لها ثلاث مراتب : مرتبة عليا ولها فردان ، وسفلى وهى فرد واحد ، ووسطى ولها أفراد . ويترتب على هذا أن بعض القرآن ابلغ من بعض وان كان الجميع معجزا .
ويجوز أن يكون « وما يقرب منه » معطوفا على « حد الاعجاز » والضمير فى منه عائد اليه ، يعنى أن الطرف الأعلى هو حد الاعجاز . وما يقرب من حد الاعجاز . فهذا عكس الأول ، اذ الأول يفيد أن الطرف الأعلى نوع تحته فردان : حد الاعجاز وما يقرب منه . والمراد بحد الاعجاز البلاغة فى أقصر سورة ، وما يقرب منه البلاغة فى مقدار آية أو آيتين . وفى التقدير الثانى نظر لأن القريب من حد الأعجاز لا يكون من الطرف الاعلى الذى هو حد الاعجاز .

وأسفل ، منه تبتدىء وهو ما[1] اذا غير الكلام عنه الى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات[2] وان كان صحيح الاعراب ... وبين الطرفين مراتب كثيرة متفاوته[3] :

واذ قد عرفت معنى البلاغة فى الكلام وأقسامها ومراتبها ، فاعلم

---

(١) أى هو طرف للبلاغة اذا غير الكلام عنه الى مرتبة هى أدنى منه وأنزل .

(٢) التى تصدر عن محالها بحسب ما يتفق من غير اعتبار اللطائف والخواص الزائدة على أصل المراد .

(٣) أى بعضها أعلى من بعض بحسب تفاوت المقامات ورعاية الاعتبارات والبعد من أسباب الاخلال بالفصاحة بناء على أن البلاغة هى المطابقة لمقتضى الحال فى الجملة ، لكن الحق كما فى عبد الحكيم أنها مطابقة الكلام لجميع ما يقتضيه الحال لكن بقدر الطاقة .

هذا وبلاغة الكلام تتفاوت باختلاف الخصوصيات كما أو كيفا والمقام واحد ، وباختلاف الخصوصيات تبعا لاختلاف المقامات ، وبترك خصوصية مراعاة لحال المخاطب .

وللبلاغة طرف أسفل وطرف أعلى وما بينهما : أما الأسفل فهو الكلام الفصيح الذى طابق أدنى مطابقة وليس تحته الا ما يلتحق بأصوات الحيوانات . وأما الأعلى فهو حد الاعجاز الالهى وما يقرب منه (وهو أبلغ كلام البشر) .. وبينهما مراتب لا تحصى .

ولنا أن نتساءل . هل فى طاقة البلغاء ـ بالطبع أو بالاكتساب ـ الوصول الى حد الاعجاز ، ولو بأن يأتوا بمثال أقصر سورة من القرآن ؟ وللجواب على ذلك .

اقول : لا شك أن علوم البلاغة ترسم اصول البيان العربى والسليقة العربية ومناهج الأداء والاسلوب ، وبالوقوف على ذلك يمكن مع سلامة الذوق محاكاة أهل هذه السليقة فى بلاغتهم ، فلنتكلم عن علوم البلاغة ـ لأنها قواعد السليقة العربية ، وهل توصل الى حد الاعجاز ، وهل هى صالحة كأداة للوصول الى مرتبة الاعجاز ؟ ولا شك ان علوم البلاغة لا تؤدى الى الوصول لحد البلاغة لأنها لا تعرفنا المقامات بل الخصوصيات

أنه يتبعها وجـوه كثيرة[1] غير راجعـة الى مطابقة مقتضى الحال ولا الى الفصاحة ، تورث الكلام حسنا وقبولا .

=
وحدها ، ولو فرضنا جدلا أنها تعرفنا مع الخصوصيات المقامات أيضا ، فلا تسلم الاحاطة بها لو فرضنا الاحاطة بها فانها لا تعطيك قدرة على انشاء كلام بليغ بدليل ان كثيراً من علماء البلاغة لم يستطيعوا الاتيان بكلام بليغ ، ولو فرضـنا أنهـا تعطى الملكة فلا شـك فى أن الملكة البشرية لا تقدر على مراعـاة الخصائص كلها فى الكلام البليغ .

هذا ويرى علماء البلاغة أن القرآن يتفاوت فى بلاغته لأنه :

أ ـ قد يقتضى المقام عشر خصوصيات فيأتى الله عز وجـل بخمس منهـا حسب قدرة البشر مراعاة للمقـام .

ب ـ وقد تختلف المقامات فيكون مقام مقتضـيا لعشر خصوصيات وآخـر مقتضيا لخمس ولا شـك أن الكلام الذى روعيت فيـه العشرة ابلغ من الآخـر .

وأرى أن القرآن لا تتفاوت بلاغته وان أسـلوبه وسـوره وآياته فى درجة واحدة من البلاغة . ويمكن الرد على رأى علماء البلاغة بما يأتى :

أ ـ أن مراعاة مقام المخاطب والاتيان بكلام يوافق حاله هو البلاغة الكاملة التى ليس فيهـا تفاوت .

ب ـ لا نسلم أن الكلام الأول أبلغ من الثانى بل هما فى درجة واحدة من البلاغة ، لأن العبرة ليست بالكم بل بالكيف ، ولـو سلمنا لهم رأيهم لكانت سـورة البقـرة أبلغ من « قل هـو الله أحـد » أو لكانت أبلغ من نصفها ، أو لكان القرآن أبلغ من سورة منه .

(١) وهى المحسنات البديعية ، وتحسينها عرضى خارج عن حـد البلاغة ، وانما تعد محسـنة بعد رعاية المطابقة والفصاحة . وجعلها تابعـة لبلاغة الكلام دون المتكلم لأنهـا ليست مما تجعل المتكلم متصفا بصفة .

والمحسنات البديعية ان أتى بهـا فى الأسلوب من حيث أنها محسـنة بحث عنها فى علم البديع وكان تحسينها عرضيا ، أما اذا اعتبرت من حيث المطابقة فتحسينها ذاتى يبحث عنه فى علم المعانى .

هـذا والبلاغة هى المطـابقة والفصاحة واعتبـار الخصوصيات ،
=

وأما بلاغة المتكلم :

فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ .

وقد علم بما ذكرنا[1] أمران :

أحدهما أن كل بليغ ــ كلاما كان أو متكلما فصيح[2] ، وليس كله فصيح بليغا[3] .

الثاني أن البلاغة في الكلام : مرجعها الى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد[4] ، والى تمييز الكلام الفصيح من غيره[5] .

فالمطابقة والفصاحة أعم من البلاغة من حيث التحقق ، لأنهما يوجدان بدون البلاغة فيما اذا لم تراع الخصوصية ، وحينئذ فلا يعلم من كون تلك الوجوه تابعة للبلاغة كونها غيرهما لأنهما تابعان لها أيضا باعتبار أنهما من جملتها ، فاحتاج الى افادة أنها غيرهما ، فقال الخطيب في التلخيص : ويتبعها وجوه أخر ، فقوله « أخر » يفيد أن تلك الوجوه ليست لازمة للبلاغة لكونها سوى الأمرين اللذين تحصل بهما البلاغة وتلك الوجوه في الكلام انما تكون بعد البلاغة . ويقول السكاكي : البلاغة بمرجعها : علم المعاني وعلم البيان ، والفصاحة بنوعيها : اللفظية والمعنوية ، مما يكسو الكلام حلة التزين ، وههنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار اليها لقصد تحسين الكلام وهي قسمان : قسم يرجع الى المعنى وقسم يرجع الى اللفظ ص ١٧٦ مفتاح .

(١) أي من تعريف البلاغة والفصاحة .

(٢) لأن الفصاحة مأخوذة في تعريف البلاغة مطلقا ، أي بلاغة كلام او متكلم ، لكن أخذها في بلاغة الكلام صراحة وفي بلاغة المتكلم بواسطة .

(٣) لجواز أن يكون كلام فصيح غير مطابق لمقتضى الحال . وكذا يجوز ان يكون لأحد ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح من غير مطابقة لمقتضى الحال .

(٤) والا ربما أدى المعنى المراد بلفظ فصيح غير مطابق لمقتضى الحال فلا يكون بليغا .

(٥) الأولى أن يقال : والى الاحتراز عن أسباب الاخلال بالفصاحة . وذلك لئلا يؤدي الكلام المطابق لمقتضى الحال بلفظ غير فصيح ، فلا يكون أيضا بليغا لوجوب وجود الفصاحة في البلاغة . ويدخل في تمييز الكلام الفصيح من غيره تمييز الكلمات الفصيحة من غيرها لتوقفه عليها .

والثانى ـ أعنى التمييز[1] ـ منه ما يتبين فى علم متن[2] اللغة ، أو التصريف[3] ، أو النحو[4] ، أو يدرك بالحس[5] ، وهو[6] ما عدا التعقيد المعنوى[7] .

وما يحترز به عن الأول ـ أعنى الخطأ[8] ـ هو علم المعانى .
وما يحترز به عن الثانى ـ أعنى التعقيد المعنوى ـ هو علم البيان[9] .

وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته ، هو علم البديع .

---

(١) أى تمييز الفصيح من غيره .

(٢) وذلك كالغرابة ، يعنى يعرف بعلم متن اللغة تمييز السالم من الغرابة عن غيره بمعنى أن من تتبع الكتب المتداولة واحاط بمعانى المفردات المأنوسة علم أن ما عداها مما يفتقر الى تنفير أو تخريج فهو غير سالم من الغرابة .

(٣) وذلك كمخالفة القياس .

(٤) كضعف التأليف والتعقيد اللفظى .

(٥) اى بالذوق وذلك كالتنافر فى مستشزر مثلا أو فى « وقبر حرب : البيت » .

(٦) وهو أى ما يبين فى العلوم المذكورة أو ما يدرك بالحس .

(٧) اذ لا يعرف بتلك العلوم تمييز السالم من التعقيد المعنوى من غيره .

(٨) أى فى تأدية المعنى المراد .

(٩) يسمون هذين العلمين علم البلاغة لمكان مزيد اختصاص لهما بالبلاغة وان كانت البلاغة تتوقف على غيرهما من العلوم كاللغة والنحو والصرف .

وكثير من الناس يسمى الجميع علم البيان[1] .

وبعضهم يسمى الأول علم المعانى ، والثانى والثالث علم البيان ، والثلاثة علم البديع .

* * *

(١) والبيان فى غير الاصطلاح هو المنطق الفصيح المعبر عما فى الضمير .

ملاحظة :

والمعنى الأول هو أصل المراد ، وهو ثبوت المحكوم به للمحكوم عليه ، والمعنى الثانى هو الخصوصيات . كما يرى ابن قاسم وابن يعقوب والشيخ يسن وسواهم ، وقيل المعنى الأول هو ما يفهم من اللفظ بحسب التراكيب وهو أصل المعنى مع الخصوصيات من تعريف وتنكير الخ ، والمعنى الثانى هو الأعراض التى يقصدها المتكلم ويصوغ الكلام لأجل افادتها وهى أحوال المخاطب التى يورد المتكلم الخصوصيات من أجلها من أشارة لمعهود وتعظيم وتحقير وانكار وشك الخ ، وهذا بالنسبة لعلم المعانى ، وأما بالنسبة لعلم البيان ، فالمعانى الأول هى المدلولات المطابقية مع رعاية مقتضى الحال ، والمعانى الثوانى هى المعانى المجازية أو الكنائية . وهذا هو المأخوذ من الدلائل كما فى المطول ، وكلام السعد فى المختصر يصح حمله على الوجهين . فأصل المراد أذا — الذى هو المعنى الأول — افادة ثبوت المسند للمسند اليه بأى طريق كان ، والخصوصية هى المزايا البلاغية التى يقصدها البليغ كما يرى السعد وهى المعنى الثانى . . لكن عبد الحكيم يرى أن أصل المراد هو أصل المعنى مع الخصوصيات ، والمعنى الثانى هو الأغراض ، راجع التجريد عند شرح قوله « ويؤتى باسم الاشارة لافادة القرب أو البعد أو المتوسط » مثلا . ومما فى التجريد نستنبط : أن مباحث علم البلاغة عند السعد تشمل المعانى الوضعية للألفاظ والتراكيب ، وهى عند السيد خاصة بمستتبعات التراكيب ، وعند عبد الحكيم أن مباحثها شاملة للمعانى الوضعية ولمستتبعات التراكيب .

هذا والنكتة البلاغية لا يشترط فيها الاختصاص بتلك الطريق بل يكفى كونها مناسبة للمقتضى موجبة كانت او مرجحة أو لم تكن كذلك ، والتراجيح من قصد المتكلم ، وهذه هى طريقة المفتاح ، ومذهب الشارح أن النكتة لابد أن تكون موجبة أو مرجحة .

الفـن الأول

علم المعـانى(١)

● **تعريف الخطيب :**

وهو علم[٢] يعـرف به أحـوال اللفظ التى بهـا يطـابق مقتضى الحـال[٣] .

---

(١) قدم المعـانى على البيان لكونه منه بمنزلة المفـرد من المركب ، فاتصـال المعانى بالبيان كاتصـال المفرد بالمركب ، ونسبته اليه من جهة التوقف ، وان كان توقف المركب على المفرد من جهة كونه جزءا له ، بخلاف توقف البيان على المعانى فعلم المعانى كالمفرد والبيان بمنزلة المركب ، وذلك لأن رعاية المطابقة لمقتضى الحال آلتى هى ثمرة علم المعانى معتبرة فى علم البيان (من حيث انها شرط فى الاعتداد بثمرته التى هى الايـراد ، فليس المراد اعتبارها فى البيان على سبيل الجزئية له ، لأنه ليس مركبا من اعتبار المطابقة وايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، فان الرعاية أمر خارج عن البيان ليست جزءا منه ولا فائدة له ، وانما هى شرط للاعتداد بفائدته ، فاعتبرت فيه من تلك الحيثية ، وأما الايراد فهو فائدة علم البيان ومقصود منه ، فاعتبر فيه من تلك الحيثية) مع زيادة شىء آخـر هو ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة .. فثمرة علم المعانى تشبه الجزء من علم البيـان لتوقفه عليها من حيث اعتبار ثمرته ، فالرعاية والايراد يشبهان أجزاء علم البيان لتوقفه عليهما ، فكان علم المعانى بمنزلة الجزء ، لكون ثمرته المقصودة منه كالجزء . وانما قلنا من حيث اعتبار ثمرته ، لأن تحققه لا يتوقف على رعاية المطـابقة ، ومنه يمكن تحقق ملكة يقتدر بها على ايراد المعنى بطرق مختلفة وضوحا وخفاء من غير رعاية للمطابقة ، ولا شك أن هـذه الملكة تسمى علم البيان .

(٢) أى ملكة يقتـدر بها على ادراكات جزئية ، ويجوز أن يراد به الأصول والقواعد المعلومة .

(٣) أى يطابق بها اللفظ مقتضى الحال ، وذلك احتراز من الأحوال التى ليست بهذه الصفة ، مثل الاعلال والادغام والرفع والنصب وما أشبه ذلك مما لابد منه فى تأدية أصل المعنى ، وكـذا المحسـنات البديعية من =

قيل : « يعرف » دون « يعلم » ، رعاية لما اعتبره بعض الفضلاء من تخصيص العلم بالكليات والمعرفة بالجزئيات ، كما قال صاحب « القانون »[1] فى تعريف الطب : الطب علم يعرف به أحوال بدان الانسان ، وكما قال الشيخ أبو عمرو رحمه الله[2] : التصريف علم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلم .

● تعريف السكاكى :

وقال السكاكى : « علم المعانى : هو تتبع خواص تراكيب الكلام

=

التجنيس والترصيع ونحوهما مما يكون بعد رعاية المطابقة ... والمراد أنه علم تعرف به هذه الأحوال من حيث انها يطابق بها اللفظ مقتضى الحال ، لظهور آن ليس علم المعانى عبارة عن قصور معانى التعريف والتنكير مثلا ، وبهذا يخرج عن التعريف علم البيان اذ ليس البحث فيه عن أحوال اللفظ من هذه الحيثية .... والمراد بأحوال اللفظ الأمور العارضة له من التقديم والتأخير والاثبات والحذف وغير ذلك .

ومقتضى الحال على التحقيق هو الكلام الكلى للتكييف بكيفية مخصوصة على ما أشير اليه فى المفتاح وصرح به الشيرازى فى شرحه ــ وذلك حيث يقول السكاكى فى تعريف علم المعانى : هو تتبع خواص تراكيب البلغاء الخ ، فهو يشير الى ان المقتضى هو الكلام المتكيف بتلك الكيفيات ، لأن الذى يذكر انما هو الكلام لا الحذف والتقديم الخ ... واورد أن الذى يذكر انما هو الكلام الجزئى لا الكلى فهو كالكيفيات لا يذكر ، الا أن قلنا أنه شائع وصف الكلى بوصف جزئيات ــ ، لا نفس الكيفيات من التقديم والتأخير والتعريف والتنكير على ما هو ظاهر عبارة المفتاح وغيره ، ولو أريد بمقتضى الحال الكيفيات لا الكلام ، لما صح القول بأنها أحوال بها يطابق اللفظ مقتضى الحال لأنها عين مقتضى الحال .. وأحوال الاسناد ايضا من أحوال اللفظ باعتبار أن التأكيد وتركه مثلا من الاعتبارات الراجعة الى نفس الجملة . وتخصيص اللفظ بالعربى مجرد اصطلاح لأن الصناعة انما وضعت لذلك .

(١) هو ابن سينا و « القانون » أحد مؤلفاته المشهورة فى الطب .

(٢) هو ابن الحاجب عثمان بن عمر الامام العالم النحوى المشهور ، مؤلف الشافية وسواها من الكتب المشهورة .

فى الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما تقتضىَ الحال ذكره[1] » .

● نقد تعريف السكاكى :

(قال الخطيب) : وفيه[2] نظر :

١ ـ اذ التتبع ليس بعلم ولا صادق عليه ، فلا يصح تعريف شيء من العلوم[3] بـه .

٢ ـ ثم قال[4] : « وأعنى بالتراكيب تراكيب البلغاء » ، ولا شك أن معرفة البليغ من حيث هو بليغ متوقفـة على معرفة البلاغة ، وقـد عرفها فى كتابه بقوله : « البـلاغة : هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعنى حدا له اختصـاص بتوفية خواص التراكيب حقهـا [5] وايراد أنـواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها » .

فان أريد بالتراكيب فى حد البلاغة تراكيب البلغاء ، وهو الظاهر ، فقد جاء الدور[6] ، وان أراد غيرها فلم يبينه .

---

(١) أى ايراده فى الكلام .

(٢) أى فى تعريف السكاكى لعلم المعانى .

(٣) أجيب عن هذا الاعتراض : بأن المراد من التتبع العـلم مجـازا مرسلا من اطلاق المسبب على السبب .

(٤) اى السكاكى كما فى المفتاح ص ٧٠

(٥) بأن يورد كل كلام موافقا لمقتضى الحال ، فالمراد بالتراكيب فى تعريف البلاغة تراكيب ذلك المتكلم .

(٦) لأن علم البلاغة يتوقف على تراكيب البلغـاء وتراكيب البلغـاء تتوقف على علم البلاغة ، ومتى عرفنا البلاغة فقد وصلنا الى حد نعرف به توفيـه خواص التراكيب حقها .

٣ ـ على أن قوله « وغيره » مبهم لم يبين مراده به[1] .

● **المقصود من علم المعاني :**

ثم المقصود من علم المعاني منحصر في ثمانية أبواب :

أولها : أحوال الاسناد الخبري .

وثانيها : أحوال المسند اليه .

وثالثها : أحوال المسند .

ورابعها : أحوال متعلقات الفعل .

وخامسها : القصر .

وسادسها : الانشاء .

وسابعها : الفصل والوصل .

وثامنها : الايجاز والاطناب والمساواة .

ووجه الحصر أن الكلام اما خبر أو انشاء ، لأنه اما أن يكون

=

وقد أجيب عن اعتراض الدور هذا بأن بلاغة الكلام غير بلاغة المتكلم ، فلا يتوقف العلم بالبليغ المتكلم على العلم ببلاغة الكلام التي وقع فيها التحديد فلا يمتنع أخذ البليغ في الحد .

(١) وأجيب عن هذا الاعتراض بأن المراد به الاستهجان بقرينة الاستحسان . هذا وقد بسط الحفيد في « الدر النضيد » شرح تعريف السكاكي ونقده : وقال : المشهور أن المراد بالاستحسان المحسنات البديعية ، فالبديع خارج عن المعاني والبلاغة ، والأوضح في تعريف علم الكلام العربي لمقتضى الحال .

لنسبته خارج تطابقه ، أو لا تطابقه • أو لا يكون لها خارج[1] ،

---

(١) تفصيل ذلك أن الكلام لا محالة يشتمل على نسبة تامة بين الطرفين قائمة بنفس المتكلم ، وهى تعلق أحد الشيئين ــ أى الطرفين : المسند أو المسند اليه ــ بالآخرة ، بحيث يصح السكوت على التعلق ، سواء كان ذلك التعلق ايجابيا أو سلبيا (وهذا لا يكون الا فى الخبر ، بخلاف الانشاء فلا يتصف بايجاب ولا بسلب ، لأنهما من أنواع الحكم ، والانشاء ليس بحكم ، بل هو ايجاد معنى بلفظ يقارنه فى الوجود) أو غيرهما كما فى الانشائيات .

والمراد بالتعلق ما يشمل النسبة الحكمية ــ أعنى ثبوت المحمول للموضوع ــ وما يشمل النسبة الانشائية . والمراد بالايجاب ادراك الثبوت، أى انه مطابق للواقع أو غير مطابق ، وبالسلب عكسه فهو ادراك الانتفاء أى انه مطابق للواقع أو غير مطابق .. وتفسير النسبة بايقاع المحكوم به على المحكوم عليه أو سلبه عنه خطأ فى هذا المقام ، لأنه لا يشمل النسبة فى الكلام الانشائى ، فلا يصح التقسيم .

والتحقق أن الانشاء له نسبة كلامية ونسبة خارجية تارة يتطابقان وتارة لا ، والفارق بين الخبر والانشاء هو قصد المطابقة أو قصد عدمها فى الخبر ، والانشاء ليس فيه قصد للمطابقة ولا لعدمها ، وعبد الحكيم وغيره يقولون : الانشاء لا خارج له اذ لو كان له خارج لكان خبرا يتصور فيه الصدق والكذب اللذان هما من لوازم الخارجية ، واللازم باطل فبطل الملزوم .

هذا والخبر له ثلاث نسب : نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة خارجية فى أحد الازمة الثلاثة . فبين طرفيه ــ اللذين هما النسبة الكلامية ــ فى الخارج والواقع نسبة ثبوتية أو سلبية بحيث يقصد مطابقة تلك النسبة لذلك الخارج بأن تكونا ثبوتيتين أو سلبيتين لا يقصد مطابقتهما له، بأن تكون النسبة المفهومة من الكلام ثبوتية والتى بينهما فى الخارج والواقع سلبية أو بالعكس ، وأما الانشاء فله نسبة ذهنية ونسبة كلامية ، والخلاف هل له نسبة خارجية أو لا ؟

قيل ليس له نسبة خارجية وهذا هو الفرق بينه وبين الخبر . .
وقيل له نسبة خارجية ، والفرق بينهما أن الخبر يقصد فيه مطابقة النسبة للخارج أو عدم مطابقتها له ، والانشاء لا يقصد فيه ذلك .
=

الأول الخبر ، والثانى الانشاء . ثم الخبر لابد له من اسناد ومسند اليه ومسند[1] ، وأحوال هذه الثلاثة هى الأبواب الثلاثة الأولى . ثم المسند قد يكون له متعلقات اذا كان فعلا أو متصلا به أو فى معناه كاسم الفاعل ونحوه[2] ، وهذا هو الباب الرابع . ثم الاسناد والتعلق كل واحد منهما يكون اما بقصر أو بغير قصر ، وهذا هو الباب الخامس . والانشاء هو الباب السادس . ثم الجملة اذا قرنت بأخرى فتكون الثانية اما معطوفة على الأولى أو غير معطوفة ، وهذا هو الباب السابع . ولفظ الكلام البليغ اما زائد على أصل المراد لفائدة[3] أو غير زائد عليه ، وهذا هو الباب الثامن .

* * *

= والخلاصة أن الكلام اما أن تكون نسبته بحيث تحصل من اللفظ ويكون اللفظ موجدا لها من غير قصد الى كونه دالا على نسبة حاصلة فى الواقع بين الشيئين وهو الانشاء ، أو تكون له نسبة بحيث يقصد ان لها نسبة خارجية تطابقه أو لا تطابقه وهو الخبر ؛ لأن النسبة المفهومة من الكلام الحاصلة فى الذهن لابد أن تكون بين الشيئين ، ومع قطع النظر عن الذهن لابد أن يكون بين هذين الشيئين فى الواقع نسبة ثبوتية بأن يكون هذا ذاك ، أو سلبية بأن لا يكون هذا ذاك : الا ترى انك اذا قلت زيد قائم فان القيام حاصل لزيد قطعا ، وثبوت النسبة فى الواقع بين الشيئين المذكورين مع قطع النظر عن الذهن هو معنى وجود النسبة الخارجية فمعنى وجودها تحققها فى الواقع .

(1) والانشاء كذلك أيضا ، وانما اقتصر على الخبر لكونه أعظم شأنا من الانشاء ، وأكثر اشتمالا على اللطائف البلاغية المعتبرة .

(2) كالمصدر واسم المفعول وما اشبه ذلك ولا داعى لتخصيص هذا الكلام بالخبر .

(3) احترز بالفائدة عن التطويل فانه الزيادة على أصل المراد لا لفائدة ، على انه لا حاجة الى قيد الفائدة بعد تقييد الكلام بالبليغ .

هذا وقد أفردت هذه الأحوال المتعلقة بالجملة بأبواب مستقلة دون غيرها من الأحوال — كالتعريف والتنكير مثلا — لصعوبة أمرها وكثرة تشعبها بكثرة مباحثها .

. . . .

تطبيق :

١ ــ ميز الجمل الخبريه من الانشائية وعين المسند والمسند اليه فى كل جملة فيما يلى :

قال بعض البلغاء : لذت بعفوك ، واستنجرت بصفحك ، فأذقنى حلاوة الرضا ، وأنسنى مرارة السخط فيما مضى . وقال الشاعر :

ولا تصطنع آلا الكرام فانهم يجازون بالنعماء من كان منعما
ومن يتخذ عند اللئام صنيعة تجده على آثارها متندما

وقال ابن المعتز :

ليس الكريم الذى يعطى عطيته عن الثناء وأن أغلى به الثمنا
بل الكريم الذى يعطى عطيته لغير شىء سوى استحسانه الحسنا
لا يستثيب ببذل العرف محمده ولا بمن اذا ما قلد المننا

وقال شوقى :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهدا ان الحياة عقيدة وجهاد

وقال المتنبى :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

وقال زهير :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم

وقال عنترة :

وأنا المنية فى المواطن كلها والطعن منى سابق الآجال

وقال الشاعر :

أيها الرائد فى صمت الرعاة عد الى دنياك واهتف بالحياة

وقال حافظ :

ردوا على بيانى بعد محمود انى عييت وأعيا الشعر مجهودى

وقال أبو العلاء :

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

تنبيـــه(١)

اختلف الناس فى انحصـــار الخبر فى الصـــادق والكاذب ، فذهب الجمهور الى أنه منحصر فيهما ثم اختلفوا :

١ ــ فقال الأكثر منهم : صدقه مطابقة حكمه للواقع[٢] . هــذا هو المشهور وعليه التعويل .

٢ ــ وقال بعض الناس [٣] : صدقه مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر

---

(١) هــذا بحث عقلى لا صــلة له بمباحث البلاغة الا من ناحية انه كالتفسير والشرح لتعريف الخبر والانشاء ، وقد أشار عبد القاهر الى شىء من ذلك فى دلائله ــ راجع ص ٤٠٧ الى ٤١٠ من دلائــل الاعجــاز ــ ، كما ذكره الســكاكى فى مفتاحه ص ٧٢ المفتاح ، وجارى الخطيب شيخه السكاكى بالسير على هذا المنوال .

(٢) أى الخارج الذى يكون لنسبة الكلام الخبرى ، فصدق الخبر على ذلك هو مطابقة نسبته الكلامية للنسبة الخارجية ، سواء طابقت الاعتقاد أو لا . وعلى هذا التعريف لا يخرج خبر الشــاك عن الصــادق والكاذب بخلافه على التفسير الثانى .. وتفصيل الأمر أن قولنا محمد قائم له ثلاث نسب : نســبة كلاميــة وهى ما يـدل عليه الكلام ، ونســبة ذهنية وهى ما يحصل فى الذهن من النسبة الكلامية ، ونســبة خارجية وهى النسبة التى بين الطرفين فى الواقع ، فمطابقة النسبة الكلامية للنسبة الخارجية بأن يكونا ثبوتيين أو سلبيين صــدق ، وعــدم مطابقتها لهــا ــ بأن تكون احداهما ثبوتية والأخرى سلبية ــ كذب .

(٣) هو النظام الامام المعتزلى المتوفى عام ٢٣٥ هـ : وعلى رأى النظام يكون قول القــائل « الســماء تحتنا » صدقا اذا كان يعتقد ذلك ، ويكون قوله « السماء فوقنا » كذبا اذا لم يعتقــد ذلك . والمراد بالاعتقاد الحكم الذهنى الجازم أو الراجح فيعم العلم والظن ، أما الشك فواسطة بين الكذب والصدق ، اذ لا اعتقاد للشك ، وعلى هذا لا يتحقق انحصــار الخبر فى الصدق والكذب لوجود الواسطة وهى خبر الشاك ، اللهم الا أن يقال انه كاذب ، لأنه اذا انتفى الاعتقاد صدق عدم مطابقته للاعتقاد . هذا والكلام =

صوابا كان أو خطأ ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له • واحتج له بوجهين :

أحدهما أن من اعتقد أمرا فأخبر به ثم ظهر خبره بخلاف الواقع يقال : ما كذب ولكنه أخطأ ، كما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت فيمن شأنه كذلك : ما كذب ولكنه وهم •

ورد بأن المنفى تعمد الكذب لا الكذب ، بدليل تكذيب الكافر كاليهودى اذا قال : « الاسلام باطل » وتصديقه اذا قال : الاسلام حق • فقولها[1] : « ما كذب » متأول بما كذب عمدا •

الثانى قوله تعالى : « والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » ، كذبهم فى قولهم « انك لرسول الله » وان كان مطابقا للواقع لأنهم لم يعتقدوه •• وأجيب عنه بوجوده •

أحدها أن المعنى نشهد شهادة وأطأت فيها قلوبنا ألسنتنا ، كما يترجم عنه ان والسلام وكون الجملة اسمية فى قولهم انك لرسول الله •• فالتكذيب فى قولهم « نشهد » وادعائهم فيها المواطأة ، لا فى قولهم « انك لرسول الله »[2] •

وثانيهما أن التكذيب فى تسميتهم اخبارهم شهادة ، لأن الاخبار

← المشكوك فيه يرى البعض انه ليس خبرا لانه لا نسبة له فى الاعتقاد فهو خارج عن المقسم وهو الخبر .

(١) أى عائشة رضوان الله عليها .

(٢) وعلى هذا فالتكذيب فى الشهادة لا فى المشهور به ، بخلاف الوجه الثالث فالتكذيب فى المشهود به لكن فى الواقع بل فى زعمهم الفاسد لأنهم يعتقدون أنه غير مطابق للواقع ، فيكون كاذبا باعتقادهم وان كان صادقا فى نفس الأمر ، فكأنه قيل انهم يزعمون انهم كاذبون فى هذا الخبر الصادق ، وحينئذ لا يكون الكذب الا بمعنى عدم المطابقة للواقع .

اذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة فى الحقيقة .

وثالثها آن المعنى لكاذبون فى قولهم : « انك لرسول الله » عند أنفسهم ، لاعتقادهم آنه خبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه .

وأنكر الجاحظ انحصار الخبر فى القسمين[1] ، وزعم أنه ثلاثة أقسام : صادق ، وكاذب ، وغير صادق ولا كاذب . لأن الحكم اما مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر له أو عدمه ، واما غير مطابق مع الاعتقاد أو عدمه :

فالأول ـ أى المطابق مع الاعتقاد ـ هو الصادق[2] .

والثالث ـ أى غير المطابق مع الاعتقاد ـ هو الكاذب[3] .

والثانى والرابع ـ أى المطابق مع عدم الاعتقاد[4] ، وغير المطابق مع عدم الاعتقاد[5] ـ كل منهما ليس بصادق ولا كاذب .

---

(١) أى الصادق والكاذب .

(٢) وصدق الخبر على هذا هو مطابقة الخبر للواقع مع اعتقاد المخبر انه مطابق له .

(٣) فكذب الخبر هو عدم مطابقته للواقع مع اعتقاد أنه غير مطابق له .

(٤) أى مع عدم الاعتقاد أصلا أو مع الاعتقاد بأنه غير مطابق

(٥) أى أصلا أو مع اعتقاد المطابقة ، فالذى ليس بصادق ولا كاذب أربعة :

١ ـ المطابقة مع اعتقاد عدم المطابقة .
٢ ـ المطابقة بدون الاعتقاد أصلا .
٣ ـ عدم المطابقة مع اعتقاد المطابقة .
٤ ـ عدم المطابقة بدون الاعتقاد أصلا .

=

فالصدق عنده مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده — والكذب عدم مطابقته مع اعتقاده .

وغيرهما ضربان : مطابقته مع عدم اعتقاده ، وعدم مطابقته مع عدم اعتقاده .

واحتج بقوله تعالى « افترى على الله كذبا أم به جنة[1] ؟ » فانهم حصروا دعوى النبى صلى الله عليه وسلم الرسالة فى الافترا والاخبار والاخبار حال الجنون ، بمعنى امتناع الخلو ، وليس اخبار حال الجنون كذبا لجعلهم الافتراء فى مقابلته ، ولا صدقا لأنهم لم يعتقدوا صدقه ، فثبت أن من الخبر ما ليس بصادق ولا كاذب[2] .. وأجيب عنه بأن الافتراء هو الكذب عن عمد ، فهو نوع من الكذب فلا يمتنع ان يكون الاخبار حال الجنون كذبا أيضا لجواز أن يكون نوعا آخر من الكذب وهو الكذب لا عن عمد ، فيكون التقسيم للخبر مطلقا ء والمعنى « افترى أم لم يفتر ؟ » ، وعبر عن الثانى بقوله « أم به جنة » ، لأن المجنون لا افتراء له .

* * *

= فكل من الصدق والكذب بتفسير الجاحظ أخص منه بالتفسيرين السابقين ، لأنه إعتبر فى الصدق مطابقة الواقع والاعتقاد جميعا وفى الكذب عدم مطابقتهما جميعا ، وقد اقتصر فى التفسيرين السابقين على احدهما ، فالجمهور اقتصروا فى تفسيرهم على اعتبار المطابقة للواقع والنظام على اعتبار المطابقة للاعتقاد .

(١) الافتراء : الكذب . الجنة : الجنون .

(٢) يلاحظ أن هذا الدليل وان اثبت الواسطة الا انه انما اثبت قسما واحدا من أقسام الواسطة الأربعة . الا أن مراد الجاحظ ابطال مذهب غيره واثبات مذهبه فى الجملة .

تنبيــه آخــر

وهو مما يجب أن يكون على ذكر الطالب لهذا العلم[1] .

قال السكاكي : ليس من الواجب في صـناعة وان كان المرجع في أصـولها وتفاريعها الى مجرد العقل أن يكون الدخيل فيهـا كالناشيء عليها ، في استفادة الذوق منها ، فكيف اذا كانت الصناعة مستندة الى تحكمات وضعية واعتبارات الفية ؟ فلا على الدخيـل في صـناعة علم المعـاني أن يقلد صاحبه في بعض فتاواه ان فاته الذوق هنـاك ، الى أن يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق .

وكثيرا ما يشير الشيخ عبد القاهر في دلائل الاعجاز الى هذا ، كما ذكر في موضع ما تلخيصه هذا : اعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السـامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهـل الذوق والمعرفة ، ومن تحدثه نفسه بأن لمـا تومىء اليـه من الحسـن أصلا . فيختلف الحال عليه عند تأمل الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويعرى منهـا أخرى ، واذا عجبته تعجب ، واذا نبهته لموضـوع المزية انتبـه ، فأما من كانت الحالات عنده على سواء ، وكان لا يتفقد من أمر النظم الا الصحة المطلقة ، والا اعرابا ظاهرا ، فليكن عنـدك بمنزلة من عدم الطبع الذي يدرك به وزن الشعر ، ويميز به مزاحفه من سالمه في أنك لا تتصدى لتعريفه ، لعلمك أنه قد عدم الأداة التي بها يعرف ... واعلم أن هؤلاء وان كانوا هم الآفة العظمى في هـذا الباب ، فان من الآفة أيضـا من زعم أنه لا سـبيل الى معرفة العلة في شيء مما تعرف المزية فيه ، ولا يعلم الا أن له موقعا من النفس وحظـا من القبـول ، فهذا بتوانيه في حكم القائل الأول .. واعلم أنه ليس اذا لم يمكن معرفة

---

(١) أي علم البلاغة .

الكل وجب ترك النظر فى الكل ، ولأن تعرف العلة فى بعض الصـور فتجعله[1] شـاهدا فى غيره أحرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك وتعودها الكسل والهوينا ، قال الجاحظ : وكلام كثير جرى على ألسنة الناس ، وله مضرة شديدة وثمرة مرة . فمن أضر ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئا[2] ، فلو أن علماء كل عصر مذجرت هذه الكلمة فى اسـماعهم ، تركوا الاستنباط لمـا لم ينتـه اليهم عمن قبلهم ، لرأيت العلم مختلا[3] .

* * *

(١) أى فتجعل علمك أو عرفانك بذلك .

(٢) وفى البيـان والتبيين يقول الجاحظ : اذا سمعت الرجل يقول « ما ترك الأول للآخر شيئا فاعلم انه ما يريد أن يفلح » .

(٣) هذا هو نهاية تلخيص الخطيب لكلام عبد القاهر فى الدلائل .

القول فى أحوال الاسـناد الخبرى (١)

من المعلوم لكل عاقل أن قصد المخبر[٢] بخبره افادة المخاطب اما :

---

(١) البحث هنا عن الأمور العارضة للاسناد الخبرى : من التأكيد وعدمه وكونه حقيقة عقلية أو مجازا . الاسناد ضم كلمة أو ما يجرى مجراها ــ كالجملة الحالة محل مفرد نحو زيد قائم أبوه . ومثل المركبات الاضافية والتقييدية ــ الى كلمة أخرى أو ما يجرى مجراها بحيث يفيد الحكم بأن مفهوم احداهما ــ وهى المحكوم به والمسند ــ ثابت لمفهوم الأخرى ــ وهى المسند اليه ــ .

(٢) أى من يكون بصدد الاخبار والاعلام . والا فالجملة الخبرية كثيرا ما تأتى لأغراض أخرى غير افادة الحكم أو لازمه مثل :
التحسر والتحزن كما فى قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران « رب انى وضعتها أنثى » ، وقول الشاعر :

قومى هم قتلوا أميم أخى فاذا رميت يصيبنى سهمى

وكاظهار الضعف كما فى قوله تعالى : « رب انى وهن العظم منى » .

وكبيان التفاوت الغريب فى المنزلة كما فى قوله تعالى « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » الآية ، وقوله تعالى « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وكالاستعطاف والاعتذار كقول النابغة :

نبئت أن قابوس أوعدنى ولا قرار على زأر من الأسد

وكالتوبيخ كقولك : أنت تسىء الى من احسن اليك ، وكاظهار الفرح كقولك : انتصرنا على العدو اللدود . الى غير ذلك من الوجوه التى يفيدها الأسلوب . واستفادة التحسر وغيره من هذه الأساليب بطريق التلويح والاشارة فتكون هذه المعانى من مستتبعات التراكيب ، وقيل أن استعمال الكلام فى التحسر مثلا مجاز مركب ، لأن الهيئة فى مثله موضوعة للأخبار ، فاذا استعمل ذلك المركب فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة فاستعارة وان كان لعلاقة غير المشابهة فمجاز مرسل .

نفس الحكم[1] كقولك زيد قائم لمن لا يعلم أنه قائم ، ويسمى هـذا فائدة الخبر . اما كون المخبر عالما[2] بالحكم ، كقولك لمن زيد عنده ولا يعلم أنك تعلم ذلك : زيد عندك ، ويسمى هذا لازم فائدة الخبر[3] .

٤ ـ قال السكاكى :

---

(١) يطلق الحكم على النسـبة الكلامية وهو المتعارف بين أرباب العربية ، ويطلق على المحكوم به ، وعلى اذعان النسـبة أى ادراك أنهـا واقعة أو ليست بواقعة أى تحققها فى الخارج أو عـدم تحققها وهـذا هو المراد هنا .. والحكم أعم من أن يكون مدلولا حقيقيا للخبر أو مجازيا أو كنائيا .

(٢) المراد بالعلم هنا التصديق بالنسبة جـزما أو ظنـا ، لا مجرد التصـور .

(٣) لأن كل خبر أفاد المخاطب الحكم أفـاد أن المخبر عالم بذلك الحكم ، وليس كل ما أفاد أنه عالم بالحكم أفاد نفس الحكم ، لجواز أن يكون الحكم معلوما قبل الاخبار ، فيكون الخبر حينئذ قد أفاد لازم الفائدة ولم يفد الفائدة كما فى قولنا لمن قرأ كتاب الايضاح : أنت قد قرأت كتاب الايضاح .. ـ وتسمية مثل هذا الحكم فائدة الخبر بنـاء على أنه من شـأنه أن يقصد بالخبر ويستفاد منه فان قيل ان المخاطب قد يلقى الخبر لافادة الحكم ويغفل عن كون المتكلم عالمـا به ، أو يجيز بالحكم وهو شاك أو جاهل فلم تكن افادة أنه عالم بالحـكم لازمة لافادة نفس الحـكم . والجواب أن المراد باللزوم اللزوم فى الجمـلة أى أن ذلك اللزوم بالنظر للغالب .

والمراد بالعلم هنا المعنى المصطلح عليه عند المناطقة ، وهو الصورة الحاصلة فى الذهن وافقت الواقـع اولا ، وسـواء كانت معتقدة للمتكلم اعتقادا جازما أو غير جازم ، لا الاعتقـاد الجـازم المطـابق للواقـع كمـا عليه المتكلمون .

(٤) هذا تفسـير الفائدة بالحكم الذى يقصـد بالخبر افادته ولازم الفائدة يكون المخبر عالمـا بالحكم رأى الجمهور ومنهم السكاكى كما ترى فى المفتاح ... وزعم العلامة الشـيرازى أن فائدة الخبر هى اسـتفادة السـامع من الخبر أن المخبر عالم بالحكـ ، وهو خلاف التحقيق .

« والأولى بدون هــذه تمتنع ، وهــذه بدون الأولى لا تمتنع ، كما هو حكم اللازم المجهول المســاواة[1] » .

أى يمتنع أن لا يحصل العلم الثانى من آخبر نفسه عند حصول الأول منه[2] ، لامتناع حصول الثانى قبل حصول الأول ، مع أن سماع الخبر من المخبر كاف فى حصول الثانى منه .

ولا يمتنع أن لا يحصل الأول[3] من الخبر نفسه عند سماع الثانى منــه ، لجواز حصــول الأول قبل حصــول الثانى وامتناع حصــول الحاصــل .

---

(١) وهو اللازم الأعم مثل لزوم الحيوانية للانسانية فلا يلزم من العلم بالحيوانية العلم بالانســانية .

(٢) للزوم حصول لازم فائدة الخبر كلما حصلت الفائدة ، فالعلم الثانى وهو علم المخاطب بأن المخبر عالم بهذا الحكم من الخبر نفسه يوجد عند حصول العلم الأول وهو علمه بذلك الحكم من الخبر نفسه ، اذ لو لم يحصل العلم الثانى عند حصول الأول فاما لأنه قد حصل قبل وأما لأنه لم يحصل بعد ، أما الأول ـ حصول العلم الثانى قبل الأول ـ فباطل لان العلم يكون المخبر عالمــا بالحكم لابد فيه من أن يكون هذا الحكم حاصلا فى ذهنــه ضرورة ، والثانى باطــل لأن علة حصــوله سماع الخبر من المخبر ، اذ التقدير ان حصوله انما هو نفس الخبر ، فنبه الخطيب على الأول بقوله : « لامتناع حصول الثانى قبل حصول الأول » ، ونبه على الثانى ، لجواز حصول الأول قبل حصول الثانى فلا يمكن حصوله لامتناع فان قيل لا نسلم انه كلما افاد الخبر افاد انه عالم به ، لجواز أن يكون خبره مظنونا أو مشكوكا او موهوبا أو كذبا محضــا ، فالجواب انه ليس المراد بالعلم هنا الاعتقاد الجازم المطابق بل حصول صورة هــذا الحكم فى ذهنه وهذا ضرورى فى كل عاقل تصدى للاخبار .

(٣) اى يمتنع حصول العلم الأول من الخبر نفسه عند حصول العلم الثانى ، لجواز حصول الأول قبل الثانى فلا يمكن حصــوله لامتنــاع حصول الحاصل ، كالعلم بكونه حافظــا للقرآن فى قولك : انت حفظت القرآن ، وحينئذ تســمية هذا الحكم فائدة الخبر على أن من شــأنه ان يستفاد من الخبر .

وقد ينزل العـالم[1] بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجـاهل لعدم جريه على موجب العلم ، فيلقى اليه الخبر كما يلقى الى الجاهل بأحدهما .. قال السكاكى :

وان شئت فعليك بكلام رب العزة : « ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون[2] » ، كيف تجد صدره يصف أهل الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد القسمى ، وآخره ينفيه عنهم حيث لم يعملوا بعلمهم . ونظيره فى النفى والاثبات « وما رميت اذ رميت »[3] ، وقوله تعالى : « وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » .

هذا لفظه[4] .. وفيه ايهام أن الآية الأولى من أمثلة تنزيل العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجاهل بهما ، وليست منها ، بل هى من أمثلة تنزيل العالم بالشىء منزلة الجاهل به لعدم جريه على موجب العلم ، والفرق بينهما ظاهر .

---

(١) أى المخاطب العالم بالفائدة ولازمها معا ، وكذلك العالم بأحدهما (الفائدة أو اللازم) فقط . وذلك لعدم جريه على مقتضى علمه ، فان من لا يجرى على مقتضى العلم هو والجاهل سواء ، كما يقال للعالم التارك الصلاة الصلاة واجبة ، وقولك لمن يسألك : ماذا أمامك ؟ وهو يعلم أنـه كتاب : أمامى كتاب .

(٢) اللام فى لقد موطئة للقسم ، أى واقعة فى جواب قسم محذوف ، واللام فى « لمن » ابتدائية ، وجملة « لمن اشتراه الخ » سـدت مسد مفعولى علموا لتعليقه بلام الابتداء ، ومحل الشاهد قوله « لو كانـوا يعلمون » ، وقد اثبت ذلك العلم لهم فى صدر الآية .. هذا وتنزيل العالم بالشىء منزلة الجاهل به لاعتبارات بلاغية كثيرة فى الكلام .

(٣) الآية من تنزيل وجود الشىء منزلة عدمه — وقوله فى « النفى والاثبات » أى فى نفى شىء واثباته .

(٤) أى نص كلام السكاكى .

واذا كان غرض المخبر بخبره افادة المخاطب أحد الأمرين ، فينبغى أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة :

١ ــ فإن كان المخاطب خالى الذهن من الحكم[١] ــ بأحد طرفى الخبر على الآخر ــ والتردد فيه استغنى عن مؤكدات الحكم كقولك : جاء زيد ، وعمرو ذاهب ، فيتمكن فى ذهنه ، لمصادفته اياه خاليا .

٢ ــ وان كان متصورا لطرفيه[٢] ، مترددا فى اسناد أحدهما الى الآخر ، طالبا له ، حسن تقويته بمؤكد[٣] ، كقولك لزيد عارف أو أن زيدا عارف .

---

(١) المراد بالحكم كما سبق الاعتقاد ولو غير جازم : وخلو الذهن من لازم الحكم مثل خلوه من الحكم فى ترك التأكيد . والضمير فى قوله : « والتردد فيه » للحكم بمعنى وقوع النسبة أو لا وقوعها ؛ ففى الكلام استخدام ، لأن ، التردد ليس فى الحكم بمعنى التصديق .. والمراد أن المخاطب ليس عالما بوقوع النسبة أو لا وقوعها وليس مترددا فى أن النسبة هل هى واقعة أو لا .

(٢) أى طرفى الحكم وهما المسند والمسند اليه .

(٣) أى باداة تأكيد واحدة ، ليزيل ذلك المؤكد تردده ويتمكن الحكم فى نفسه .

هذا والمراد بالخالى من يخلو ذهنه عن التصديق بالنسبة الحكمية فيما بين طرفى الجملة الخبرية وعن تصور تلك النسبة .. والمراد بالمتردد من تصور تلك النسبة الحكمية ولم يصدق بشىء من وقوعها وعدم وقوعها .. وبالمنكر من صدق بما ينافى مضمون الجملة الملقاة اليه.

واعتبار هذه الاحوال فى المخاطب وايراد الكلام على الوجوه المذكورة بالقياس الى فائدة الخبر أعنى الحكم ظاهر ، وأما بالقياس الى لازمها فيمكن اعتبار الخلو وتجرد الجملة عن المؤكد ، وأما اعتبار التردد والانكار على الوجه المذكور فلا يجرى فى اللازم .

٣ ــ وان كان حاكما بخلافه وجب توكيده[١] بحسب الانكار[٢] ، فتقول : « انى صادق » لمن ينكر صدقك ولا يبالغ فى انكاره ، و « انى لصادق » لمن يبالغ فى انكاره . وعليه قوله تعالى « ضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون ، اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون ، قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ، ان أنتم الا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون » .

=

ومؤكدات الحكم هى : ان والقسم ونونا التوكيد ولام الابتداء واسمية الجملة وتكريرها ولو حكما واما الشرطية وحروف التنبيه وحروف الزيادة وضمير الفصل وتقديم الفاعل المعنوى لتقوية الحكم ، ومنها السين اذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه لأنها تفيد الوعد أو الوعيد وهذا مقتض لتوكيد الحكم ، وقد التى للتحقيق ، وكان ولكن وانما وليت ولعل وتكرير النفى ، وبعضهم عد أن المفتوحة ، وقيل : ليست منها لأن ما بعدها فى حكم المفرد .

والفرق بين التأكيد الواجب والمستحسن مع ان المستحسن عند البلغاء واجب هو أن ترك المستحسن يلام عليه لوما أخف من اللوم على ترك الواجب .

وقال عبد القاهر فى دلائل الاعجاز ص ٢٤٩ : « اكثر مواقع ان بحكم الاستقراء هو الجواب » ، لكن « يشترط فيه أن يكون للسائل ظن على خلاف ما أنت تجيبه به ، فاما أن يجعل مجرد الجواب أصلا فيها فلا ، لأنه يؤدى الى أن لا يستقيم لنا أن نقول : « صالح » فى جواب كيف زيد ؟ و « فى الدار » فى جواب : « أين زيد ؟ » حتى تقول : انه صالح ، وانه فى الدار ، وهذا مما لا قائل به » ، فهو يرى أنه انما يحسن التأكيد اذا كان للمخاطب ظن على خلاف حكمك أى تأكيد الحكم بمؤكد فاكثر وقيل بأكثر من مؤكد فرقا بينه وبين التوكيد المستحسن .

(٢) أى بقدره قوة وضعفا ، يعنى يجب زيادة التأكيد بحسب ازدياد الانكار .

حيث قال فى المرة الأولى : انا اليكم مرسـلون ، وفى الثانية : انا اليكم لمرسلون[١] .

* * *

ويؤيد ما ذكرناه جواب أبى العباس[٢] للكندى عن قوله : انى أجد فى كلام العرب حشوا ، يقـولون : عبد الله قائم ، وان عبد الله قائم ، وان عبد الله لقائم ، والمعنى واحـد .. بأن قال ، بل المعـانى مختلفة ، « فعبد الله قائم » اخبار عن قيامه ، و « ان عبد الله قائم » جواب عن سؤال سائل ، وان عبد الله لقائم جواب عن انكار منكر .

* * *

ويسمى النوع الأول من الخبر ابتدائيا[٣] ، والثـانى طلبيـا ، والثالث انكاريا ، واخـراج الكلام على هـذه الوجوه[٤] اخراجا على مقتضى الظاهر[٥] .

---

(١) فأكد فى الأول بان واسمية الجملة ، وفى الثانية بالقسم وان واللام واسمية الجملة لمبالغة المخاطبين فى الانكار حيث قالوا : « ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء ان أنتم الا تكذبون » .

(٢) أبو العباس هو محمد بن المبرد يزيد المبرد الامام فى اللغة والنحو وصاحب الكامل توفى عام ٢٨٥ هـ . والكندى أبو يوسف يعقوب بن اسحاق فيلسوف العرب المشهور المتوفى نحو سنة ٢٥٣ هـ . وتجد الرواية كاملة فى دلائل الاعجاز ص ٢٤٢ وفى المفتاح أيضا ص ٧٤ .

(٣) أى غير مسبوق بطلب ولا بانكار .

(٤) وهى الخلو عن التأكيد فى الأول والتقوية بمؤكد استحسانا فى الثانى ووجوب التأكيد بحسب الانكار فى الثالث .

(٥) اى مقتضى ظاهر الحال وهو أخص مطلقا من مقتضى الحال ، فكل مقتضى الظاهر مقتضى الحال ، ولا عكس ، كما فى صور اخراج الكلام =

وكثيرا ما يخرج على خلافه[1] :

١ ــ فينزل غير السائل منزلة السائل ، اذ قدم اليه ما يلوح له بحكم الخبر ، فيستشرق له استشراق المتردد الطالب[2] كقوله تعالى :

على خلاف مقتضى الظاهر . فانه يكون على مقتضى الحال ولا يكون على مقتضى الظاهر ... هذا والحال هو الأمر الداعى الى ايراد الكلام مكيفا بكيفية مخصوصة سواء كان ذلك الأمر الداعى ثابتا فى الواقع أو كان ثبوته بالنظر لما عند المتكلم كصور التنزيل ، أما ظاهر الحال فهو الأمر الداعى الى ايراد الكلام مكيفا بكيفية مخصوصة بشرط أن يكون ذلك الأمر الداعى ثابتا فى الواقع فلذا كان أخص من الحال مطلقا . ثم ان تلك الكيفية هى مقتضى الحال أو لظاهره . كل كيفية اقتضاها ظاهر الحال اقتضاها الحال دون عكس ، فعموم المقتضى يقتضى عموم المقتضى .

(١) أى على خلاف مقتضى الظاهر . هذا وذكر بعضهم أن صور التخريج من باب الكناية ، لأنه ذكر اللام ــ وهو مدلول الكلام المشتمل على الخصوصية وهو المقام الذى لا يناسبه بحسب الظاهر مع قرينة غير مانعة من ارادته ــ واستعمل اللفظ فيه وقصد منه ملزومه الذى هو تنزيل المقام الغير المناسب منزلة المناسب . وقيل انه من قبيل الاستعارة المكنية ... والحق أنه لا يقال فيه شىء من ذلك ، لأن الكلام هنا لم يوضع لهذه المعانى لأنها معان عرضية .

هذا والصور هى :

١ ــ الخالى : ــ السائل ــ المنكر : بالنسبة لحال كل منهم .
٢ ــ العالم ينزل منزلة الخالى أو السائل أو المنكر .
٣ ــ الخالى ينزل منزلة السائل أو المنكر .
٤ ــ السائل ينزل منزلة الخالى أو المنكر .
٥ ــ المنكر ينزل منزلة الخالى أو السائل .

فحال المخاطب بالخبر منحصر فى العلم بالحكم والخلو منه والسؤال له والانكار له . والعالم لا يخرج معه الكلام على مقتضى الظاهر .

(٢) يلوح : يتسير . استشرف فلان الى الشىء اذا رفع رأسه لينظر اليه وبسط كفه فوق الحاجب كالمستظل من الشمس .. هذا والنكتة فى التنزيل الذى ذكرها الخطيب هى أنه قد قدم للمخاطب غير

« ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون »[1] ، وقوله : « وما أبرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء » ، وقول بعض العرب :

فغنهــا وهي لك الفــداء　　ان غنــاء الابل الحداء[2]

وسلوك هذه الطريقة شــعبة من البلاغة فيها دقة وغموض .

روى عن الأصمعي[3] أنه قال :

كان أبو عمرو بن العلاء[4] وخلف الأحمر[5] يأتيــان بشارا[6] ، فيسلمان عليه بغاية الاعظــام ، ثم يقــولان : يا أبا معــاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الزوال ثم ينصرفان ، فأتياه يوما فقالا : ما هذه القصــيدة التي أحدثتها في

=

السائل ما يلوح له بالخبر فيتطلع له تطلع السائل المتردد . وقد يكون تنزيل غير السائل لأغراض أخرى ، كالاهتمام بشأن الخبر لكونه مستبعدا والتنبيه على غفلة السامع الى غير ذلك .

(١) أى لا تدعني يا نوح في شــأن قومك واســتدفاع العذاب عنهم بشفاعتك فهــذا كلام يلوح بالخبر تلويحا ما . ويشــعر بأنه قد حق عليهم العذاب ، فصار المقام مقام أن يتردد المخاطب في أنهم هل صــاروا محكوما عليهم بالاغراق أم لا . فقيل « انهم مغرقون » مؤكدا ، أى محكوما عليهم بالاغراق .

(٢) الضمير في « فتغنها » للابل والحداء من حدا الابل أو بها : ساقها وغنى لها .

(٣) عبد الملك بن قريب الامام في اللغة والادب ، توفى عام ٢١٤ هـ ، ونجد الرواية في الأغاني ص ٤٣ ج ٣ ، وفي الدلائل ص ٢١٠ وفي المفتــاح ص ٧٥ .

(٤) وفي الأغاني : خلف بن أبي عمرو بن العلاء . وأبو عمرو من أئمة اللغة توفى عام ١٥٤ هـ وخلف ابنه توفى في أواخر القرن الثاني الهجري .

(٥) من أئمة اللغــة والشعر والأدب توفى عام ١٨٠ هـ .

(٦) أبو معاذ امام الشعراء المحدثين توفى عام ١٦٧ هـ .

ابن قتيبة [1] ؟ قال : هى التى بلغتكما ، قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب قال ، : نعم ان ابن قتيبة يتباصر بالغريب فأجبت أن أورد عليه ما لا يعرف ، قالا : فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما :

بكرا صاحبى قبل الهجير   ان ذاك النجاح فى التبكير

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان « ان ذاك النجاح » : بكرا فالنجاح ، كان أحسن ، فقال بشار : انما بنيتها أعرابية وحشية فقلت « ان ذاك النجاح » كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت (بكرا فالنجاح) كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة ، قال : فقام خلف فقبل بين عينيه .

فهل كان ما جرى بين خلف وبشار بمحضر من أبى عمرو بن العلاء — وهم من فحولة هذا الفن — الا للطف المعنى فى ذلك وخفائه ؟

٢ — وكذلك ينزل غير المنكر منزلة المنكر اذا ظهر عليه شيء من أمارات الانكار [2] . كقوله [3] :

---

(١) قائد من كبار القواد المشهورين فى بدء عهد الدولة العباسية .

(٢) وغير المنكر يشمل الخالى والسائل والعالم وان كان المثال من تنزيل العالم منزلة المنكر .

(٣) البيت لحجل بن نضلة . شقيق : اسم رجل . عارضا رمحه أى واضعا له على العرض بأن جعله وهو راكب على فخذيه ... فهو لا ينكر أن فى بنى عمه رماحا لكن مجيئه هكذا واضعا الرمح على العرض من غير التفات وتهيؤ أمارة على أنه يعتقد أنه لا رماح فيهم بل كلهم عزل لا سلاح معهم فنزله منزلة المنكر فأكد له الكلام فقال : « ان بنى عمك فيهم رماح » . وفى البيت تهكم واستهزاء كأنه يرميه بالضعف والجبن وبأنه لو علم أن فيهم رماحا لما حملت يده السلاح ولفر من خوف الكفاح . فهو على طريقة قوله :

فقلت لمحرز لما التقينا   تنكب لا يقطرك الزحام

جـاء شقيق عارضا رمحه ان بنى عمـك فيهم رماح

فان مجيئه هكذا مدلا بشجاعته قد وضع رمحه عرضا لدليل على اعجاب شديد منه ، واعتقاد أنه لا يقوم اليه من بنى عمه أحد . كأنهم كلهم عزل ليس مع أحد منهم رمح .

٣ ـ وكذلك بنزل المنكر[١] منزلة غير المنكر اذا كان معه ما ان تأمله ارتدع عن الانكار ، كما يقال لمنكر الاسلام : الاسلام حق[٢] . وعليه قوله تعالى فى حق القرآن « لا ريب فيه[٣] » .

=

والتقطير : الالقاء على الأرض على البطن أو على أحـد الجانبين .. برميه بأنه لم يباشر الشدائد ولم يدفع الى مضايق الحروب ، كأنه يخاف عليه أن يداس بالقوائم كما يخاف على الصبيان والنساء لقلة غنائه .

(١) ومثله المتردد . وغير المنكر هنا وان صدق بخالى الذهن والعالم بالحكم والمتردد فيه الا أن المراد منه خصوص الأول . وقوله ما ان تأمله اى شىء من الدلائل والشواهد بحيث لو تأمل المنكر ذلك الشىء ارتدع عن انكاره ، ومعنى كونه معه . ان يكون معلوما له ومشـاهدا عنده كالاسلام حق لمنكر ذلك ، لأن مع ذلك المنكر دلائل دالة على حقيقة الاسلام .

(٢) اسمية لجملة هنا ليست مؤكدا لأنهـا انما تكون مؤكدا اذا اعتبر تحويلها عن الفعلية أو اذا انضمت لغيرها من المؤكـدات أو أن اسمية الجملة ليست مؤكدة الا اذا ناسب ذلك المقام .

(٣) ظاهر هذا الكلام انه مثال لجعل المنكر كغيره وترك التأكيد لذلك، وبيانه أن معنى «لا ريب فيه» ليس القرآن بمظنة للريب ولا ينبغى أن يرتاب فيه ، وهذا الحكم مما ينكره كثير من المخاطبين ، لكن نزل انكارهم منزلة عدمه او على الأصح نزل المنكر منزلة غير المنكر ، لمـا معه من الدلائل الدالة على أنه ليس مما ينبغى أن يرتاب فيه ، من ظهور اعجازه وكون من اتى به صادقا مصدوقا بالمعجزات . والأحسن أن يقال أنه تنظير لتنزيل وجود الشىء منزلة عدمه ـ لا مثال للجعـل ـ وذلك بناء على وجـود ما يزيله ، فانه نزل ريب المرتابين منزلة عدمه تعويلا على وجود ما يزيله، حتى صح نفى الريب على سبيل الاستغراق المفهوم من وقوع النكرة فى سـياق النفى المفيد للعموم الشمولى ، فالمنفى هنا هو نفس الريب على =

ومما يتفرع على هذين الاعتبارين قوله تعالى : « ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون » . أكد اثبات الموت تأكيدين وان كان مما لا ينكر لتنزيل الخاطبين منزلة من يبالغ فى انكار الموت لتماديهم فى الغفلة والاعراض عن العمل لما بعده ، ولهذا قيل « ميتون » دون « تموتون » كما سيأتى الفرق بينهما[1] . وأكد اثبات البعث تأكيدا واحدا وان كان مما ينكر لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديرا بأن لا ينكر ، بل اما أن يعترف به أو يتردد فيه ، فينزل المخاطبون منزلة المترددين ، تنبيها لهم على ظهور أدلته ، وحثا لهم على النظر فيها ، ولهذا جاء تبعثون على الأصل .

* * *

هذا كله اعتبارات الاثبات وقس عليه اعتبارات النفى[2] ، كقولك : ليس زيد أو ما زيد منطلقا أو بمنطلق ، ووالله ليس زيد

=

سبيل الاستغراق . وفى الأول ليس المنفى الريب بل كون القرآن مظنة له خطابا لمنكرى ذلك . وهذا الوجه احسن لأنه لا يحتاج الى التأويل الذى فى الوجه الأول وما لا يحتاج الى التأويل أولى مما يحتاج لتأويل .

(١) من أن الجملة الاسمية لافادة الثبوت والدوام ، والفعلية لافادة التجدد والحدوث .

(٢) اى أمثلة الاعتبارات الواقعة فى الاسناد فى الكلام المنفى من التجريد عن المؤكدات فى الابتدائى وتقويته بمؤكد استحسانا فى الطلبى ووجود التاكيد بحسب الانكار فى الانكارى . وقد ينزل غير المنكر منزلة المنكر فيؤكد معه النفى ، وينزل المنكر كغيره فيلقى اليه الكلام خلوا من التاكيد الخ .

خاتمة فى أغراض الخبر :

١ ــ افادة المخاطب الحكم (فائدة الخبر) .

٢ ــ افادة المخاطب أن المخبر عالم بالحكم (لازم الفائدة) =

أو ما زيد منطلقا أو بمنطلق . وما ينطلق أو ما ان ينطلق زيد ، وما كان زيد ينطلق ، وما كان زيد لينطلق ، ولا ينطلق زيد ، ولن ينطلق زيد ، ووالله ما ينطلق أو ما ان ينطلق زيد .

* * *

= ٣ ــ الفخر والتمدح كقول المتنبى :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

٤ ــ اظهار الفرح كقول الشاعر :

بشرى فقد أنجز الاقبال ما وعدا

٥ ــ التنبيه والحث كقول الشاعر :

من راقب الناس مات غما ... وفاز باللذة الجسور

٦ ــ الارشاد والوعظ كقول لبيد :

الا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

٧ ــ اظهار الضعف : « انى وهن العظم منى » .

٨ ــ التحسر على الفائت كقول الشاعر :

ذهب الصبا وتولت الأيام

٩ ــ التحذير كقولك : « مصير البخيل الهم والاملاق » .

١٠ ــ التذكير بالتفاوت :

وما يستوى من عاش المجد سعيه ... ومن عاش فى دنياه عيش البهائم

١١ ــ الاستعطاف :

فان أك مظلما معد ظلمته ... وان تك ذا عتبى فمثلك يعتب

١٢ ــ التوبيخ :

ذل من يغبط الذليل بعيش ... رب عيش اخف منه الحمام

شواهد لمعرفة أغراض الخبر فيها ومقاصده :

قال ابراهيم بن المهدى :

اتيت جرما شنيعا ... وأنت للعفو أهل

=

* * * * * * * * * * * *

= وقال ابو فراس :

ومكارمى عـدد النجـوم ومنزلى مأوى الكرام وموئل الأضـياف

ولمروان بن أبى حفصـة يرثى معن بن زائدة :

مضى لسـبيله معـن وأبقى مكارم لن تبيـد ولن تنـالا

وقال أبو نواس :

ذهبت جـدتى بطـاعة نفسى وتذكرت طـاعة الله نضـوا

المتنبى :

انى أصـاحب حلمى وهو بى كرم ولا أصـاحب حلمى وهو بى جبن

وقـال :

أقمت بأرض مصر فلا ورائى تخب بى الركاب ولا أمامى

وقال الشاعر :

قومى هم قتلوا – أميم – أخى فاذا رميت يصـيبنى سـهمى

وقال الشاعر :

ذهب الشباب فما له من عودة وأتى المشيب فأين عنـه المهرب ؟

وقـال :

ظمئت وفى فمى الأدب المصفى وضعت وفى يدى الكنز الثمين

وقال المتنبى :

ذل من يغبط الذليـل بعيش رب عيش أخف منه الحمـام

شواهد على أضرب الخبر وأدوات التأكيد :

قال أبو الطيب :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قـدر الكرام المكارم

وقال النـابغة :

ولسـت بمسـتبق أخـا لا تلمـه على شعث،اى الرجال المهذب؟! =

. . . .

= وقال أبو العتاهية :

انى رأيت عـواقب الدنيـا فتركت ما أهـوى لمـا اخشى

أبو نواس :

ولقـد نهزت مـع الغـواة بدلوهم واسمت سرح اللحظ حيث اساموا
وبلغت ما بلغ آمرؤ بشـبابه فاذا عصـارة كل ذاك اثام

المعـزى :

ان الذى آلوحشـة فى داره تؤنسـه الرحمـة فى لحـده

شـاعر :

وليس أخى من ودنى رأى عينـه ولكن أخى من ودنى وهـو غائب

شواهد لخروج الخبر عن مقتضى الظاهر :

قال تعالى : وصل عليهم أن صلاتك سكن لهم . وقال : قل هو الله أحد ، آلله الصمد .. وقال أبو العتاهيـة :

ان الشـباب والفراغ والجدة مفسـدة للمرء أى مفسـدة

وقال أبو الطيب :

ترفـق أيهـا المولى عليهـم فان الرفـق بالجـانى عتاب

وتقول لمن ينكر فائدة التعليم : التعليم ينهض بالأمة ويرقى بالشعب .
=

● الحقيقة العقلية والمجاز العقلى :

فصـــــل

● قال الخطيب :

الاسناد : منه حقيقة عقلية ، ومنه مجاز عقلى .

أما الحقيقة فهى اسناد[1] الفعل أو معنـــاه الى ما هـــو له عنـــد المتكلم فى الظاهر .

---

(١) معناه أى معنى الفعل يشمل المصـــدر واسمى الفاعل والمفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والظرف . وأمثلة المبالغة تدخل فى اسم الفاعل ، والجار والمجرور يدخل فى الظرف . ويدخل اسم الفعل والمنسوب اليه نحو أتميمى أبوك ؟ .

وقولنا « الى ما هو له » أى الى لفظ يكون الفعل أو ما فى معناه له . اى لمعنى ذلك اللفظ : أى مدلول الفعل ومدلول اللفظ الدال عليه معنى الفعل ثابت لمدلول ذلك اللفظ .

معنى ذلك أن الحقيقة هى اسناد لفظ أى لفظ دل على معنى الفعل الى لفظ له ، فاذا قلنـــا « ضرب زيد » فقد أسندنا الى الفاعل لفظ الفعل وهو ضرب الدال على المعنى الذى هو وصف الفاعل فيكون حقيقة ، وكذا اذا قلنـــا « ضرب عمرو » فقد أسندنا الى المفعول وهو « عمرو » لفظ الفعل الذى هو « ضرب » الدال على وصف المفعول فيكون حقيقة . فالشىء المسند اليه الذى ثبت له الفعل أو معنـــاه منحصر فى الفاعل فيما بنى للفاعل ، والمفعول به فى فعل بنى للمفعول ، فان الضاربية لزيد ثابتة له والمضروبية ثابتة لعمرو ، بخلاف « نهاره صائم » فان الصوم ليس ثابتـــا للنهار بل للشخص ، فلذا كان الاسناد فيه مجازا بكونه لغير من هو له .

ولا يدخل هنا المبتدأ عند المصنف ، نحو انما هى اقبال ، لأن الاسناد اليه عنده واسطة بين الحقيقة والمجاز ، اما عند عبد القاهر والسكاكى =

والمراد بمعنى الفعل نحو المصدر واسم الفاعل . وقولنا « فى الظاهر » ليشمل ما لا يطابق اعتقاده مما يطابق الواقع وما لا يطابقه .

فهى أربعة أضرب :

أحدها ما يطابق الواقع واعتقاده ، كقول المؤمن : « أنبت الله البقل » و « شفى الله المريض » .

والثانى ما يطابق الواقع دون اعتقاده ، كقول المعتزلى لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها منه : « خالق الأفعال كلها هو الله تعالى » .

= فالمبتدأ كالفاعل والمفعول فيما أسند اليه ، فالاسناد فى « زيد قائم » ليس حقيقة ولا مجازا عند الخطيب ، وكذلك فيما كان الخبر فيه جامدا مثل « هذا معدن » ، وأما اسناد « قائم » الى ضمير زيد فهو حقيقة .

ثم المراد بكون المسند للمسند اليه كونه وصفا له وحقه أن ينسب اليه بالاتصاف . فمتى كونه له أن معناه قائم به وهو متصف به ومنتسب اليه . وقوله الى ما هو له يشمل ما هو له فى الواقع والاعتقاد معا أو فى الواقع فقط . وقوله « عند المتكلم » أى لما هو له عند المتكلم لا فى الواقع ونفس الأمر .. وبهذا دخل فى تعريف الحقيقة : ما طابق الاعتقاد دون الواقع كقول الجاهل « أنبت الربيع البقل » .

وقوله فى « الظاهر » وعند المتكلم متعلقان بقوله « له » . وفى الظاهر — اى فى ظاهر حال المتكلم — يدخل ما لا يطابق الاعتقاد سواء طابق الواقع أم لا .

وبهذا صار التعريف متناولا لأربعة اقسام : ما يطابق الواقع والاعتقاد ، وما لا يطابق شيئا منهما ، وما طابق الواقع دون الاعتقاد ، وما طابق الاعتقاد دون الواقع .. ولم يخرج عن التعريف الا ما فيه اسناد لغير ما هو له عند المتكلم بحسب الظاهر . فالحقيقة العقلية اربعة اقسام كما ترى وكما سيذكر الخطيب ... والمعنى أن الحقيقة هى اسناد الفعل او معناه الى ما يكون هو له عند المتكلم فيما يفهم من ظاهر حاله ، وذلك الفهم بالا ينصب قرينة دالة على انه غير ما هو له فى اعتقاده .

والثالث ما يطابق اعتقاده دون الواقع ، كقـــول الجاهل : « شفى الطبيب المريض » معتقدا شفاء المريض من الطبيب ، ومنـــه قوله تعالى حكاية عن بعض الكفار : « وما يهلكنا الا الدهر » . ولا يجوز أن يكون مجازا . والانكار عليهم من جهة ظاهر اللفظ لمـــا فيه من ايهام الخطأ ، بدليل قوله تعالى عقبيه : « وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » ، والمتجوز المخطىء فى العبارة لا يوصف بالظن ، وانما الظان من يعتقد أن الأمر على ما قاله .

والرابع ما لا يطابق شـــيئا منهمـــا ، كالأقوال الكاذبة التى يكون القائل عالما بحالها دون المخاطب .

وأما المجاز[1] فهـــو اسناد الفعل أو معناه الى ملابس[2] لـــه غير

---

(١) المجاز أصله مجوز من جاز المكان تعداه لأن الاسناد تعدى مكانه الأصلى ... وعقلى نسبة العقل ، لأن التجوز والتصرف فيه فى أمر معقول يدرك بالعقل وهو الاسناد ، بخلاف المجاز اللغوى فان التصرف فيه فى أمر نقلى ، وهو أن اللفظ لم يوضع لهذا المعنى ...

ويسمى مجازا حكميا أى منسوبا للحكم بمعنى الادراك ، أو أنه نسبة الحكم بمعنى النسبة والاسناد لتعلقه بها . والمراد بالحكم المنسوب اليـــه المتعلق به مطلق نسبة ســـواء كانت اســـنادية أو اضافية أو ايقاعية ، وحينئذ فهو من نسبة الخاص للعام أو من تعلق الخاص بالعام ، فالمجاز كما يكون فى الحكم وهو النسبة التامة ، يكون فى النسبة الاضافية كمكر الليل ، والايقاعية كنومت الليل أى أوقعت النوم عليه ... فالمراد بالحكم الذى تعلق به المجاز ليس خصوص النسبة التامة ، بل مطلق نسبة . فالمجاز اذا كان فى الاضافية أو الايقاعية يصدق عليه أنه متعلق بالحكم بمعنى مطلق نسبة من تعلق الخاص بالعام .

ويسمى أيضا مجازا فى الاثبات لحصوله فى اثبات أحد الطرفين للآخر ، والتقييد بالاثبات لاشرفيته ، فمثل « فما ربحت تجارتهم » : جعل من قبيل المجاز لكون اسناد الربح الى التجارة اسنادا الى غير ما هو له ، أو أن ما ربحت تجارتهم بمعنى خسرت ، فالمجاز العقلى كما يكون فى الاسناد المثبت =

* * * * * * * * * * * *

يكون فى المنفى أيضا . ويسمى أيضا اسناد مجازيا نسبة الى المجاز بمعنى المصدر . لأن الاسناد جاوز به المتكلم حقيقته وأصله الى غير ذلك .
فان قيل : المجاز العقلى لا يختص بالاسناد أى النسب التامة ، بل يجرى فى الاضافية والايقاعية . واقتصارهم على الاسناد يوجب الاختصاص ؟
أجيب بأن اقتصارهم فى التسمية على الاسناد لاشرفيته أو أن المراد بالاسناد مطلق النسبة من اطلاق الخاص وارادة العام .

(٢) أى الى شيء بينه وبين الفعل أو معناه ملابسة وارتباط وتعلق . فالضمير فى قوله « له » راجع « للفعل أو معناه » — « وغير ما هو له » أى غير الملابس الذى هو أى الفعل أو معناه له أى لذلك الملابس ، يعنى غير الفاعل الحقيقى فى المبنى الفاعل ، وغير المفعول به فى المبنى للمفعول به .

وفى تعريف المجاز العقلى اشارة الى أنه لا بد فيه من علاقة (ويدل على ذلك قولنا الى ملابس له) وقرينة (ويدل عليها قولنا بتأويل) .
وقصارى القول : أن المجاز العقلى هو « اسناد الفعل أو معناه الى غير ما هو له عند المتكلم فى الظاهر لعلاقة مع قرينة صارفة عن أن يكون الاسناد الى ما هو له » .

علاقة المجاز العقلى :

المجاز العقلى لابد له من علاقة كما أن اللغوى كذلك . وظاهر كلام المصنف أن العلاقة المعتبرة هنا هى الملابسة فقط ، وأنه لا بد منها فى كل مجاز عقلى ، قال الشيخ يسن : لكن يبقى هناك شيء ، وهو أنه هل يكفى فى جميع أفراد هذا المجاز كون العلاقة الملابسة ، أو لا بد أن تبين جهتها ، بأن يقال العلاقة هى ملابسة الفعل لذلك الفاعل المجازى من جهة وقوعه عليه أو فيه او به ، كما قالوا فى المجاز اللغوى : انه لا يكفى أن يجعل اللزوم أو التعلق هو العلاقة بل فرد منهما ، لأن ذلك قدر مشترك بين جميع أفراده ، فلا بد أن يبين أنه من أى وجه ! ؟
والمعتبر عند الزمخشرى تلبس ما أسند اليه الفعل بفاعله الحقيقى ، لأنه قال : المجاز العقلى هو أن يسند الفعل الى شيء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له ، كتلبس التجارة بالمشترين فى « فما ربحت تجارتهم » .. وقال الزمخشرى قبل هذا الكلام : « وقد يسند الى هذه الأشياء على طريق المجاز

المسمى استعارة ، وذلك لمضاهاتها الفاعل فى ملابسة الفعل ، كما يضاهى الرجل الأسد فى جراته فيستعار له اسمه ... وهذا هو رأى السكاكى أيضا . فالملابسة فى المجاز العقلى عنده هى بين الفاعل الحقيقى والفاعل المجازى . وفى كلام عبد القاهر اشارة الى ذلك أيضا (٣٣١ أسرار) ، فالربيع عنده قد شبه بالقادر فى تعلق وجود الانبات به ، فذلك عنده على العرف الجارى بين الناس ، من أن يجعلوا الشيء اذا كان سببا أو كالسبب فى وجود الفعل كأنه فاعل .

فالحاصل أن العلاقة ليست هى الملابسة والتعلق والارتباط بين الفعل والمسند اليه المجازى كما هو ظاهر كلام المصنف ، وكما هو المتبادر من التعريف من قوله « وله – أى الفعل – ملابسات شتى » ، بل هى المشابهة بين المسند اليه الحقيقى والمسند اليه المجازى فى الملابسة أى فى تعلق الفعل بكل منهما وان كانت جهة التعلق مختلفة ، فالمسند اليه المجازى فى « جرى النهر مثلا » وهو النهر يشابه ما هو له ، أى يشابه المسند اليه الحقيقى ، فالماء فى قولك جرى الماء ، فى ملابسة الفعل وهو الجرى ، فالجرى يلابس الماء من جهة قيامه به ، ويلابس النهر من جهة كونه واقعا فيه .

والعلاقة المعتبرة فى هذا المجاز هى المشابهة بين المسند اليه الحقيقى والمسند اليه المجازى فى تعلق الفعل بكل فى صحة اسناده لذلك المجازى ، والعلاقة فى الاستعارة المشابهة بين المعنى المجازى والمعنى الحقيقى لأجل صحة نقل اللفظ من المعنى الحقيقى للمعنى المجازى .

فالعلاقة هى فى المجاز العقلى على التحقيق المشابهة بين الفاعلين : المجازى والحقيقى ، لا الملابسة بين الفعل والمسند اليه المجازى وأن كان ذلك كافيا فى أسناد الفعل اليه .. لأن ملاحظة المشابهة بين الفاعلين أتم وأدخل فى صرف الاسناد الى غير ما هو له ، وأن كفى فيه مجرد الملابسة المذكورة .

وأنواع العلاقة فى المجاز العقلى هى :

١ – المفعولية : فيما بنى للفاعل وأسند الى المفعول به الحقيقى كقولهم ، « عيشة راضية » اذ هى مرضية ، فالاسناد فى المثال مجازى ، وأصله رضى المؤمن عيشته ، فأقيمت عيشة مقام المؤمن فى تعلق الفعل وهو الرضى بكل ، فصار رضيت عيشته ، فاشتق منه اسم الفاعل وأسند الى =

ضمير المفعول وهو عيشة بعد تقديمه وجعله مبتدأ ؛ ثم حذف المضاف اليه اكتفاء بالمبتدأ في مثل « عيشة زيد راضية » ... وقال العدوى : أصله : « عيشة رضيها صاحبها » ، فالرضا كان بحسب الأصل مسندا للفاعل الحقيقى (الصاحب) ثم حذف الفاعل وأسند الرضا الى ضمير العيشة ، وقيل عيشة رضيت ، لما بين الصاحب والعيشة من المشابهة فى تعلق الرضا بكل ، وأن اختلفت جهة التعلق ، فصار ضمير العيشة فاعلا نحويا حقيقا ، ثم اشتق من رضيت راضية ، وأسند الى المفعول ... ومذهب الخليل والبصريين أنه لا مجاز فى هذا التركيب ، بل الراضية بمعنى ذات رضا حتى تكون بمعنى مرضية ، فهو نظير لابن وتأمر ، قال الفنرى ونقله عنه الدسوقى : وهو مشكل بدخول التاء لأن هذا البناء يستوى فيه المذكر والمؤنث ، ويمكن الجواب بجواز جعلها للمبالغة لا للتأنيث، كعلامة ... وقيل راضية بمعنى كاملة .. والشاهد فى « عيشة راضية » اسناد راضية الضمير المستتر الذى هو للعيشة ، وليس الشاهد فى اسناد راضية للعيشة ، لأن الاسناد الى المبتدأ عند المصنف واسطة بين الحقيقة والمجاز ، وكذا يقال فيما بعد هذا المثال من الأمثلة الآتية .

٢ ـ الفاعلية : فيما بنى للمفعول وأسند للفاعل الحقيقى ، كسيل مفعم ، لأن السيل هو الذى يفعم أى يملأ ، فأصله أفعم السيل الوادى أى ملأه ثم بنى أفعم للمفعول واشتق منه اسم المفعول وأسند لضمير الفاعل الحقيقى وهو السيل بعد تقديمه وجعله مبتدأ .

٣ ـ المصدر فيما بنى للفاعل وأسند للمصدر مجازا ، مثل شعر شاعر ، فقد أسند ما هو بمعنى الفعل (وهو شاعر) الى ضمير المصدر ، وحقه أن يسند للفاعل (أى الشخص) لأن الفاعل الحقيقى ، بحيث يقال شعر شاعر صاحبه ، لكن لما كان الشعر شبيها بالفعل من جهة تعلق الفعل بكل منهما صح الاسناد اليه مجازا ، والأولى أن يمثل بنحو جد جده لأن الجد مصدرا أسند اليه فعل الفاعل ، فحق الجد أن يسند للفاعل الحقيقى وهو الشخص لا الى الجد نفسه الذى أسند اليه لمشابهته له فى تعلق الفعل بكل منهما . وانما كان ذلك أولى لأن الشعر الذى هو مصدق الضمير فى شاعر يحتمل أن يكون بمعنى المفعول أى المشعور به لا المصدر الذى هو نفس الشعر فيكون من باب عيشة راضية ، أى يكون من باب

ما هو بتأويل وللفعل ملابسات شتى[1] :

يلابس الفاعل والمفعول به والمصـــدر والزمان والمكان والسبب .
فاسناده الى الفاعل اذا كان مبنيا له حقيقة كما مر ، وكذا الى المفعول

ما بنى للفاعل وأسند للمفعول لا من باب ما بنى للفاعل وأسند للمصدر الذى كلامنا فيه ، بخلاف « جد جده » فانه من ذلك القبيل . وانما قلنا الأولى ولم نقل الصواب . لأن الشعر يحتمل أن يكون باقيا على مصدريته بمعنى تأليف الكلام فيكون من ذلك القبيل .. فالحاصل أن « جد جده » من باب ما بنى للفاعل وأسند للمصدر قطعا ، وأما « شعر شاعر » فيحتمل أن يكون منه أو من باب « عيشة راضية » . وما لا احتمال فيه أولى مما فيه احتمـــال .

٤ ـ الزمانية : فيما بنى للفاعل وأســـند للزمان لمشابهته الفـــاعل الحقيقى فى ملابسة الفعل لكل منهما مثل نهاره صائم .

٥ ـ المكانية : فيما بنى للفاعل وأســـند للمكان لمشابهته الفـــاعل الحقيقى فى ملابسة الفعل لكل منهما مثل نهر جار ، لان المـــاء هو الجارى فى النهر ـ أى الحفرة التى يكون المـــاء فيها ـ .

٦ ـ السببية : فيما بنى للفاعل وأســـند للسبب مجازا ، مثل بنى الأمير المدينة فى السبب الآمر ، لأن السبب نوعان : سبب آمر وسبب غائى أو مآلى ، قال ابن يعقوب : السبب المـــآلى يسند اليه أيضا مجازا مثل يوم يقوم الحساب ، فالقيام فى الحقيقة لأهل الحساب لا لأجله ، فكأن الحساب علة غائية .

هذه هى علاقات المجاز العقلى . وذكر ابن السبكى أن جميع علاقات المجاز اللفظى ينبغى أن تأتى فى العقلى .

(١) لمـــا ذكر فى تعريف الحقيقـــة العقلية « الملابس الذى له » ، وفى تعريف المجاز العقلى « الملابس الذى ليس هو له » ، أخذ يبين التعريفين ببيان الملابس ، فقال « وللفعل ملابسات شتى » ... ويصح فتح « باء الملابسة » وكسرها ، لأن الملابسة مفاعلة من الجانبين ، فكل واحـــد من الفعل وما أسند اليه ملابس (بكسر الباء) وملابس (بفتحها) . الا أن المناســـب لقوله « يلابس الفاعل » أن يقرأ بالفتح ... وقول الخطيب : وللفعل ملابسات شتى ... الخ » هو نص كلام الزمخشرى فى تفســـير قوله تعالى « ختم الله على قلوبهم » ، ومأخوذ منه .

اذا كان مبنيا له ، وقولنا « ما هو له » يشملهما . واسناده الى غيرهما لمضاهاته لما هو له فى ملابسة الفعل مجاز . كقولهم فى المفعول به : « عيشة راضية » و « ماء دافق » ، وفى عكسه « سبيل مفعم » وفى المصدر « شعر شاعر[1] » ، وفى « نهاره صائم » و « ليله قائم » ، وفى المكان « طريق سائر » و « نهر جار » ، وفى السبب « بنى الأمير المدينة » ، وقال :

(فلا تسألينى واسألى عن خليقتى)
اذا رد عافى القدر من يستعيرها[2]

وقولنا بتأول يخرج نحو قول الجاهل : شفى الطبيب المريض ، فان اسناده الشفاء الى الطبيب ليس بتأول . ولهذا لم يحمل نحو قول الشاعر الحماسى[3] .

---

(١) وجد جده . قال تأبط شرا .

اذا المرأ لم يحتل وقد جد جده   أضاع وقاسى امره وهو مدبر

(٢) البيت لعبيد بن الأبرص . وفى السبكى انه لعوف بن الأحوص . وهو من قصيدة رواها صاحب المفضليات لعوف . ونسبه اللسان للمضرس الأسدى . . وعافى فاعل ، والقدر مضاف اليه ، ومن اسم موصول مفعول. وعافى القدر : المرق الذى يتأخر فيها ، وبقاؤه فيها سبب فى رد من يستعيرها ، فأسند بذلك الرد اليه من اسناد الفعل الى سببه .

(٣) هو الصلتان العبدى ، وبعد البيت قرينة تدل على المجاز وارادته وهو قول الشاعر :

فملتنا أننا مسلمون   على دين صديقنا والنبى

فليس هناك فرق بين البيت وكلام أبى النجم الآتى :

ومثال البيت فى ذلك قول أسقف نجران :

منع البقاء تصرف الشمس   وطلوعها من حيث لا تمسى

وحاصل الكلام أنه لابد فى المجاز العقلى من التأول الذى حاصله نصب القرينة الصارفة عن أن يكون الاسناد الى ما هو له .

أشاب الصغير وأفنى الكبير كر الغداة ومر العشى

على المجاز ما لم يعلم أو يظن أن قائلة لم يرد ظاهرة .. كما استدل على أن اسناد (ميز) الى (جذب الليالى) فى قول أبى النجم :

قد أصبحت (أم الخيار) تدعى
على ذنبا كله لم أصنع
من أن رأت رأسى كرأس الأصلع
ميز عنه قنزعا عن قنزع
جذب الليالى أبطئى أو أسرعى[1]

مجاز بقوله عقيبه :

أفناه قيل الله للشمس اطلعى
حتى اذا واراك أفق فارجعى

* * *

وسمى الاسناد فى هذين القسمين من الكلام عقليا لاستناده الى العقل دون الوضع ، لأن اسناد الكلمة الى الكلمة شىء يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة ، فلا يصير ضرب خبرا عن زيد بواضع اللغة بل بمن قصد اثبات الضرب فعلا له ، وانما الذى يعود الى واضع اللغة : أن ضرب لاثبات الضرب لا لاثبات الخروج ، وأنه لاثباته فى زمان ماض وليس لاثباته فى زمان مستقل ، فاما تعيين من ثبت له فانما يتعلق بمن أراد ذلك من المخبرين .. ولو كان لغويا لكان حكمنا بأنه مجاز فى مثل

---

(١) الجذب : الشد . القنزع : الشعر المجتمع فى نواحى الرأس . عن بمعنى بعد . « أبطئى أو أسرعى » جملتان واقعتان حالا من الليالى بتقدير القول أى مقولا فيها ذلك .

قولنا « خط أحسن مما وشى الربيع » من جهة أن الفعل لا يصح الا من الحي القادر حكما بأن اللغة هي التي أوجبت أن يختص الفعل بالحي القادر دون الجماد ، وذلك مما لا يشك في بطلانه .

* * *

● **تعريف السكاكي للحقيقة والمجاز العقليين :**

وقال السكاكي :

الحقيقة العقلية : هي الكلام المفاد به ما عند المتكلم من الحكم فيه[1] .

وانما قلت « ما عند المتكلم » ، دون أن أقوم « ما عند العقل » ليتناول كلام الجاهل اذا قال « شفى الطبيب المريض » ، رائيا شفاء المريض من الطبيب ، حيث عد منه حقيقة مع أنه غير مفيد لما في العقل من الحكم فيه .. وفيه . نظر[2] :

١ ـ لأنه غير مطرد[3] ، لصدقه على ما لم يكن المسند فيه فعلا

---

(١) هو لا يخرج عن كلام عبد القاهر في الحقيقة العقلية : « كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد به على ما هو عليه في العقل وواقع موقعه فهي حقيقة .

(٢) أى فى تعريف السكاكي للحقيقة العقلية .

(٣) التعريف المطرد أي المانع بمعنى انه كلما صدق التعريف صدق المعرف فهو مانع من دخول غير أفراد المعرف فيه .

والتعريف المنعكس أي الجامع بمعنى انه كلما انتفى التعريف انتفى المعرف فهو جامع لأفراد المعرف ، ومثال عدم الجمع تعريف الحيوان بأنه جسم مفكر ، ومثال عدم المانع تعريفه بأنه جسم نام .

وسبب عدم الجمع كون التعريف أخص من المعرف كالمثال ؛ أو مباين له ، كتعريف الانسان بالملك .. وسبب عدم المنع هو كون التعريف أعم من المعرف مطلقا ، فان كان أعم من وجه كان في التعريف عدم الجمع والمنع .

ولا متصــلا به ، كقولنا : الانســان حيوان ، مع أنه لا يسمى حقيقة ولا مجــازا •

٢ ــ ولا منعكس ، لخروج ما يطابق الواقع دون اعتقــاد المتكلم وما لا يطابق شيئا منهما منه ، مع كونهما حقيقتين عقليتين كما سبق •

وقال (السكاكى) :

المجاز العقلى هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل ، افادة للخلاف لا بواسطة وضع ، كقولك : أنبت الربيع البقل ، وشفى الطبيب المريض ، وكسا الخليفة الكعبة •

قال (السكاكى) : وانما قلت « خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه » • دون أن أقول خلاف ما عند العقل :

١ ــ لئلا يمتنع طرده بما اذا قال الدهرى عن اعتقــاد جهــل ، أو جاهل غيره : أنبت الربيع البقــل ، رائيا انبــاته من الربيع ، فانــه لا يسمى كلامه ذلك مجازاً ، وان كان بخلاف العقل فى نفس الأمر ، واحتج (السكاكى) ببيت الحماسة وقول أبى النجم على ما تقــدم •

٢ ــ ثم قال السكاكى : ولئلا يمتنع عكسه بمثل : كسا الخليفــة الكعبة وهزم الأمير الجند ، فليس فى العقل امتناع أن يكسو الخليفة نفسه الكعبة ولا أن يهزم الأمير وحده الجند ، ولا يقدح ذلك فى كونهما من المجــاز العقلى •

وانمــا قلت « لضرب من التأويل » ليحترز به عن الكذب فانــه لا يسمى مجازا مع كونه كلاما مفيدا خلاف ما عند المتكلم •

وانما قلت « افادة للخلاف لا بواســطة وضــع » ليحترز به عن المجاز اللغــوى فى صــورة ، وهى اذا ادعى أن « أنبت » موضــوع لاستعماله فى القادر المختار أو وضع لذلك •

وفيـــه نظر[1] :

١ ـــ لأنا لا نســـلم بطلان طرده بما ذكر ، لخروجه بقوله : لضرب من التأول .

٢ ـــ ولا بطلان عكسه بما ذكر ، اذ المراد بخلاف ما عند العقـــل خلاف ما فى نفس الأمر . وفى كلام الشيخ عبد القاهر اشارة الى ذلك ، حيث عرف الحقيقة العقلية بقوله : « كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه » فان قوله « واقـــع موقعـــه » معناه فى نفس الأمر وهو بيان لمـــا قبلـــه ، وكذا فى كلام الزمخشرى ، حيث عرف المجاز العقلى بقوله : « أن يسند الفعـــل الى شىء يلتبس بالذى هو فى الحقيقة له » ، فان قوله فى الحقيقة معناه فى نفس الأمر . ونحو كســـا الخليفة الكعبة اذا كان الاســـناد فيـــه مجـــازا كذلك .

٣ ـــ ثم القول بأن الفعل موضوع لاستعماله فى القادر ضعيف ، وهو معترف بضعفه ، وقد رده فى كتابه بوجوه ، منها : أن وضع الفعل لاستعماله فى القادر قيد لم ينقل عن واحد من رواة اللغة وترك القيد دليل فى العرف على الاطلاق فقوله : « افادة للخلاف لا بواسطة وضع » لا حاجة اليه ، وان ذكر فينبغى أن لا يذكر الا بعـــد ذكر الحـــد على المذهب المختار ، على أن تمثيله بقول الجـــاهل « أنبت الربيع البقل » ينافى هذا الاحتراز .

تنبيـــه :

قـــد تبين بمـــا ذكرنا أن المســـمى بالحقيقة العقليـــة والمجـــاز العقلى على ما ذكره السكاكى هو الكلام لا الاســـناد ، وهـــذا يوافق

---

(١) اى فى تعريف الســـكاكى للمجاز العقلى .

ظاهر كلام الشيخ عبد القاهر فى مواضع من دلائل الاعجاز ، وعلى ما ذكرناه هو الاسناد لا الكلام ، وهذا ظاهر ما نقله الشيخ أبو عمرو ابن الحاجب[1] رحمه الله عن الشيخ عبد القاهر[2] ، وهو قول الزمخشرى فى الكشاف ، وقول غيره ، وانما اخترناه الآن نسبة المسمى حقيقة أو مجازا الى العقل على هذا لنفسه بلا وساطة شيء ، وعلى الأول لاشتماله على ما ينتسب الى العقل ، أعنى الاسناد .

أقسام المجاز العقلى باعتبار طرفيه : حقيقيتهما ومجازيتهما أو أحدهما :

قال الخطيب :

ثم المجاز العقلى باعتبار طرفيه ــ أعنى المسند والمسند اليه أربعة أقسام لا غير ، لأنهما اما :

١ ــ حقيقتان ، كقولنا أنبت الربيع البقل ، وعليه قوله :

فنام ليلى وتجلى همى

وقوله :

وشيب أيام الفراق مفارق

(وأنشزن نفسى فوق حيث تكون)

وقوله :

(لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى) ونمت وما ليل المطى بنائم[3]

---

(١) امام فى اللغة والنحو توفى عام ٦٤٦ هـ .
(٢) وهو ظاهر كلام عبد القاهر فى الأسرار والدلائل كما فهمته أنا
(٣) لجرير ومثل البيت قول النعمان بن بشير : =

٢ ــ واما مجازان كقولنا « أحيا الأرض شباب الزمان » .

٣ ــ واما مختلفان ، كقولنا : « أنبت البقل شباب الزمان » ، وكقولنا : « أحيا الأرض الربيع » ،وعليه قول الرجل لصاحبه : « أحيتنى رؤيتك » أى آنستنى وسرتنى ، فقد جعل الحاصل بالرؤية من الأنس والمسرة حياة ثم جعل الرؤية فاعلة له ، ومثله قول أبى الطيب :

وتحيى له المال الصوارم والقنا ويقتل ما تحيى التبسم والجدا[1]

جعل الزيادة والوفور حياة للمال ، وتفريقه فى العطاء قتلا له ، ثم أثبت الاحياء فعلا للصوارم ، والقتل فعلا للتبسم ، مع أن الفعل لا يصح منهما . ونحو قولهم : « أهلك الناس الدينار والدرهم » : جعلت الفتنة اهلاكا ، ثم أثبت الاهلاك فعلا للدينار والدرهم .

***

وهو فى القرآن كثير[2] .

كقوله تعالى : « واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » ، نسبت

= ألم تبتدركم يوم بدر سيوفنا وليلك عما ناب قومك نائم

وقول عمرو بن براق :

فلا تأمنن الدهر حرا ظلمته فما ليل مظلوم كريم بنائم

ومثله فى المجاز قول الشاعر :

نهارى بأشرف التلاع موكل وليلى ــ اذا ما جننى الليل ــ آرق

(١) الجدا : العطاء . وراجع تعليق عبد القاهر على البيت فى الأسرار ص ٣٢١ وقد نقل منه الخطيب .

(٢) رد به على مذهب الظاهرية الزاعمين عدم وقوع المجاز العقلى كاللغوى فى القرآن لابهام المجاز الكذب والقرآن منزه عنه . ووجه الرد أنه لا ايهام مع القرينة .

الزيادة التى هى فعل الله الى الآيات لكونها سببا فيها • وكذا قوله تعـالى : « وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أراد لكم » • ومن هذا الضرب قوله : « يذبح أبناءهم » ، الفاعل غيره ونسب الفعل اليه لكونه الآمر به • وكقوله : « ينزع عنهما لباسهما » ، نسب النزع الذى هـو فعـل الله تعالى الى ابليس ، لأن سببه أكل الشجرة ، وسبب أكلهـا وسوسته ومقاسمته اياها : انه لهما لمن الناصحين • وكذا قوله : « ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار » ، نسب الاحلال الذى هو فعل الله الى أكابرهم ، لأن سـببه كفرهم وسبب كفرهم أمر أكابرهم اياهـم بالكفر • وكقوله تعالى : « يوما يجعـل الولدان شيبا » ، نسب الفعل الى الظرف لوقوعه فيه ، كقولهم : « نهاره صائم » • وكقوله تعالى : « وأخرجت أثقالها » •

***

وهو غير مختص بالخبر ، بل يجرى فى الانشـاء ، كقوله تعالى : « يا هامان ابن لى صرحا » ، وقوله : « فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا » ، وقوله : « ولا يخرجنكما من الجنة فتشقى » •

***

● **أنواع القرينـة :**

(قال الخطيب) :

ولابد له ـ أى للمجاز العقلى ـ من قرينة :

(أ) اما لفظية كما سبق فى قول أبى النجم[1] •

---

(١) « أفناه قيل الله للشمس اطلعى » الخ •

(ب) أو غير لفظية (أى معنوية) :

كاستحالة صدور المسند من المسند اليه المذكور أو قيامه به : عقلا كقولك محبتك جاءت بى اليك ، أو عادة كقولك هزم الأمير الجند وكسا الخليفة الكعبة وبنى الوزير القصر ، (لاستحالة ذلك فى العادة). وكصدور الكلام من الموحد فى مثل قوله : « أشاب الصغير » ، البيت[1] .

* * *

واعلم أنه ليس كل شىء يصلح لأن تتعاطى فيه المجاز بسهولة بل تجدك فى كثير من الأمر تحتاج الى أن تهيىء الشىء وتصلحه له بشىء تتوخاه فى النظم ، كقول من يصف جملا :

تجوب لـه الظلمـاء عين كأنها   زجاجة شرب غير ملأى ولا صفر

يريد أنه يهتدى بنور عينه فى الظلماء ويمكنه بها أن يخرقها ويمضى فيها ، ولولاها لكانت الظلماء كالسد الذى لا يجد السائر شيئا يفرجه به ويجعل لنفسه فيه سبيلا ، فلولا أنه قال : تجوب له ، فعلق له بتجوب لما تبين جهة التجوز فى جعل الجوب فعلا للعين كما ينبغى ، لأنه لم يكن حينئذ فى الكلام دليل على أن اهتداء صاحبها فى الظلماء ومضيه فيها بنورها ، وكذلك لو قال تجوب له الظلماء عينه لم يكن لـه هذا الموقع ولا تقطع السلك من حيث كان يعيبه حينئذ أن يصف العين بما وصفها به .

---

(1) القرينة اما لفظية أو غير لفظية وهى المعنوية وتنقسم الى عادية وعقلية ، وذلك مثل :

أ ـ استحالة قيام المسند بالمسند اليه استحالة عادية .

ب ـ أو استحالة قيامه به استحالة ضرورية . أى بدهية .

جـ ـ صدور الكلام الذى فيه الاسناد من الموحد ، وهذا القسم الثالث من المجاز العقلى هو الذى يحتاج الى دليل وتأمل ، أما القسم الأول والثانى فمن المجاز الضرورى البدهى الذى لا يحتاج الى دليل .

واعلم أن الفعل المبنى للفاعل فى المجاز العقلى واجب أن يكون له فاعل فى التقدير اذا أسند اليه صار الاسناد حقيقة[1] لما يشعر بذلك تعريفه كما سبق ، وذلك قد يكون ظاهرا كما فى قوله تعالى :

---

(١) هذا رأى الرازى والسكاكى والخطيب ، وعبد القاهر على خلافه ذلك :

فيرى الخطيب أن الفعل فى المجاز العقلى لابد أن يكون له فاعل اذا أسند اليه يكون الاسناد حقيقة ، ومعرفة ذلك اما ظاهرة كما فى « فما ربحت تجارتهم » وأما خفية لا تظهر الا بمزيد نظر وتأمل كما فى « سرتنى رؤيتك » لكثرة الاسناد الى الفاعل المجازى وترك الاسناد الى الفاعل الحقيقى . . وقد اشترك السعد والسيد فى ابطال ما وجهه الرازى والسكاكى من الشبه فى هذا البحث .

قال الدسوقى : وتحرير النزاع أن المجاز العقلى هل يشترط فى تحققه أن يكون للفعل المسند فيه فاعل محقق فى الخارج أسند له ذلك الفعل قبل المجاز اسنادا حقيقا معتدا به ، بأن يقصد فى العرف والاستعمال اسناد ذلك الفعل لذلك الفاعل ، أو لا يشترط ؟ . فمذهب السكاكى والمصنف اشتراط ذلك لأجل أن ينقل الاسناد من ذلك الفاعل الحقيقى للفاعل المجازى، فالفاعل ليس محققا فى الخارج بل متوهم مفروض ولا يعتد بالاسناد للمتوهم المفروض ، فليس « لسرتنى » ولا « ليزيدك » فاعل فى الاستعمال يكون الاسناد اليه حقيقة ، لعدم وجود تلك الأفعال المتعدية فى الاستعمال ، أى أن المتكلم لم يقصد الاخبار بها بل استعملها فى لازمها ، فانتفاؤها بالنظر الى قصد المتكلم وملاحظته لا بالنظر للواقع ، وكذا « أقدمنى » ، فان الاقدام ليس له فاعل حقيقى واسناد الاقدام فيه للحق مجاز عقلى ، فقد بولغ فى كون الحق له مدخل فى تحقق القدوم ، ففرض اقدام صادر من فاعل متوهم ثم نقل عنه وأسند الى الحق مبالغة فى ملابسته للقدوم ، كما ينقل اسناد الفعل من الفاعل الحقيقى الى الفاعل المجازى مبالغة فى ملابسة الفاعل المجازى للفاعل الحقيقى ، فالمجاز فى الاسناد ، لا فى الفعل ، فالفاعل الحقيقى ليس موجودا محققا فى الخارج بل متوهم مفروض ، ولا يعتد باسناد

« فما ربحت تجارتهم » ، أى فما ربحوا فى تجارتهم ، وقد يكون خفيا لا يظهر الا بعد نظر وتأمل ، كما فى قولك سرتنى رؤيتك أى سرنى الله وقت رؤيتك ، كما تقول : أصل الحكم فى أنبت الربيع البقل أنبت الله البقل وقت الربيع ، وفى شفى الطبيب المريض : شفى الله المريض عند علاج الطبيب ، وكما فى قولك أقدمنى بلدك حق لى على فلان أى أقدمتنى نفسى بلدك لأجل حق لى على فلان أى قدمت لذلك ، ونظيره محبتك جاءت بى اليك ، أى جاءت بى نفسى اليك لمحبتك ، أى جئت لمحبتك .. وانما قلنا ان الحكم فيهما مجاز لأن الفعلين فيهما مسندان الى الداعى والداعى لا يكون فاعلا ، وكما فى قول الشاعر(١) :

وصيرانى هواك وبى ... لحينى يضرب المثل

أى وصيرنى الله لهواك وحالى هذه ، أى أهلكنى الله ابتلاء بسبب هواك ، وكما فى قول الآخر وهو أبو نواس(٢) :

يزيدك وجهه حسنا ... اذا ما زدته نظرا

= الفعل للفاعل المتوهم المفروض ، وكذا يقال فى سرتنى رؤيتك ويزيدك وجهه حسنا : أنه بولغ فى كون الرؤية لها مدخل فى السرور ، والوجه له مدخل فى زيادة العلم بالحسن ، ففرض سرور وازدياد من فاعل متوهم ، ثم نقلا عنه وأسندا للفاعل المجازى وهو الوجه والرؤية للمبالغة فى ملابسة الفاعل المجازى للفعل ، فقول الشيخ عبد القاهر : ليس لهذه الأفعال فاعل ، اى محقق فى الخارج يعتد باسنادها اليه .. هذا وما ذكر من ان الاسناد فى « اقدمنى بلدك حق الخ » من قبيل المجاز العقلى غير متعين ، بل يجوز ان يراد بالاقدام الحمل على القدوم على جهة المجاز المرسل ، فيكون المعنى « حملنى على القدوم حق الخ » .

(١) هو ابن البواب كما فى الدلائل ص ٧٢ ، والكلام على البيت فى ص ٢٢٩ من الدلائل .. وينسب البيت لمحمد اليزيدى .

(٢) فى المطول لابن المعذل ، وهو لأبى نواس كما فى معاهد التنصيص وتجد البيت فى الدلائل ص ٢٢٩ .

أى يزيدك الله حسنا فى وجهه لما أودعه من دقائق الجمال متى تأملت .

***

وأنكر السكاكى وجود المجاز العقلى فى الكلام ، وقال : الذى عندى نظمه فى سلك الاستعارة بالكناية ، بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى[1] بواسطة المبالغة فى التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة كما سيأتى ، وجعل نسبة الانبات اليه قرينة للاستعارة[2] ،

---

(١) وكان عبد القاهر يرد ذلك الرأى فى كلامه فى الأسرار (ص ٢٣١) .

(٢) تفصيل الكلام على راى السكاكى فى رد المجاز العقلى الى الاستعارة المكنية انه بعد أن عرض للمجاز العقلى قال :

« هذا كله تقرير الكلام فى هذا الفصل بحسب رأى الأصحاب من تقسيم المجاز الى لغوى وعقلى ، والا فالذى عندى هو نظم هذا النوع فى سلك الاستعارة بالكناية ، يجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى — وهو القادر المختار أى الله تعالى — بواسطة المبالغة فى التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة كما عرفت ، وجعل نسبة الانبات اليه قرينة للاستعارة ، ويجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم ، وجعل نسبة الهزم اليه قرينة للاستعارة » . فالمجاز كله لغوى أى فى الكلمة لا فى الاسناد (راجع ص ١٦٩ المفتاح) .. والاستعارة بالكناية عنده أن تذكر المشبه وتريد المشبه به بواسطة قرينة ، وهى أن تنسب اليه شيئا من اللوازم العادية للمشبه به مثل أن تشبه المنية بالسبع ثم تفردها وتضيف اليها شيئا من لوازم السبع فتقول مخالب المنية نشبت بفلان .

وما ذهب اليه السكاكى هو حاصل شبهة أوردها عبد القاهر ورد عليها (٢٣١ من الأسرار) ، قال عبد القاهر فى أسلوب « صاغ الربيع الوشى » : فان قيل : أليس الكلام معقودا على تشبيه الربيع بالقادر فى تعلق وجود الصور والنسج به ؟ فالجواب أن هذا التشبيه ليس هو الذى =

يعقد فى الكلام ، انما هو عبارة عن الجهة التى راعاها المتكلم حين أعطى الربيع حكم القادر فى اسناد الفعل اليه ، فقولنا فى تشبيه منقول منطوق به ، وقول المعترض فى تشبيه معقول غير منطوق به الخ .. وقد سار السكاكى على ضوء هذه الشبهة وقال : ليس فى كلام العرب مجاز عقلى الخ . والحامل للسكاكى على هذا الانكار كما يقول هو للاستعارة بالكناية ، ولكن يرد عليه أن ذلك ليس بأولى من العكس .. وقول السكاكى فى الاستعارة بالكناية « هى أن يذكر المشبه الخ » أى هى ذكر المشبه أى هى المشبه المذكور .

وناقش الخطيب رأى السكاكى ، ورده بوجوه منها :

١ ــ أنه يستلزم أن يكون المراد : بعيشة فى قوله تعالى « فهو فى عيشة راضية » صاحب العيشة لا العيشة ، وبماء فى قوله « خلق من ماء دافق » فاعل الدفق ، لما سيأتى من تفسير الاستعارة بالكناية على مذهب السكاكى ، من أن حاصلها أن يشبه الفاعل المجازى المذكور بالفاعل الحقيقى فى تعليق وجود الفعل به ثم يفرد الفاعل المجازى بالذكر ، وينسب اليه شىء من لوازم الفاعل الحقيقى .. توضيح المقام : أنه لا بد فى الاسناد من مستعار منه ومستعار له ومستعار ، ففى أنشبت المنية أظفارها بفلان المستعار منه معنى السبع وهو الحيوان المفترس ، والمستعار لفظ السبع ، والمستعار له معنى المنية ، ومعنى قولهم بالكناية انك كنيت عن المستعار بشىء من لوازم معناه (أى الأظفار) ولم تصرح به ، وهذا على طريق الجمهور ، فيجعلون مدلول لفظ استعارة بالكناية المستعار أعنى اللفظ الدال على المشبه به المضمر ، والسكاكى يجعل مدلوله اللفظ الدال على المشبه فيقال عنده فى تقريرها : شبهت : المنية بالسبع وادعينا أنها فرد من أفراده ، ثم أوردنا اللفظ الدال على المشبه مرادا منه المشبه به بواسطة قرينة دالة على ذلك (كلفظ الأظفار) ، وأما على طريق المصنف فمدلوله نفس التشبيه المضمر فى النفس فتسمية التشبيه استعارة بالكناية .... وقول السكاكى فى « أنبت الربيع البقل » : « أن الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى بواسطة المبالغة فى التشبيه ــ أى بادخال المشبه فى جنس المشبه به وجعله فردا من أفراده ادعاء ، ونسبة الانبات الى الربيع قرينة الاستعارة ــ يرد عليه أن هذا مخالف لما اشتهر من أن قرينة الاستعارة بالكناية عند السكاكى هى اثبات الصورة الوهمية المسماة

* * * * * * * * * * * *

= بالاستعارة التخييلية ، فيجب أن يؤول على أن المراد « وجعل نسبة ما هو على الاستعارة بالكناية غير الكائنة في المجاز العقلى ، وأما الواقعة فيه فنسبة شبيه بالانبات اليه قرينة » .. وأجيب : بأن ما اشتهر عنه محمول على الاستعارة بالكناية غير الكائنة فى المجاز العقلى وأما الواقعة فيه فالقرينة فيه قد تكون أمرا محققا ، فما اشتهر عنه كلى ، ويدل على ذلك أنه نفسه صرح في بحث المجاز العقلى بأن القرينة قد تكون أمرا محققا كما فى أنبت الربيع البقل . وقول السكاكى : المكنية « هى أن تذكر المشبه وتريد المشبه به بواسطة قرينة ، وهى أن تنسب اليه شيئا من اللوازم المساوية للمشبه به » ، يريد « بالمساوية » التى تصدق حيث صدق وتكذب حيث كذب .

٢ ـ ويستلزم أن لا تصح الاضافة فى نحو قولهم : فلان نهاره صائم وليله قائم ، أى لان المراد بالنهار على هذا فلان نفسه ، واضافة الشىء الى نفسه لا تصح ، فكل تركيب أضيف فيه الفاعل المجازى الى الفاعل الحقيقى كما فى المثالين السابقين تكون ـ على هذا ـ الاضافة فيه غير صحيحة ، لبطلان اضافة الشىء الى نفسه اللازمة من كلامه ، لأن المراد بالنهار حينئذ فلان نفسه ، ولا شك فى صحة هذه الاضافة ووقوعها ، قال تعالى : فما ربحت تجارتهم ، قال الشاعر : فنام ليلى وتجلى همى ، وهذان المثالان اظهر ، لان « نهاره صائم » يمكن المناقشة فيه بأن الاستعارة انما هى فى ضميره المستتر لا فى « نهاره » على الاستخدام المعروف في علم البديع . لكن المناقشة فى المثال ليست من أدب العلماء ـ قال الدسوقى فى « نهاره صائم » : اضافة الشىء الى نفسه انما توجد اذا كان المراد « بالنهار » وضمير « صائم » واحدا ، وأما اذا ارتكب الاستخدام وجعل الضمير فى « صائم » راجعا الى النهار ، لا بالمعنى الأول وهو الزمان ، بل بمعنى الشخص ، فلا يلزم اضافة الشىء الى نفسه ، لأن الاستعارة انما هى فى الضمير المستتر فى صائم لا فى نهاره .

٣ ـ وان لا يكون الا بالايقاد على الطين فى احدى الآيتين بالبناء فيهما لهامان مع أن النداء له فيكون الأمر له أيضا فلا يجوز تعدد المخاطب فى كلام واحد أو جمعه أو عطفه .

قال الدسوقى : قيل أن هذا الالزام انما يتوجه على السكاكى اذا كان المسند مستعملا فى معناه الحقيقى ، وله أن يمنع ذلك مدعيا أن معنى « ابن » هو أمر بالبناء « وأوقد لى ياهامان » هو أمر بالايقاد ، فصح أن =

• • • • • • • • • • • •

ـــ النداء له والخطاب معه .. وفيه أن هذا خروج عما نحن بصدده ، لانه حينئذ يكون المجاز فى الظرف ، فيخرج عن المجاز العقلى كما يقول المصنف وغيره وعن الاستعارة بالكناية كما يقول السكاكى .

وقال ابن السبكى : آن آلزام الخطيب للسكاكى بنحو « ابن لى صرحا » بأن لا يكون الأمر بالبناء لهامان مع ان النداء له ؛ جوابه : ان المأمور بالبناء آلبانى بنفسه بعد آعتقاد دخول هامان نفسه فى زمرة من يبنى بنفسه مجازا .

٤ ــ ويستلزم أن يتوقف جواز التركيب فى نحو قولهم : انبت الربيع البقل وسرتنى رؤيتك على الاذن آلشرعى لأن آسماء الله تعالى توقيفية .

قال ابن يعقوب : ان ما ذهب اليه السكاكى يستلزم ايضا أن يتوقف استعمال نحو « أنبت الربيع البقل » و « شفى آلطبيب المريض » و « سرتنى رؤيتك » و يزيدك وجهه حسنا » ــ وكل ما كان مثل هذا الاستعمال ــ على سماعه من الشارع ، لان أسماء الله توقيفية ، فلا يطلق عليه تعالى اسم لا حقيقة ولا مجاز ما لم يرد اذن من آلشارع كالرحمن فانه مجاز بخلاف ما لم يسم به الله نفسه فى الكتاب ولا فى السنة سواء كان مجازا أو حقيقة ، ولم يرد اطلاق الربيع والطبيب والرؤية على الله تعالى . لكن توقف مثل هذا الاستعمال على السماع غير صحيح ، لانه شاع آستعماله حتى كاد أن يكون آجماعا سكوتيا ، فشيوعه يدل على أن المراد بالربيع غير الله . ولا يجاب عن هذا الالزام بأن مذهب السكاكى أن آسماءه تعالى غير توقيفية ، لأن الرد عليه ليس باستعماله هو بل باستعمال غيره ممن يذهب الى غير ذلك مع عدم انكار غيره ، فصار استعمالا صحيحا ، ولو كان كما ذكر السكاكى لتركه من يراها توقيفية أو لأنكر عليه .

ملاحظة :

المجاز العقلى له معنيان : آسناد آلفعل أو ما فى معنى الفعل الى ما ليس الاسناد له بعلاقة ، مع قرينة ــ والمجاز الذى سببه التصرف فى أمور عقلية أى غير لفظية كجعل الفرد آلغير آلمتعارف من آفراد المعنى المتعارف للفظ مثل جعل الشجاع فردا من أفراد الحيوان المفترس فتنقل آسمه اليه قائلا : « رأيت أسدا » أى رجلا شجاعا شبيها بالأسد . والمعنى الأول هو المراد هنا فى هذا الباب .

ويجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم وجعل نسبة الهزم اليه قرينة للاستعارة .

وفيما ذهب اليه (السكاكى) نظر :

١ — لأنه يستلزم أن يكون المراد بعيشة فى قوله تعالى « فهو فى عيشة راضية صاحب العيشة لا العيشة ، وبماء فى قوله : خلق من ماء دافق فاعل . فاعل الدفق لا المنى ، لما سيأتى من تفسيره للاستعارة بالكناية .

٢ — وأن لا تصح الاضافة فى نحو قولهم : فلان نهاره صائم وليله قائم . لأن المراد بالنهار على هذا فلان نفسه واضافة الشىء الى نفسه لا تصح .

٣ — وأن لا يكون الأمر بالايقاد على الطين فى احدى الآيتين وبالبناء فيهما لهامان ، مع أن النداء له .

٤ — وأن يتوقف جواز التركيب فى نحو قولهم : أنبت الربيع البقل ، وسرتنى رؤيتك على الاذن الشرعى ، لأن أسماء الله تعالى توقيفية ، وكل ذلك منتف ظاهر الانتفاء .

٥ — ثم ما ذكره منقوض بنحو قولهم : « فلان نهاره صائم » فان الاسناد فيه مجاز ، ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان ، لأن ذكر طرفى التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة ويوجب حمله على التشبيه ، ولهذا عد نحو قولهم « رأيت بفلان أسدا ، ولقينى منه أسد » تشبيها لا استعارة ، كما صرح السكاكى أيضا بذلك فى كتابه .

● تنبيـــه :

انا لم نورد الكلام فى الحقيقة والمجاز العقليين فى علم البيـان كما فعل السـكاكى ومن تبعه ، لدخوله فى تعريف علم المعـانى دون تعريف علم البيـان .

* * *

البحث البلاغي عن أسلوب المجاز العقلي وأطواره(١)

● سيبويه وهل أثبت المجاز العقلي ؟ :

قال صاحب الكتاب : مطر قومك الليل والنهار على الظرف ، وان شئت رفعته على سعة الكلام ، كما يقال صيد عليه الليل والنهار ، كما قال جرير :

ونمت وما ليل المطى بنائم

فكأنه في كل هذا جعل الليل بعض الاسم ، وكما قال الشاعر :
أما النهار ففى قيد وسلسلة والليل فى قعر منحوت من الساج

فكأنه جعل النهار فى قيد والليل في جوف منحوت (راجع ٨٠/١ سيبويه فى : باب من الفعل يبدل فيه الآخر من الأول ويجرى الاسم كما يجرى أجمعون على الاسم ينصب بالفعل لأنه مفعول) •

وقال : تقول سرقت الليلة أهل الدار فتجرى الليلة فى سعة الكلام ، ومثل ما أجرى مجرى هذا فى سعة الكلام والاستخفاف : « بل مكر الليل والنهار » فالليل والنهار لا يمكران ولكن المكر فيهما (٨٩/١ الكتاب لسيبويه) •

وقال : باب استعمال الفعل فى اللفظ لا فى المعنى لاتساعهم فى الكلام وللايجاز والاختصار : فمن ذلك أن تقول : صيد عليه يومان أى صيد عليه الوحش في يومين ولكنه اتسع واختصر ، ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار • واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى

---

(١) هذه البحوث بقلم محمد عبد المنعم خفاجى .

أقبلنا فيهـا ، انما يريد أهـل القرية فاختصر وعمل الفعل فى القرية كما كان عاملا فى الأهل لو كان ها هنا ، ومثله بل مكر الليـل والنهار المعنى مكركم فى الليل والنهار ، وقال تعالى ولكن البر من آمن بالله ، أى بر من آمن بالله ، وهذا أكثر من أن يحصى ، وقال الجعدى :

وكيف تواصـل من أصبحت خلالتـــه كأبى مرحب

(راجع ١٠٨ ـ ١/١١٠ من الكتاب) .

هذا بعض ما ذكره سيبويه فى كتابه عن المجاز العقلى[1] . وهو يرشـدنا الى رأى شـيخ العربية فى مثل هذا الأسلوب .. وبالامعان فيما نقلنـاه ها هنا عن سـيبويه ندرك أنه يحمـل هذه الأسـاليب وما شابهها ـ مما حمله المتأخرون على المجاز فى الكلام أى على المجاز العقلى ـ يحملها على السعة فى الكلام بالايجاز والحذف والاختصار ، وأصلها على تقدير المضاف ، وبهـذا التقدير تخرج هذه الأساليب عند سـيبويه عن معنى المجاز الذى نفهمه من كلام المتأخرين ... فالمجاز العقلى محمول عنده على السعة فى الكلام وحذف مضاف .

وسيأتى نبسط رأى عبد القاهر فى ذلك ودفاعه عن أسلوب المجاز العقلى ورده على من يرى أنه محمول على السـعة والحذف من علماء العربية كسيبويه ومن نهج نهجه فى فهم وتحليل هذا الأسلوب .

---

(1) وفى ص ١٦٩ ج ١ من الكتاب يقول سيبويه :
وأن شئت رفعت (فقلت ولا اناعى) فجاز على سـعة الكلام ، من ذلك قول الخنسـاء :
ترتع ما رتعت حتى اذا ادكرت فانما هى اقبـال وادبـار
فجعلها الاقبال والادبار فجاز على سـعة الكلام كقولك : نهارك صائم وليلك قائم .. ولكنه جاز على السعة فاستخفوا واختصروا ، والسيرافى والشنتمرى يجعلانه على تقدير مضاف أو تأويل المصـدر باسم الفاعل .
وهذا بيـان لمعنى السعة الذى يقصده صاحب الكتاب .

● المبرد واسلوب المجاز العقلى :

وقال صاحب الكامل : « ليلة مزؤودة » أى ذات زؤد وهو الفزع وجعل الليلة ذات فزع لأنها يفزع فيهـا ، قال تعالى : بل مكر الليـل والنهار أى مكركم فى الليـل والنهار ، وقال جرير : ونمت وما ليل المطى بنائم . وقال آخر : فنام ليلى وتجلى همى . (١/٦٥ كامل النسخة القديمـة) .

وقال : العـرب تقـول نهارك صـائم وليلك قائم أى أنت قائم وصـائم ، كما قال تعالى : بل مكر الليل والنهار أى فى الليل والنهار ، وقال : ونمت وما ليل المطى بنائم (١/١٠٤ كامل المبرد) .

وقال : « وأما خلة فثمانى » ، سماها بالمصدر مثل فانما هى اقبال وادبار ، نعتها بالمصدر لكثرته منها ، ويجوز أن يكون أراد ذات خلة ، ومثله : ولكن البر من آمن بالله (١٣٧ جـ ١ كامل المبرد الطبعة القديمة).

وقال : « ويمسى ليله غير نائم » أى فى ليله ، جعل الفعل لليـل على السـعة مثل فانما هى اقبال وادبار ، وفى القرآن بل مكر الليـل والنهار (٢٤٨ جـ ٢ كامل المبرد طبعة التجارية) .

ذلك ما فى كامل المبرد من كلام وتحليل لبعض الأسـاليب التى جعلها المتأخرون من أسلوب المجاز العقلى .

والمبرد فى تحليل هذه الأساليب يجمع بين رأى سيبويه السـابق ورأى آخر جديد هو المبالغة ، والمبالغة من خصائص المجاز كما نعلم — فيقول فى « فانما هى اقبـال وادبار » نعتها بالمصـدر لكثرته منهـا (١٣٧ جـ ١ كامل) ، فهو اذاً يجوز فى أسـلوب « فانما هى اقبـال وادبار » — وما يشابهه مثله طبعا — أن يكون على المبالغة كمـا يقول عبد القاهر أى على المجاز ، أو على الحذف كما يقول سيبويه ، واذا هو

لم يذهب الى مذهب سيبويه وحده ، وقد يكون المبرد قد أراد من المبالغة التشبيه البليغ ، هى اقبال ، أى شبيهة به • ولكن ذلك بعيد عن الأسلوب وعن مراد المبرد منه كما يخيل لى •

وفى رسالة أخرى للمبرد هى « ما اتفق لفظه واختلف معناه فى القرآن » يقول المبرد :

وفى القرآن مختصرات ، فان مجاز كلام العرب يحذف كثيرا من الكلام اذا كان فيما يبقى دليل على ما يلقى ، فمن ذلك : واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها ، لما كانت القرية والعير لا يسألان ولا يجيبان علم أن المطلوب غيرهما (ص ٣٦) ، ولا يجوز على هذا جاء زيد وأنت تريد غلامه لأن المجىء يكون له ولا دليل فى مثل هذا على المحذوف • ومثل الأول : ولكن البر من آمن بالله ، أى بر من آمن بالله لأن البر لا يكون البار • ونظيره قول الجعدى : آ •• أصبحت خلالته كأبى مرحب) أى كخلالة أبى مرحب (٣٢ و ٣٣) •

ومن المختصر فى القرآن قوله تعالى : ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع • تأويله مثلكم ومثلهم كمثل الناعق بما لا يسمع فاختصر وحذف ، كقول النابغة : كأنك من جمال بنى أقيش ، أى جمل من جمال (٣٥) •• والمبرد فى ذلك تابع لسيبويه ناقل عنه ، ورأيه عندى صحيح •

ابن المدبر والمجاز العقلى :

يرى ابن المدبر أن أسلوب « بل مكر الليل والنهار » من الحذف والاتساع ، وأن الكتاب ينبغى أن يتجنبوه • (راجع ص ١٨ الرسالة العذراء لابن المدبر نشر الدكتور مبارك) •

● **نقـد النثر والمجـاز العقلى :**

وكذلك كتاب « نقد النثر » ضئيل الصلة بالمجاز العقلى . قال :
ومن الاستعارة انطاق ما لا ينطق مثل « فوجد فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه » ومثل : امتلأ الحوض وقال قطنى — وذكر أيضـا المثال : فللموت ما تلد الوالدة (٦٦ نقد النثر) .. ومن المعلوم أن كلامه فى هـذا قليل جدا من ناحية البحث البيانى وهو متأثر بخطابة أرسطو ، حامل لهذه المثل على الاستعارة ، كما صنع عبد القاهر بعد .

● **الآمدى وسلوب المجـاز العقلى :**

قال الآمدى فى موازنته : المصادر قد تجعل أوصافا فى مكان أسماء الفاعلين وانما تكون أوصافا على وجه من الوجوه وطريقة من اللفظ ، وهى قولهم انما زيد دهره أكل ونوم وانما عمرو أبدا قيام وقعود . فتقيم المضاف اليه مقام المضاف لأنه يدل عليه أو تجعل زيدا نفسـه الأكل والنوم وعمرا القيام والقعود على المبالغـة لأن ذلك كثير منهما كما قالت : « فانما هى اقبـال وادبار » ، فجعلت الناقة هى الاقبـال والادبار لأن ذلك كثير منها ، وان شئت كان المعنى ذات اقبـال وادبار فأقمت المضاف اليه مقام المضاف فهذه طريقة الوصف بالمصـادر على ما ذكرته ، فيقال هنـد الحسن كله ودعد الجمال أجمعه وزيد الهرم أقصاه وعبد الله التيه بعينه : ان شئت كان المعنى هند صاحبة الحسن كله ودعد ذات الجمال أجمعه وزيد أخـو الهرم وعبـد الله ذو التيه فأقمت المضـاف اليه مقام المضـاف مثل واسأل القرية ، وان شـئت جعلت هنـدا هى الحسن ودعدا هى الجمال على المبـالغة لمـا كانتا متناهيتين فى هذين الوصفين (٧٦ الموازنة طبعة صبيح) .

ورأى صاحب الموازنة قد حلله أتم تحليل وان كان لا يخـرج عن رأى المبرد فى كثير ولا قليل .. فان هذه الأساليب كلها بعيدة عن

المجاز العقلى انما هى على الحذف والاختصار ، أما ما ذكره فى الكامل من الأساليب من مثل : نهارك صائم وليلك قائم فقد حملهما على المبالغة أو على الحذف كما سبق : وسـيبويه يحملها كلها على الحذف •

ومن تتمه الفائدة أن ننقل هذا النص عن المبرد وان لم يكن وثيق الصـلة بالمجاز العقـلى ، قال المبـرد : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ـــ انما نملى لهم ليزدادوا اثما » مجاز مصـيره الى ذا كقوله تعـالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » وهم لا يلتقطونه مقدرين فيه ذلك ولكن تقديره : فكان مصيره الى عداواتهم وحزنهم ، ومثله : ودورهم بخراب الموت نبنيها ، أى الى هذا تصير ، ومثل قول ابن الزبعرى فللموت ما تلد الوالدة ، أى أن هذا مصيرهم (٢٦ ـــ ٢٨ ما اتفق لفظه للمبرد) •

● **خطابة رأسطو والمجـاز العقلى :**

وقد ترجمت فى القرن الثالث الهجرى ولم يتأثر بها أئمة البيـان كثيرا فى فهم هـــذا الأسلوب ، وانما كان جل تأثرهم بآراء علماء العربية كسيبويه والمبرد وابن فارس ، وليس فيها الا كلام قريب الصلة بالمجاز العقلى : قال :

« ومن التغيرات الاستعارية اللذيذة أن ينسب الأمر الى صـفة الفاعل مثل الشيخوخة تفعل الخير بدل الشيخ » •• وقال : ومن أنواع الاستعارة اللفظية أن تجعل أفعال الأشياء غير المتنفسة كأفعال ذوات الأنفس مثل الغضب لجوج (راجع باب العبـارة فى فن الخطابة فى الشـفاء لابن سينا) •

فهو ها هنا يجعل هذه الأساليب استعارة فقط ، لا حذفا كما ذهب اليه سـيبويه ، وصنيع الخطابة فى هذا هو صنيع عبد القاهر ، فقـد جعل ما شـابه هذه الأساليب مجازا عقليا ورد أن تكون من الحذف سـبيل •

● ابن فارس وأسلوب المجـاز العقلى :

قال ابن فارس : ومن اللامات لام العاقبة : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » لم يلتقطوه لذلك ولكن صارت العاقبة ذلك (٨٧ الصاحبى لابن فارس) •

وقال : ومن سنن العرب الحذف والاختصـار ، ومنه « واسـأل القرية » اراد أهلها ، وبنو فلان يطؤهم الطريق أى أهله ، ومنه نطأ السـماء أى مطرها ، وعلى خوف من فرعون ، « اذن لأذقناكم ضعف الحياة » أى ضعف عذابها (١٧٥ الصاحبى) •

وقال : ومن سنن العرب اضـافة الفعل الى ما ليس فاعلا فى الحقيقة مثل جدارا يريد أن ينقض وهو فى شـعر العرب كثير (١٧٩ و ١٨٠ الصاحبى) •

وقال : باب المفعول يأتى بلفظ الفاعل ، تقول سر كاتم أى مكتوم ، وفى القرآن لا عاصم اليوم من أمر الله أى لا معصوم ، ومن ماء دافق ، وعيشـة راضية أى مرضى بها ، وحرما آمنا أى مأمونا فيه •• قيـل ويأتى الفاعل بلفظ المفعول به كقوله : انه كان وعده مأتيا • أى آتيا (١٨٧ و ١٨٨ الصاحبى) •

وقال : ومن سـنن العرب وصف الشيء بما يقع أو يكون منه كقولهم يوم عاصف أى عاصف الريح ، لأن عصوف ريحه يكون فيه ، ومثله ليل نائم ، وليل ساهر لأنه ينام فيه ويسهر ، قال أوس : خذلت على ليلة سـاهرة ، وقال عمرو بن براق : « وليلك من ليل الصعاليك نائم » • ومثـله ، « وما ليل المطى بنائم » • ويقولون : لا يرقـد وساده يريدون متوسد الوساد (١٨٨ الصاحبى) •• وقال : ومن سنن العرب التوهم والايهام وهو أن يتوهم أحدهم شيئا ثم يجعله كالحق كمساءلة الرسـوم (١٩٢) •• وقال : ومن سنن العرب الاضمار :

اضمار الأسماء ، واضمار الأفعال ، واضمار الحروف (١٩٦ — ١٩٨ الصاحبى) — والعرب تضمر الفعل فيشتبه المعنى حتى يعتبر فيوقف على المراد مثل « فانى لا الام على دخول » أى على ترك دخول ، وقال الأعشى : أأزمعت من آل ليلى ابتكارا ، أى من أجل آل ليلى (ص ١٩٨ و ١٩٩) •• وقال : باب اضافة الشيء الى ما ليس له مثل سرج الفرس وثمرة الشجرة وغنم الراعى (ص ٢٠٥) • وقال : باب اقتصارهم على ذكر بعض الشيء • وهم يريدون كله ومنه : ويبقى وجه ربك الخ • (٢١٢ و ٢١٣) •

وبالتأمل فيما ذكره ابن فارس فى الصاحبى نجده يفرق بين باب الحذف وباب المبالغة والمجاز ، فيذكر مثل الحذف ويجعلها من الحذف ، ويذكر مثل المبالغة كليل نائم ويجعلها من وصف الشيء بما يقع فيه أو يكون منه •

وابن فارس فى هذا جد دقيق متحر للصواب فيما يرى ويقول •

● ابن الأثير والمجاز العقلى :

كذلك لم يعرض ابن الأثير فى المثل السائر للمجاز العقلى ، وانما جعل المجاز ثلاثة أقسام : توسع فى الكلام وتشبيه واستعارة :

فالتوسع يكون العدول فيه عن الحقيقة الى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول اليه لطلب التوسع فى الكلام ، وهو ضربان :

١ — ما يرد على وجه الاضافة واستعماله قبيح ، لبعد ما بين المضاف والمضاف اليه ، وذلك لأنه يلتحق بالتشبيه المضمر الأداة ، واذا ورد التشبيه ولا مناسبة بين الطرفين ، كان ذلك قبيحا مثل بح صوت المال وماء الملام •

٢ ـ ما يرد على غير وجـه الاضافة ، وهو حسن لا عيب فيـه مثل : قالتا أتينا طائعين ، فنسبة القول الى السماء من باب التوسع ، لأنهما جماد لا ينطق ، وعلى هذا ورد مخاطبة الطلول ... وهذا النوع الثانى قريب من أسلوب المجاز العقلى ، وابن الأثير يعده من التوسع الذى هو قسم من أقسام المجاز .

● عبد القـاهر والمجـاز العقلى :

ليس عبد القاهر أول من تكلم على أسلوب المجاز العقلى ، فقـد تقدمه كثير من العلمـاء : كسيبويه والمبرد والآمدى وابن فارس .. وفى هـذا ما يبطل الرأى القائل بأن المجاز الحكمى ـ العقلى ـ من ابتداع عبد القاهر وحده ، وهو رأى ذهب اليه الدكتور طه حسـين فى مقدمته لكتاب نقد النثر .

وبلاغه المجاز العقلى كما فهمها عبد القاهر سيق الى بيانها باختصار وفى خفية المبرد والآمدى .

وجملة ما ذكره عبد القاهر فى كتابيه الأسرار والدلائل عن المجاز العقلى .. هى :

١ ـ اثبـات وجود المجاز العقلى وبيـان سر الفروق بينه وبين المجاز فى الكلمة .

٢ ـ بيـان أن المجاز فى الاثبات عقلى وفى الكلمة المثبتة لغوى .

٣ ـ بيـان حد هذين النوعين من المجاز (المجاز الحكمى والمجاز فى المفرد) .

٤ ـ بيـان القرينة على التجوز فى المجاز العقلى والفرق بينه وبين الأحاديث الكاذبة .

٥ — الكلام على بلاغة المجاز العقلى ودرجاته في البلاغة — من العامية والخاصية — وأن تقدير الحقيقة في الاسناد المجازى قد لا يتأتى في الأسلوب ، وتوضيح سر دقة الأساليب الخاصية في المجاز العقلى ، وتأويل نظرية علماء النحو التى يذهبون فيها الى أن أسلوب المجاز الحكمى على تقدير مضاف ، والدفاع عن بلاغة المجاز الحكمى التى يهيضها مثل هذا التقدير الحائف والتأويل البعيد .

وهذه الآراء مبسوطة في كتابى « عبد القاهر ، والبلاغة العربية » بسطا وافيا ، فليرجع اليها من أراد .

● **الراغب الأصفهانى والمجاز العقلى :**

أكثر الأسباب التى يحتاج الفعل اليها في وجوده كما يقول الراغب عشرة : فاعل يصدر عنه كالنجار وعنصر يعمل فيه كالخشب وعمل كالنجر ، وزمان ومكان يعمل فيهما ، وآلة يعمل بها كالمنجر ، وغرض قريب كاتخاذ النجار ، وغرض بعيد كتحصين البيت به ، ومثال يعمل عليه ويقتدى به ، ومرشد يرشده .. وكل قد ينسب اليه الفعل فيقال أعطانى زيد اذا باشر الاعطاء ، وأعطانى الله لما كان هو الميسر له وربما جمع بين السببين : البعيد والقريب فيقال : أعطانى الله وزيد ، قال الشاعر :

حبانا به جدنا والاله وضرب لنا أخذم صارم

فنسب الى الأول وهو الله والى السبب المتأخر وهو الضرب والى المتوسط وهو الجد ... وقال : الله يتوفى الأنفس حين موتها ، فأسند الى الآمر به ، قل يتوفاكم ملك الموت ، فأسند الى المباشر له ، وقال الشاعر : وألبسنيه الهالكى ... وقال : كساهم محرق[1] . فنسب

---

(١) للحصين المرى (راجع ص ١٩ من المفضليات) .

الفعل الى عاملها وفى الثانى الى مستعملها ، وقال فى صفة نبال : كستها ريشها مضرحية . فنسب كسوتها الى الطائر الذى أخذ ريشه فجعل لها : وقيل يداك أوكتا وفوك نفخ ، فنسب الفعل الى الآلة المتصلة .

ويقال سيف قاطع فنسب الى الآلة المنفصلة . وقيل ضرب قاطع وطعن جائف فنسب الى الحدث . وسر كاتم وعيشة راضية ، فنسب الى المفعول . وقال تعالى : حرما آمنا . فنسب الى المكان . وقيل يوم صائم وليل ساهر ، وما ليل المطى بنائم ، فنسب الى الزمان .. ولما كانت أفعالنا على ذلك صح فى الفعل الواحد أن ينسب الى أحد الأسباب مرة وينفى عنه مرة بنظرين مختلفين . وقال :

أعطيت من لم تعطه ولو انقضى   حسن اللقاء حرمت من لم تحرم

فأثبت له الفعل ونفاه عنه بنظرين مختلفين .. وهذا فصل من تأمله لم يعتمد فى تثبيت المعانى على مثلها من الألفاظ فينظر من اللفظ الى المعنى ، بل ينظر فى مثل هذا من المعنى الى اللفظ . ومن أجل هذا قال قوم من المحصلين لا فاعل فى الحقيقة لأى شىء من الأفعال الا الله تعالى فان فعله يستغنى عن الزمان والمكان والمادة ، ومن عداه من الفاعلين فان له من كل ذلك أو بعضه ، ولهذا لا يصح أن ينسب الابداع الى غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازا ويصح أن ينسب فعل الله تعالى الى كل ما تقدم ذكره (١٨٠ - ١٨٢ الذريعة الى مكارم الشريعة) .

وبهذا نرى أن الراغب ينفى المجاز العقلى كافة ، ولكن فى نظرى أنه انما ينظر الى المعانى كما قال فى آخر كلمته ، ويوجه الألفاظ فى دلالتها الى ما تقتضيه المعانى ، ولا ينظر الى النظم والأسلوب وكيفية أدائه للمعنى من حقيقة أو مجاز ، فهو عن هذا فى واد بعيد ، وشغل شاغل .

● **صاحب المصباح(١) وأسلوب المجاز العقلي :**

وقد تأثر بدر الدين في كتابه في بحث المجاز العقلي بالسكاكي : قال : المجاز العقلي هو الكلام المزال اسناده عما هو له عند المتكلم الى غيره بضرب من التأويل والمراد بما الاسناد له عند المتكلم ما يعتقد قيام الفعل به أو صدوره عنه ، ولم أقل بغير العقل لأنا لم نرهم يحملون نحو « أشاب الصغير البيت » على المجاز ما لم يعلموا أو يظنوا صدوره عن غير جهل ، أو ما ترى كيف استدلوا على أن اسناد « ميز » الى الجذب في قوله :

ميز عنه قنزعا عن قنزع جذب الليالي أبطئي أو أسرعي

مجاز بأن أتبعه قوله : « أفناه قيل الله الخ » الشاهد لنزاهته أنه يريد الظاهر ، وقولي بضرب من التأويل مخرج للكذب . وسمى هذا الضرب مجازا عقليا لتعدى الحكم فيه عن مكانه الأصلي من غير تغيير للوضع . ومن شرط هذا المجاز أن يكون للمسند اليه شبه بالمتروك في تعلقه بالعامل (٦٩ و ٧٠ المصباح) .

فهو يثبت المجاز العقلي ويفسره ويبين شروطه ويفرق بينه وبين الكذب .

● **حسن التوسل في صناعة الترسل » والمجاز العقلي :**

وهذا الكتاب متأثر في بحث أسلوب المجاز العقلي بعبد القاهر ، قال : المجاز مفعل من جاز يجوز اذا تعداه . فاذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز بمعنى أنهم قد جاوزوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولا لأنه ليس بموضع أصلي لهذا

---

(١) هو بدر الدين بن ملك المتوفى عام ٦٤٩ هـ .

اللفظ ولكنه مجازه ومتعداه يقع فيه كالواقف بمكان غيره ثم يتعداه الى مكانه الأصلى[1] .. وحدهما ـ الحقيقة والمجـاز ـ فى المفرد : أن كل كلمة أريد بهـا ما وضعت له فهى حقيقة (١١٧ المرجع المذكور) كالأسد للحيوان واليد للجارحة ، وان اريد بها غيره لمناسبة بينهما فهى مجـاز كالأسد للشجاع واليد للنعمة أو القوة ، وحـدهما فى الجمله : أن كل جملة كان الحكم الذى دلت عليه كما هو فى العقل فهى حقيقة مثل خلق الله الخلق ، وكل جملة أخرجت الحكم المفـاد بها عن موضعه فى العقل لضرب من التأول فهى مجاز ، كما اذا أضيف الفعل الى شىء يضـاهى الفاعل كالمفعول به فى عشية راضية ، أو المصـدر فى شـعر شـاعر . أو الزمان فى ليله نائم ، أو المكان فى طريق سـائر ، أو المسبب فى بنى الأمير المدينـة ، أو السبب فى واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ، فمجاز المفرد لغوى ويسمى مجـازا فى المثبت . ومجـاز الجمـلة عقلى ويسمى مجازا فى الاثبات ، فالمجـاز قد يكون فى المثبت وحـده مثل : فأحيينا به الأرض بعد موتها ، وقـد يكون فى الاثبات وهو أن يضيف الفعل الى غير الفاعل الحقيقى كما ذكرنا ، وقـد يكون فيهما جميعـا كقولك آنستنى رؤيتك أى سرتنى فجعل المسرة حياة ، وأسـندها الى الرؤية وهو مجاز فى الاثبات (١١٨ حسن التوسل) .

---

(١) ذلك مأخوذ عن عبد القاهر وقد سبق ابن فارس فى كتـابه « الصاحبى » الى بيان ذلك قال : « باب سنن العرب فى حقائق الكـلام والمجاز » : الحقيقة من حق الشىء اذا وجب . وهى الكلام الموضوع موضعه ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم فيه ولا تاخير ، كقول القائل « أحمد الله على نعمه واحسـانه » وهذا اكثر الكلام . وأما المجاز فمأخوذ من جاز يجوز اذا استن ماضيا ، تقول جاز بنا فلان وجاز علينا فارس ، هذا هو الأصل ثم تقول يجوز أن تفعل كذا اى تنفذ ولا يرد ولا يمنع ، وتقول عندنا دراهم وضح وازنة وأخرى تجوز جواز وازنة ، اى هى وان لم تكن وازنة فهى تجوز مجازها وجوازها لقربها منها ، فهـذا تأويل قولنـا مجاز ، اى أن الكلام الحقيقى يمضى لسننه لا يعترض عليه أو قد يكون غيره يجوز جوازه لقربه منه الا ان فيه من تشبيه واستعارة ما ليس فى الأول ، (١٦٧ ـ ١٦٩ الصاحبى) .

• الزمخشرى والمجــاز العقلى :

قال فى الكشاف فى تفسير الآية الكريمة « ختم الله على قلوبهم » ما نصــه : ويجوز أن يستعار الاسناد نفسه من غير الله له فيكون الختم مسندا الى الله على سبيل المجاز وهو لغيره حقيقة ، تفسـير هـذا أن للفعل ملابسات شتى يلابس الفــاعل والمفعول به والمصــدر والزمان والمكان والمسبب له فاسناده الى الفاعل حقيقة ، وقــد يسند الى هــذه الأشياء على طريق المجــاز المسمى استعارة وذلك لمضاهاتها الفاعل فى ملابسته الفعل [1] كما يضاهى الرجل الأســد فى جراءته فيستعار لــه اسمه ، فيقال فى المفعول به : عيشــة راضية وماء دافق وفى عكسـه : سيل مفعم وفى المصــدر شعر شاعر وذيل ذائل وفى الزمان نهاره صائم وليله قائم ، وفى المكان طريق ســائر ونهر جار ، وأهل مكة يقولون : صلى المقــام ، وفى المسبب بنى الأمير المدينة ، وقال الشــاعر : اذا رد عافى القدر من يستعيرها • فالشــيطان هو الخاتم فى الحقيقة أو الكافر الا أن الله لمــا أقدره ومكنه أســند اليه الختم كما يســند الفعــل الى المسبب •

وقال فى الآية الكريمة : « فما ربحت تجارتهم » ما نصــه : فان قلت كيف أسند الخسران الى التجارة وهو لأصحابها • قلت : هو من الاســناد المجازى وهو أن يسند الفعل الى شىء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشترين •

---

(١) فالزمخشر يجعل هــذا مجازا فى الاســناد على تشبية الفاعل غير الحقيقى بالفاعل الحقيقى فهو عنده كالاستعارة فى التشبيه والعلاقة • فهو ينظر الى المجاز فى الاســناد من جهــة الفاعل غير الحقيقى وانه على تشبيهه بالفاعل الحقيقى •

● الشهاب الخفاجى واسلوب المجاز العقلى :

جاء فى طراز المجالس للشهاب الخفاجى م سنة ١٠٦٩ هـ ما نصه :

قال الأبهرى فى شرح العضد : الفاعل لابد أن يكون سببا قابليا لفعله ليصح الاسناد اليه لغة ، فاذا أسند فعل الى ما لا يكون سببا قابليا له يجعل مجازا عن فعل آخر مناسب [1] له يكون الفاعل قابليا [2] له ، ويكفى فى هذا التسبب أن يعد الفاعل سببا قابليا له فى عرف العرب وعادتهم ولا يجب أن يكون محلا له فى الحقيقة ، فانهم لا ينظرون فى الاسناد الى ذلك ، ويرون جهة الاسناد — فى نحو : سرتنى رؤيتك ومات زيد وضرب عمرو — واحدة من حيث ان الفاعل فيهما سبب قابل لأفعاله عادة وان كان موجدها هو الله حقيقة ، فقول الشيخ عبد القاهر : « الاسناد فى سرتنى رؤيتك مجاز اذ فاعله فى الحقيقة هو الله والمعنى سرنى الله عند رؤيتك ، وفى الآخرين حقيقة » بعيد لأن موجد الضرب أيضا هو الله لما ثبت من قاعدة خلق الأفعال ، وكذا محدث الموت اتفاقا لكن العرب لا يخطر ببالهم عند اسناد الضرب الى عمرو والمسرة للرؤية ان فاعلهما غير المذكور . قال الشهاب ، وهذا كلام دقيق ، ولكن فيه بحث من وجهين :

١ — كيف يتم قوله : اذا أسند فعل الى ما لا يكون سببا قابليا له يجعل مجازا عن فعل آخر مناسب له يكون الفاعل قابليا له ، فانه يقتضى أنه لو أسند الى الموجد الحقيقى كخلق الله السموات والأرض يكون مجازا وهذا يأباه العقل والنقل ، وكون هذا لا بد فيه من التجوز فى الفعل أيضا لا وجه له لجواز التجوز فى لاسناد ، فما وجه الحصر ؟ .

---

(١) هو هنا يجعل الاسناد غير حقيقة ، ويؤول المجاز فيجعله فى الفعل ، من حيث أول الزمخشرى فجعله فى الفاعل ، وعبد القاهر والسكاكى والخطيب فجعلوه فى الاسناد .

(٢) يرد عبد القاهر فى الأسرار على نظرية ان المجاز فى الفعل وحده ردا مفصلا

٢ ـ كيف يشترط في الاسناد الحقيقي أن يكون الفاعل سببا قابليا ، دائما في اللغة . بناء على أن الفاعل اللغوى غير الفاعل الحقيقي ، مع أن اللغة واستعمال العرب يشهد بخلافه في مواضع كثيرة : منها ما ذكر من الاسناد للموحد ، ومنها أن الفعل يوضع للاعدام الصرفة كفقد وعدم وقد يسند للرجل حقيقة ما يقبله غيره ويقوم به مثل قطف ، وهذا كله يقتضي أن الحقيقة والمجاز . يدوران على اعتبار اللغة وواضعها .

والذي تحرر عندي وهو ما رد به الابهري : أن الفاعل الواقع في التخاطب لا سيما في اللسان العربي هو من تلبس بالفعل وقام به أو كان سببا قابليا عاديا في الاثبات ، أو ما هو في حكمه ، وليس هذا على الاطلاق بل اذا كان الشيء موجدا وفاعلا حقيقيا . وكان له أمر آخر قام به أو نسب له على الوجه المذكور فانه يسند حقيقة الى الثاني دون الأول ، فان لم يكن الا الأول كخلق الله السموات يسند حقيقة الى الموجد وانما الكلام ومحل النزاع هو الأول ، ثم السبب القابل ليس المراد به ما هو كذلك حقيقة بل هو وما جرى مجراه ، ولذا عول فيه على عادة العرب في عرف تخاطبهم ، ومن كان له دراية وطالع أساس البلاغة للعلامة وفقه اللغة للثعالبي وقف على سر هذا (٢٠٤ ــ ٢٠٦ طراز المجالس) .

* * *

● **والخلاصـــة :**

أن أسلوب المجاز العقلى قد اختلف فيه العلماء :

١ ـ فسيبويه ومن تابعه يقولون : هو على تقـدير محذوف ـ نام ليلى أى نمت فى ليلى .

٢ ـ وأناس يقولون : المجـاز فى الفعل وحـده وهو « نام » ... فهو فيـه مجاز لغوى لا غير ، ويرد عبد القـاهر هذا الرأى ردا مطولا فى كتابه « الأسرار » .. ولكن الأبهرى اتخذ ذلك مذهبا فى شرحه على العضد ، ورد على ذلك الخفاجى فى « طراز المجالس » .

٣ ـ وآخرون يقولون : المجاز فى الفاعل وحده وأنه على تشبيهه بالفاعل الحقيقى ، وعبد القاهر يرد على ذلك ، ولكن الزمخشرى يلوح كلامه باعتقاده هذا الرأى ، والسكاكى ذهب اليه وحده ، وجعله مذهبا له فى التخلص من المجـاز العقلى .

٤ ـ وعبد القاهر يرى أن المجاز فى الاسناد ، وأن تشبيه الفـاعل غير الحقيقى بالفاعل الحقيقى انمـا هو عبـارة على العـلاقة فى هـذا التجوز العقلى وأن تقدير المضـاف فى أسلوب المجـاز العقلى صـار كالشريعة المنسوخة ، فهو غير منظور اليه الآن ....

ولا شـك أن رأى عبد القـاهر هو أمثل هذه الآراء فى فهم بلاغة هـذا الأسلوب .

❋ ❋ ❋

حـول المجـاز العقـلى

١ ـ الحقيقة العقلية والمجاز العقلى عنـد الخطيب من صفة الاسناد لا الكلام ، حيث قال : « ثم الاسـناد منه حقيقة عقلية ومجاز عقلى » لأن المتصف بالحقيقة والمجاز فى الواقع هو ما تسـلط عليـه التصرف

العقلي وهو الاسـناد ، فاتصاف الكلام بهما بالتبع للأمر العقلي وهـو الأسناد ، واتصاف الاسـناد بهما بطريق الأصـالة ، فجعل الاسـناد معروضا لهما .. وذلك أولى ــ لكون ذلك بالأصـالة ــ من جعل الكلام معروضا لهما لأن ذلك بالتبـع ، وكـلام الزمخشري يؤيد الخطيب .
أما السكاكي فجعلهما صفتين للكلام حيث قال : « المجـاز العقلي هو الكلام المفـاد به خـلاف ما عنـد المتكلم الخ » ، والحقيقة العقلية هي الكلام المفـاد به ما عند المتكلم الخ » .

أما كلام عبد القاهر من قوله : « مجاز واقع في الاثبات » وقوله « الاضافة في الاسم كالاسناد في الفعل » ، فظاهره أن المتصف بذلك هو الاسناد . ولكن قوله في حد الحقيقة في الجملة : « كل جملة وضعتها على أن الحكم المفـاد بهـا على ما هو عليه في العقل وواقع موقعه فهو حقيقة » ، وفي حـد المجـاز العقلي فيها : « فكل جملة أخرجت الحكم المفـاد بها عن موضعه في العقل لضرب من التأويل فهو مجاز » ، وقوله « لا يجوز الحكم على الجملة بأنها مجاز الا بأحد الأمرين » ، كل ذلك يوهم أنهما عنده صفتان للكلام لا للاسناد .

ولكن الحق أن عبد القـاهر يجعلهما وصـفا للاسناد بالذات فاذا وصف بهما الكلام فباعتبار اشتماله على الاسـناد ، فرأيه مؤيد لما سبق عن الخطيب ، وهـذا ظاهر مما نقـله ابن الحاجب في رأى الشيخ عبد القـاهر أيضا ، من أنه يجعلهما وصـفا للاسناد ، كما أن ذلك هو رأى جمهور علماء البلاغة ، ولكن السعد يرى أن عبد القـاهر يجعلهما وصفا للكلام كصاحب المفتاح ، والحـق أن السـعد في ذلك قد وهم بظاهر بعض كلام عبد القـاهر ، فالحـق أن عبد القاهر يرى أنهما وصـفان للاسـناد . ثم قال السـعد : « قال الخطيب : وانما اخترنا أنهما صـفة للاسناد لأن نسـبة الشيء الذي يسمى حقيقة أو مجازا الى العقـل على هذا لنفسـه بلا واسطة وعلى قولهما (عبد القـاهر والسـكاكي) لاشتماله على ما ينسب الى العقل أعني الاسـناد ، يعني الخطيب أن

تسمية الاسناد حقيقة عقلية انما هي باعتبار أنه ثابت في محله ومجازا باعتبار أنه متجاوز اياه والحاكم بذلك هو العقل دون الوضع لأن اسناد كلمة الى كلمة شيء يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة .
فان ضرب مثلا لا يصير خبرا عن زيد بواضع اللغة بل بمن قصد اثبات الضرب فعلا له وانما الذي يعود الى الواضع أنه لاثبات الضرب دون الخروج وفي الزمان الماضي دون المستقبل [1] فالاسناد ينسب الى العقل بلا واسطة والكلام ينسب اليه باعتبار أن اسناده منسوب اليه » .. فالسعد يثبت هنا أمرين :

١ ـ أن المجاز في الاسناد عقلي وكذلك الحقيقة في الاسناد عقلية .

٢ ـ أن المجاز والحقيقة العقليين راجعان الى الاسناد .

فالخلاصة أنهما وصفان للاسناد الا عند السكاكي على أن كلام السكاكي ربما أمكن تأويله ، أفلا تراه يقول : المجاز العقلي هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل والحقيقة هي الكلام المفاد به ما عند المتكلم من الحكم فيه فيجعل مناطهما الحكم (وهو الاسناد) ، ويسميه ـ تبعا لعبد القاهر ـ أحيانا مجازا حكميا ومجازا في الاثبات ، أفلا يدل ذلك على أن السكاكي يعتبر التجوز انما هو أولا في الاسناد ، فيكون على هذا وصفا له ، قال السبكي : بل لا يصح من جهة المعنى الا ذلك .

الحق أن جمهور علماء البلاغة على أن المجاز والحقيقة العقليين انما هما وصف للاسناد ، وما يوهمه كلام السكاكي فمؤول ، وتأويل ما يوهمه عبد القاهر في ذلك أظهر في باب التأويل اذ لا يحتاج في تأويله الى دليل .

---

(١) راجع ٣٥٥ و ٣٥٦ أسرار .

٢ ـ ذكر الخطيب المجاز العقلى فى علم المعانى وذكره السكاكى فى علم البيان . أما حجة الخطيب فهى أن المجاز العقلى داخل فى تعريف علم المعانى لا البيان فكأنه مبنى على أنه من الأحوال المذكورة فى تعريف المعانى كالتأكيد والتجريد عن المؤكدات ، فهو من أحوال اللفظ ـ بواسطة أنه من أحوال الاسناد ـ التى بها يطابق اللفظ مقتضى الحال ، قال السعد : « وفيه نظر لأن علم المعانى انما يبحث عن الأحوال المذكورة من حيث انها يطابق بها اللفظ مقتضى الحال وظاهر أن البحث فى الحقيقة والمجاز العقليين ليس من هذه الحيثية ـ والا لو كانا من الأحوال المعهودة لذكر المصنف الحال التى تقتضى الحقيقة والمجاز كما ذكر فى غير من المباحث الآتية ـ فلا يكون داخلا فى علم المعانى والا فالحقيقة والمجاز اللغويان أيضا من أحوال المسند أو المسند اليه » ، هذا اعتراض قوى من السعد ، تخلص منه بعض العلماء بحجة واهية وهى أن الخطيب انما ذكر المجاز والحقيقة العقليين هنا على طريق الاستطراد لا غير أى لا لمناسبة .

أما حجة السكاكى فى ذكرهما فى علم البيان فقوية ، قالوا : لما كان علم البيان موضوعا لبيان ما يعرف به كيفية ايراد المعنى الواحد بطريق مختلفة فى وضوح الدلالة واختلاف الطرق يكون بالحقيقة والمجازية فى الجملة ، أوردهما فى علم البيان ، ولكن الخطيب ـ كما سبق ـ راعى أنهما من أحوال الكلام المفيد ، باعتبار عروضهما لاسناده الذى به صار مفيدا ، والكلام المفيد تراعى فيه المعانى الزائدة على أصل المراد ليطابق بها الكلام مقتضى الحال ، بخلاف الحقيقة والمجاز اللغويين فليسا من أحوال الكلام المفيد بل من أحوال أجزائه ، والمفيد من حيث انه مفيد بالاسناد هو المعروض للمعانى الزائدة على أصل المعنى المراد ليطابق بها مقتضى الحال كما تقدم .

قال ابن يعقوب : لكن يرد على هذا أنهما انما يكونان من علم المعانى ان ذكرا فيه من حيث المطابقة لمقتضى الحال ، ولم يذكرا فيه

من تلك الجهة والحيثية بل من حيث تفسيرهما وذكر أقسامهما ، وقد يجاب عن هذا بأن تصور حقيقتهما يدرك معه بسهولة ما يذكر فى علم المعانى من كيفية الاستعمال للمطابقة لمقتضى الحال لأنه اذا علم أن المجاز يفيد تأكيد الملابسة علم أنه لا يعدل اليه عند اقتضاء المقام لذلك التأكيد مثلا فكأنه ذلك ولم يصرح به لوضوحه .

الحق مع السكاكى فى عدهما من علم البيان ، وما قيل عن عدهما فى المعانى تكلف محض ، ولابن السبكى رأى غريب فى توجيه حجة السكاكى فى عدهما من البيان ، قال : جعلهما السكاكى فى علم البيان لأنه كان ينكر هذه الحقيقة وهذا المجاز فلذلك ذكرهما ثم .

٣ ــ المجاز والحقيقة العقليان وصف للاسناد مطلقا سواء كان خبريا أو انشائيا ولهذا قال الخطيب « ثم الاسناد منه حقيقة عقلية الخ » فأتى بالاسم الظاهر دون الضمير ــ وان كان المحل للضمير حيث كان السياق أن يقول ثم منه ــ لئلا يتوهم عوده على الاسناد المقيد بالخبرى فى قوله « أحوال الاسناد الخبرى ، وارتكاب الاستخدام فى الكلام خلاف الأصل » ، ولا يرد أن المعرفة اذا أعيدت بلفظ المعرفة كانت عين الأولى فما لزم على الاتيان بالضمير لازم على الاتيان بالاسم الظاهر ، لأنا نقول ليس هذا كليا بل مقيد بما اذا خلا عن قرينة المغايرة . ومما يدل على أن المراد الاسناد مطلقا الأمثلة الآتية من نحو : « يا هامان ابن لى صرحا » . وليس المراد خصوص الخبرى كما قد يتوهم من كون البحث فى الاسناد الخبرى .

والحقيقة والمجاز العقليان يقتضى ذكرهما فى الاسناد الخبرى وجعلهما وصفا للاسناد مطلقا ــ انشائيا كان أو خبريا ــ اختصاصهما بالاسناد التام ، لأن الانشاء والاخبار وصفان له . مع أنهما لا يختصان بالاسناد التام بل يكونان فى الاسناد الناقص كما فى اسناد المصدر للفاعل وللمفعول به مثل أعجبنى ضرب زيد وجرى النهر وأعجبنى انبات الله البقل أو انبات الربيع البقل .

وأجاب الحفيد بأن المراد بالانشائي والاخباري الاسناد في الجملة الانشائية والاخبارية سواء كان تاما أو ناقصا فتناول ما ذكر ، فالمراد باسناد مطلق النسبة مجازا مرسلا من اطلاق المقيد على المطلق فان الاسناد هو النسبة التامة واستعمل في مطلق النسبة : تامة كالاسنادية أم غير تامة مثل الاضافية والايقاعية . وأجاب المطول بأن المراد بالاسناد أعم من أن يكون صريحا أو مستلزما .

قال الخطيب : والمجاز العقلي غير مختص بالخبر بل يجري في الانشاء ، كقوله تعالى : « يا هامان ابن لي صرحا » وقوله تعالى : « فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا » وقوله تعالى : « ولا يخرجنكما من الجنة فتشقى » .. وقد سبق الى ذلك السكاكي (١٦٩ المفتاح) .

وقال السعد نقلا عن السكاكي : لما كان تقييده بالمجاز في الاثبات وايراده في أحوال الاسناد الخبري يوهم اختصاصه بالخبر لأن الاثبات لا يتحقق في الانشاء اذ الاثبات يقابل الأنتزاع ، وكل منهما حكم ، ولا حكم في الانشاء لأنه من قبيل التصورات ، قال الخطيب وهو غير مختص بالخبر بل يجري في الانشاء كما في « يا هامان ابن لي صرحا » أي قصرا عاليا .

فالمجاز العقلي يدخل في الخبر ، ويدخل في الانشاء ويظهر ذلك في دخوله في أنواع الانشاء الآتية :

١ ـ الأمر .   ٢ ـ النهي .

٣ ـ الاستفهام عند ابن يعقوب لا السبكي .

٤ ـ أما النداء فلا تقدر على دخول المجاز العقلي فيه كما قال السبكي .

٥ ـ وأما غير الانشاء الطلبي : فالقسم لا تكاد تقدر عليه كما ذكره السبكي ، والعلاقة في المجاز العقلي في الانشاء كما هي في الخبر ، فقد تكون السببية مثل ابن لي صرحا أو المكانية مثل ليت النهر جار أو الزمانية مثل ليصم ليلك أو الآلة مثل لتقطع السكين الخ .

٤ ــ ومما سبق الاشارة اليه فى الملاحظة السابقة نعلم أن المجاز العقلى أعم من أن يكون فى النسبة الاسنادية أو غيرها ، فكما أن اسناد الفعل الى غير ما حقه أن يسند اليه مجاز ، فكذا ايقاعه على غير ما حقه أن يوقع عليه ، واضافة المضاف الى غير ما حقه أن يضاف اليه ، لأنه جاز موضعه الأصلى ، فالمذكور فى الخطيب اما تعريفا اما تعريف للمجاز العقلى فى الاسناد خاصة أو لمطلقه باعتبار أن يجعل الاسناد المذكور فى التعريف أعم من أن يدل عليه الكلام بصريحه كما مر أو يكون مستلزما له كما فى : « شقاق بينهما » فانه جعل البين شقاقا فى الآية ، وكما فى « مكر الليل والنهار » حيث جعل الليل والنهار ماكرين ، وكما فى يا سارق الليلة أهل الدار فانه جعل الليل مسروقة ، وكما فى « ولا تطع أمر المسرفين » ، حيث جعل الأمر مطاعا ... وكذا فيما جعل فيه الفاعل المجازى تمييزا كقوله تعالى « أولئك شر مكانا وأضل سبيلا » لأن التمييز فى الأصل فاعل ، قال السعد : واعلم أن المجاز العقلى قد يدل عليه صريحا كما مر ، وقد يكون كناية كما ذكروا فى قولهم « سل الهموم » أنه من المجاز العقلى حيث جعل الهموم مخزونة بقرينة اضافة التسلية اليها ، فافهم ولا تقصر المجاز العقلى على ما يفهم من ظاهر كلام السكاكى والخطيب ، وقال الدسوقى : المجاز العقلى والحقيقة يجريان فى الاضافة مثل أعجبنى جرى الماء فى النهر وجرى النهر ، وفى الايقاعية مثل نومت ابنى فى الليل ونومت الليل أى أوقعت النوم عليه ، فلا تختص الحقيقة والمجاز بالنسبة الاسنادية كما يوهمه كلام الخطيب ، لأنهما كما يجريان فى الاسنادية يجريان فى الاضافية وهى النسبة الواقعة بين المضاف والمضاف اليه ، وفى الايقاعية وهى نسبة الفعل للمفعول فان الفعل المتعدى واقع على المفعول أى متعلق به ــ ولكن يلاحظ أن ظاهر هذا يقتضى أن الايقاعية غير تامة مع أن نسبة الفعل للمفعول انما تعتبر بعد التمام فكان الأولى الاقتصار على الاضافية الا أن يقال انهم التفتوا الى نسبة الفعل للمفعول فى حد ذاته بقطع النظر عن نسبته

للفاعل ولا شك أنهـا غير تامة .. فنحو أعجبنى جرى الأنهـار من النسب الاضافية وهو مجاز عقلى وكذلك أعجبنى انبات الربيع البقل ؛ فهمـا مجازان فى النسـبة الاضافية لكن هذا اذا جعلت الاضافة بمعنى اللام وأما لو جعلت بمعنى فى فلا يكون مجازا بل حقيقة ، فلا بد من النظـر لقصـد المتكلم ونفس الأمر فان كان ما قصده مناسبا بحسب نفس الأمر فحقيقة والا فمجاز .. ومجرد مناسـبة نوع من الاضـافة لا يقتضى أن تكون حقيقة ما لم يقصده .

٥ ــ حديث المجـاز العقلى أنه تجوز فى الاسـناد كما قـال الخطيب أو تجوز فى النسـبة أعم من أن تكون اسـنادا أو اضـافة أو ايقـاعا مصرحا بهـا أو مكنية عنهـا كمـا رأى السـعد ، فما الحكم اذا فى :

(أ) وصف الفاعل أو المفعول بالمصدر نحو رجل عدل ، فانمـا هى اقبال .

(ب) وصف الشيء بوصف محدثه وصاحبه مثل الكتاب الحكيم والأسلوب الحكيم ، فان المبنى للفاعل قد أسند الى المفعول لكن لا الى المفعول الذى يلابسـه ذلك المسنـد بل فعـل آخر من أفعاله مثـل أنشأت الكتاب .. فان كلامه ظاهر فى أن المفعول الذى يكون الاسناد اليه مجازا يجب أن يكون بما يلابسه ذلك المسند .. وكذا ما أسـند الى المصـدر الذى يلابسه فعل آخر من أفعـال فاعله نحـو الضـلال البعيد فان البعيد انما هو الضـال وكذا العـذاب الأليم فالأليم هـو المعذب فوصف به فعله مثل جـد جده ، كذا فى الكشاف وظاهر أن هذا المصدر مما يلابسه ذلك المسند .

أما الجواب عن الأول فقد قالوا : انـه ليس بحقيقة ولا مجـاز ، لأنه اسـناد الى المبتدأ ــ والاسناد اليه ليس بحقيقة ولا مجـاز عنـد الخطيب ــ هذا بعيد ، والحق أنه مجاز ، كما ذهب اليه عبد القـاهر

ومن سبقه : وكما يمليه الذوق السليم ، قال عبد القاهر في الدلائل : « لم ترد بالاقبال والادبار غير معناهما حتى يكون المجاز في الكلمة وانما المجاز في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر كأنها تجسمت من الاقبال والادبار ، فليس المراد تشبيهها بالاقبال حتى يكون تشبيها بليغا ، ولا المراد ذات اقبال ولو كان صحيح المعنى ، لأن ذلك يفيت المبالغة المقصودة للشاعر وهي كونها لكثرة وقوع الاقبال والادبار منها صارت نفس كل منهما » .

وأما الجواب عن الثاني فهو أن الملابسة أعم من أن تكون بواسطة حرف أو بدونها ، وهذه الصور من قبيل الأول لأن المعنى هو حكيم في أسلوبه وكتابه وبعيد في ضلاله وأليم في عذابه فيكون مما بني للفاعل وأسند الى المفعول بواسطة ، فهو داخل في المفعول ليكون اسناد ما للفاعل له مجازا لأنه لا يتوصل اليه ذلك المسند الا بحرف فالمراد بالمفعول ما يتوصل اليه فعل الفاعل بنفسه أو بحرف ، فهو مجاز عقلي علاقته المفعولية .. فالخلاصة أن الاسناد في :

(أ) الانسان حيوان ليس بحقيقة ولا مجاز عند الخطيب .

(ب) هي اقبال وادبار مجاز عند عبد القاهر والسكاكي وعند السعد .

(ج) كتاب حكيم رده السعد الى المجاز .

(د) نام ليلي أو ليلى نائم الاسناد فيه مجاز قطعا عند الجميع .

فالخطيب أخرج الاسناد الذي بين المبتدأ والخبر عن أن يكون حقيقة أو مجازا ، ولذلك قال ثم الاسناد منه حقيقة ومنه مجاز ولم يقل اما حقيقة واما مجاز ، وذلك لأن المتبادر من هذه العبارة في تقاسيم الأشياء هو الانفصال الحقيقي (مانعة جمع وخلو معا) أو المانع من الخلو اذ بأحدهما تصير الأقسام مضبوطة ، دون المانع من الجمع اذ لا

يعلم به عـدة الأقسام قطعا ، فلو أوردت اما هنـا لدلت على انحصار الاسناد فى الحقيقة والمجاز والمصنف لا يقول به .

قال السبكى : قال الخطيب : اسـناد ما ليس فعلا ولا متصـلا به لا يسمى حقيقة ولا مجازا مثل الانسان جسم ، وليس كما قال بل كل خبر ففيه الاسـناد وما ذكر يؤدى الى نفى الاسـناد لأن من أثبت الحقيقة والمجاز العقليين فتقسيمه الاسـناد اليهما منفصلة حقيقة مانعـة جمع وخلو فكل اسـناد ليس حقيقة ولا مجازا لا وجود له ، ومن وقف على حدى الاسـناد الحقيقى والمجازى عرف ذلك ، ثم نقول : الانسان جسـم فيه معنى الفعل باعتبار رجوعه الى الاسـناد المعنوى كما قدروا فى زيد أسد جرىء ، وكذلك يقدر فى الجميع .

هـذا ويجعل ابن قتيبة مثل نبت البقل وطالت الشجرة من المجاز ، ومثل قوله فى الغرابة كلام صاحب الذريعة من أنه ينفى المجاز العقلى كافة ، قال السبكى : وهما قولان غريبان آخذان بطرفى الافراط والتفريط والحق بينهما .

وقال الدسوقى : الظاهرية يزعمون عدم وقوع المجاز العقلى فى القرآن كاللغوى لايهـام المجاز الكذب والقرآن منزه عنـه .. والرد عليهم أنه لا ايهـام مع القرينة .

وقال ابن السبكى : فى أنبت الربيع البقل اذا لم يكن من كافر ولا كذبا أقوال :

(أ) المجاز لغوى فى أنبت وهو رأى ابن الحاجب .

(ب) المجاز لغوى فى الربيع وهو رأى السـكاكى .

(جـ) المجاز عقلى فى الاسناد وهذا رأى عبد القاهر والمصنف .

(د) أنه تمثيل فلا مجاز فيه لا فى الاسـناد ولا فى الافراد بل هو كلام أورد ليتصور معناه فينتقل الذهن فيه الى اثبات الله تعالى وهو اختيار الامام فخر الدين . انتهى كلام السبكى ، ونضيف اليـه رأيا خامسا وهو أنه حقيقة ، وهو رأى صاحب الذريعة .

* * *

نشــأة البيــان العربى

١ ــ كان للعرب فى حياتهم الأولى ذوق وفيهم طبع ، كانوا بهما فى غنى عن الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل لأحكام النقد ولأصول البيان العربى ومذاهبه ، وكذلك كانت أصول البيان بعيــدة عن البحث والدراســة والتقرير •

وفى ظــلال الحيــاة الإســلامية اختلطت العنــاصر ، وتمازجت الثقافات ، فلقحت العقول ، وأصابت الألسنة آثار من اللكنة واللحن ، وأخذ أئمــة العربية يعملون فى صبر وعزيمة فى وضع أصول النحــو العربى ، وجمع مواد اللغــة العزيزة •• وصحب ذلك وتلاه دراســات أخــرى تتناول البيــان العربى وأصــوله ومذاهبه بالبحث والتحليل ، وأخذت تتكون من تلك الدراســات النواة الأولى للبيان العربى ، وظل التقــدم الفكرى والنضــوج الأدبى والعلمى يســير بهذه البحــوث والدراســات نحو الكمال المنشــود بخطوات كبيرة •• وكانت الثقافة البيانية تنمو حين ذاك بجهود ثلاث طبقات :

(أ) الأولى طبقــة رواة وعلمــاء الأدب من البصريين والكوفيين والبغداديين ، من أمثــال : خلف والأصمعى وأبى زيد وأبى عبيــدة ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية[1] ، ومن عامة الرواة الذين لا يقفون الا على البليغ الساحر من الأساليب كما يقول الجاحظ دون النحويين واللغويين والاخباريين الذين لم يتجهوا هــذا الاتجاه[2] •• وبجوار هؤلاء أئمة الشــعراء[3] وغيرهم من الخطباء ورجال الأدب الذين تثقفوا بالثقافة العربيــة •

---

(١) ١/٢٠٩ البيــان .
(٢) ٣/٢٢٤ البيــان .
(٣) ١/٥٤ البيــان .

(ب) والثانية طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما أمثل طريقة فى البلاغة منهم والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن وحشيا ولا سوقيا[1] ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم[2] ، وحكم مذهبهم فى النقد[3] ، ومثلهم المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق آكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء[4] وكان بعضهم من عناصر عربية وتثقفوا بثقافة أجنبية ، والآخرون من عناصر أجنبية تثقفت بالثقافة العربية ، مما كان له أثره فى فهم أصول البيان وفى توجيه دراسته وبحوثه وفى الدعوة الى آراء فى الأدب توائم ثقافتهم وعقليتهم ، وكان بعضهم يلقن مذاهبه الأدبية العامة للتلاميذ وشداة الأدب ، كما ترى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى م ٢١٠ هـ فى أصول البلاغة[5] ، والتى يقول الجاحظ عنها ان بشرا مر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة[6] وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر فظن ابراهيم أنه انما وقف ليستفيد فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه فى أصول البلاغة وعناصر البيان[7] ، ومن رجال هذه الطبقة : أبو العلاء سالم مولى هشام وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ[8] وابن المقفع وسهل ابن هرون[9] والحسن والفضل[10] ابنا سهل ويحيى البرمكى وأخوه

---

(١) ١/١٠٥ البيان .   (٢) ٣/٢٢٥ البيان .
(٣) ١/٢٤٠ البيان .
(٤) ١/١٠٦ البيان .
(٥) ١/١٠٤ وما بعدها البيان ، ٢٢٨ وما بعدها صناعتين .
(٦) يعده الجاحظ من الخطباء الشعراء ١/٥٥ البيان .
(٧) ولبشر كتاب فى نظم كليلة ودمنة .
(٨) ١/١٥١ البيان .
(٩) كان سهل يقول : سياسة البلاغة أشد من البلاغة (١/١٤٤ البيان ، ٣/٣٢ العقد) .
(١٠) ذكر الحصرى كثيرا من بلاغته (١٦ — ١٩ جـ ٢ زهر) .

جعفر[١] وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف وعمر بن مسعدة[٢] وابن الزيات وسواهم .

وكان لهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام .. ونستطيع أن نعرف آثار هاتين الطبقتين في دراسات البيان بالرجوع الى آرائهم المبثوثة في شتى أصول الأدب ، والتي يمكننا أن نذكر لك هنا طرفا منها ، وان شئت فاقرأ جواب صحار لمعاوية حين سأله عن البلاغة[٣] ، ويروى قبل هذا بكثير أن عامر بن الظرب سأل حممة بن رافع من أبلغ الناس ؟ . فقال ، من حلى المعنى المزيز باللفظ الوجيز وطبق المفصل قبل التحزيز[٤] واقرأ تحديد المفضل الضبي للايجاز[٥] ، وتفسير ابن المقفع للبلاغة[٦] ، وحوار الشمرى لعمرو بن عبيد في البلاغة[٧] ، وتعريف الأصمعي للبليغ[٨] ، ورأى ابراهيم بن محمد في البلاغة[٩] ، وتعريف جعفر البرمكي للبيان[١٠] ، وتعريف العتابي للبلاغة[١١] ، وتفضيل الجاحظ لرأيه[١٢] ، وصف الرشيد للبلاغة[١٣] ، ورأى شبيب بن شيبة في تفضيل بلاغة جودة القطع أو القافية على جودة الابتداء[١٤] ، ووصف ابن المقفع كلام الأعراب[١٥] ، الذين أعجب

---

(١) وصف الجاحظ بلاغته وأشاد به (٨٥ و ١/٩١ البيان ، ٢/٨١ زهر) وكان يؤثر الايجاز (١/٨١ البيان ، ١/١٧٧ الكامل) ، ونوه به سهل بن هرون (٢/١١ زهر) .

(٢) نوه المأمون ببلاغته (٣/٢٦٤ زهر) .

(٣) ١/٨١ البيان ، وراجع ٢/١٨ الكامل .

(٤) ١/٢١٦ العمدة ، ٢/٢٨٠ الآمالي للقالي .

(٥) ١/٨١ البيان .

(٦) ٩١ البيان ، ١/٢١٤ العمدة ، ١٥ — ١٧ صناعتين .

(٧) ١/٩٠ البيان ، ١/١٤٢ زهر ، ٤٧ الرسالة العذراء .

(٨) ١/٨٦ البيان ، ١/٢٢٠ العمدة .

(٩) ١/٧٥ البيان .

(١٠) ١/٨٥ البيان ، ٤٢ — ٤٧ صناعتين .

(١١) ١/٩٠ ، و ١/١٥٧ البيان .

(١٢) ١/١٢١ البيان .

(١٣) ٣/٢٦٤ زهر .

(١٤) ١/٨٩ البيان .

(١٥) ٢/١١٨ زهر .

الجاحظ ببلاغهم[١] ووصف الحسن بن وهب بلاغة أبى تمام[٢] ، وتعريف المأمون للبليغ بأنه من كان كلامه فى مقدار حاجته ولا يجيل الفكرة فى اختلاس ما صعب عليه من الألفاظ ولا يتعمد الغريب الوحشى ولا الساقط السوقى[٣] ، وقول خالد بن صفوان : أبلغ الكلام ما لا يحتاج الى الكلام الخ[٤] ، وتعريفه للبلاغة بأنها التقريب من المعنى البعيد أو التباعد عن خسيس الكلام والدلالة بالكبير على الكثير ، وتعريف ابن عتبة لها : بأنها دنو المأخذ وقرع الحجة والاستغناء بالقليل عن الكثير ، وعرفها الخليل : بأنها ما قرب طرفاه وبعد منتهاه ، وعرفها ابراهيم الامام : بأنها الجزالة والاصابة وعرفها ابن المقفع : بأنها قلة الحصر والجراءة على البشر ، الى غير ذلك من شتى هذه التحديدات[٥] ، ويقول أبو داود الأيادى : رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام وحليها الاعراب[٦] الخ ، ويقول الخليل : كل ما أدى الى قضاء الحاجة فهو بلاغة فان استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا ولتلك الحال وفقا وآخر كلامك لأوله مشابها وموارده لمصادره موازنة فافعل واحرص أن تكون لكلامك متهما وان ظرف[٧] ، ووصية أبى تمام للبحترى تدخل فى هذا الباب[٨] ، ويقول عبد الملك بن صالح م ١٩٩ هـ : البلاغة معرفة رتق الكلام وفتقه[٩] ، وقال ابن الرومى : البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة عند الأصالة[١٠] ، ويقول البحترى : خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل[١١]،

---

(١) ١/١١٠ البيان . (٢) ٣/٢٦٣ زهر .

(٣) ٤٢٣ صناعيتين . (٤) ٣٥ و ٣٦ الرسالة العذراء .

(٥) راجع : ٤٤ — ٤٦ الرسالة العذراء ، ١/٧٥ البيان ، ٢ و ٣ و ٢٢ ، ٣/٢٣ العقد ، ١٤٠ — ١/١٥٠ زهر ، ٨٧ — ٢/٩١ ديوان المعانى ، ١٠٩ ، ٢٠٢ اعجاز القرآن ، ٢١٣ — ١/٢٢١ العمدة .

(٦) ١/١٤٧ زهر ، ١/٥١ البيان .

(٧) ٤٨ الرسالة العذراء .

(٨) ١/١٥١ زهر .

(٩) ٣/١٦٨ البيان .

(١٠) ٤١ الصناعتين .

(١١) ١/٣٦ المستطرف .

ويقول الثعالبى بعد : خير الكلام ما قل وجل ولم يمل[1] ، ويقول ابن الأعرابى : البلاغة التقرب من البغية ودلالة قليل على كثير[2] .

(جـ) وأما الطبقة الثالثة فهى طبقة المفكرين والمثقفين الذين تثقفوا بثقافة أجنبية واسعة ، وتأثروا كل التأثر بآداب الأمم الأخرى : وترجموا آرائهم فى البيان ومناهجه الى اللغة العربية ، أو ألفوا كتبا تبحث فى هذه الاتجاهات ، وهؤلاء قد عاشوا فى البيئة الاسلامية وأثروا فى النقد والأدب والبيان ودراساته وتطوره تأثيرا واضحا كبيرا ، يمكننا أن نذكر شيئا عن مجهود هذه الطبقة فى خدمة البيان :

أهم عمل علمى قامت به هذه الطبقة : هو ترجمة كتابى الخطابة والشعر لأرسطو الى العربية ، فأما الخطابة فهو أصل البلاغة ودراساتها ، وقد « أصيب بنقل قديم ونقله اسحاق بن حنين م ٢٩٨ هـ وكذلك نقله ابراهيم بن عبد الله وفسره الفارابى م ٣٣٩ هـ »[3] ، وأما كتاب الشعر فقد اختصره الكندى م ٢٥٣ هـ ، ونقله يحيى بن عدى ومتى فى القرن الرابع من السريانية الى العربية[4] ... وقد ألفوا فى صناعة الشعر ، وللكندى رسالة فى صناعة الشعر[5] ، ولأبى زيد البلخى كتاب بعنوان « صناعة الشعر » أيضا[6] ، وكذلك لأبى هفان[7] .

---

(١) ١/٢١٨ العمدة . (٢) ١/٢١٧ العمده .

(٣) ٣٤٩ فهرست .

(٤) ٣٤٩ و ٣٥٠ فهرست ، وتجد تحليلا كاملا للكتاب فى (٦٤ — ١٣٦ قواعد النقد الأدبى) ، وهو لم يصل البنا كاملا وليس من شك فى أن للكتاب جزءا ثانيا فقد (٦٨ المرجع) ، ونكاد نجزم أن أرسطو أراد بكتابه هذا أن يكون ردا على أفلاطون فى رأيه الذى ذهب اليه وهو أن الشعر عمل غير جدير بمقام الذكاء البشرى وأنه من أشد بواعث الفساد (٧١ المرجع) ، ويقول أرسطو فى أوله : « سأتكلم هنا عن فن الشعر وأنواعه المختلفة ووظائف كل نوع وفى البناء الصحيح للمنظومة وعدد أجزائها وخصائص كل منها » (٧٩ المرجع) ، وترجمة ابن سينا وابن رشد (٢٤ وما بعدها مقدمة نقد النثر) .

(٥) ٣٥٩ فهرست . (٦) ١٩٨ فهرست .

(٧) ٢٠٧ فهرست .

وهناك آراء كثيرة مأثورة عن هذه الطبقة فى البلاغة وعناصرها وهى متفرقة فى شتى كتب الأدب ومصادره ، وتجد فى البيان والعمدة وسواهما أن صاحب اليونانيين عرف البلاغة بأنها تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وعرفها الرومى بأنها وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة ، وعرفها الفارسى بأنها معرفة الوصل من الفصل ؛ وعرفها الهندى بأنها البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة الخ ، وعرفها أرسطو بأنها حسن الاستعارة ، ويعرفها جالينوس بأنها ايضاح المفصل وفك المشكل ، واقرأ البلاغة كما يراها حكيم الهند[1] ، ويقول حكيم : البلاغة معرفة السليم من المعتل وفرق ما بين المضمن والمطلق وفصل ما بين المشترك والمفرد[2] ، ويعرفها سقراط بأنها استكشاف الحقائق [3] ، ويقسمها الكندى ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ، ونوع بالعكس ، ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحمدها[4]، ويقول : يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعانى[5] ، وذكر بزرجمهر فضائل الكلام ورذائله فقال : فضائله أن يكون صدقا وأن يقع موقع الانتفاع به وأن يتكلم به فى حينه وأن يحسن تأليفه وأن يستعمل منه مقدار الحاجة ، ورذائله بالضد[6] الخ ، وقال أبرويز لكاتبه : الكلام أربعة : سؤالك الشىء وسؤالك عن الشىء وأمرك بالشىء وخبرك عنه ، فاذا طلبت فأسجح واذا سألت فأوضح واذا أمرت فأحكم واذا أخبرت فحقق ، وقال أيضا : واجمع الكثير مما تريد فى القليل[7] ، ولعل ثعلبا حين ذكر فى صدر كتابه « قواعد الشعر » أقسام الشعر وأنها أمر ونهى وخبر واستخبار[8] قد تأثر بذلك الرأى .

---

(١) ٧٨ و ١/٧٩ البيان ، ٢٠ ــ ٣٨ صناعيين ، ١/١٤٤ زهر .
(٢) ٢/٨٨ البيان والتبيين .
(٣) أصول النقد الأدبى للشايب .
(٤) ١/٢١٩ العمدة .
(٥) ١/٣٥ المستطرف .
(٦) ١٨٣ ، الموازنة .
(٧) ١٠ أدب الكاتب .
(٨) ص ١١ قواعد الشعر .

وبعد فقد تعاونت هـذه الطبقات فى خدمة البيـان ، ولها جميعا أثرها فى نشـأته وتطوره .

٢ ــ ومن الكتب الأولى التى ألفت فى دراسات البيان موضوعاته : مجاز القرآن لأبى عبيـدة ، وكتاب البيـان لابن السكيت[١] وكتاب الفصاحة للدينورى[٢] ، وكتاب التشبيه والتمثيل للفضل بن نوبخت[٣] ، وصـناعة الكلام للجاحظ[٤] ، وكتاب التمثيـل له[٥] ، ونظم القرآن أيضا[٦] وقواعد الشعر وكتاب البلاغة للمبرد[٧] ، وللحرانى كتاب فى البلاغة[٨] ، ولثعلب قواعد الشعر ، ولابن مقسم تلميذه كتاب المدخل الى صـناعة الشـعر[٩] ، وللمروزى كتـاب البلاغة والخطـابة[١٠] ، ولابن الحرون كتاب المطابق والمجانس[١١] ، ولأبى سـعيد الأصفهانى كتاب تهـذيب الفصـاحة[١٢] ، وللباحث كتاب صـنعة البـلاغة[١٣] ولمحمـد بن يزيد الراسطى المعتزلى م ٣٠٦ هـ كتاب اعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه ولابن الأخشيد كتاب نظم القرآن[١٤] وكذلك لابن أبى داود م ٣١٦ هـ[١٥] وللحسن بن جعفـر كتاب فى الرد على من نفى المجـاز فى القرآن[١٦] .

٣ ــ وبعد فقـد كان البيان العربى فى القرن الثالث مزيجا من

---

(١) ١/٢٠٨ كشف الظنون ، وقد يكون فى هذا الكتاب عرض للأدب وألوانه كالبيـان والتبيين .
(٢) ١٠١٦ فهرست .
(٣) ٣٨٣ فهرست . وهو فارسى خدم المنصور والمهدى .
(٤) ٢٨ الجاحظ لمردم .
(٥) ٤١ المرجع ، ٦/٧٩ معجم الادباء .
(٦) ٤٠ الجاحظ لمردم .
(٧) ٨٨ فهرست ، ٧/١٤٤ معجم الادباء .
(٨) ١٧٨ فهرست .
(٩) ٢٦ بغية الوعاة .
(١٠) ٢١٥ فهرست .
(١١) ٢١٢ فهرست .
(١٢) ١٩٧ فهرست .
(١٣) ٥٧ و ٥٨ فهرست .
(١٤) ٣٢٤ فهرست .
(١٥) ٥٢ الفهرست .
(١٦) فهرست أيضـا .

ثقافات وآراء مختلفة عربية وغير عربية مؤلفة ومترجمة ، من حيث كاد في القرن الثانى أن يكون عربيا خالصا . وهنا سؤالان لابد من الجواب عليهما وهما : متى نشأ البيان العربى ، وهل تأثر بثقافة أجنبية ؟

أما نشأة البلاغة والبيان فالآراء فيها كثيرة . فالدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت فى عهد متأخر والجاحظ فى رأيه أول من اهتم بها وهو مؤسس البيان العربى حقا[1] ، ويرى آخر أن نشأة البلاغة قديمة قد سبقت القرآن وتطورت بعده[2] وأكثر الفنون الأدبية أخذت شواهدها من القرآن[3] ، وينقد باحث هذا الرأى[4] .. ومن الضرورى أن نفرق بين أمرين ، نطق العرب فى آثارهم الأدبية بأساليب لغتهم المختلفة من استعارة وتشبيه وكناية ومجاز وقصر وفصل ووصل وطباق وتجنيس الخ ، ومعرفتهم العلمية بأوضاع هذه الأساليب ونواحيها البلاغية ، فالأول كان موجودا عند العرب قبل القرآن وفى عصر القرآن وبعده ، والثانى لم يوجد الا فى القرن الثالث الهجرى كما ذهب اليه أكثر الباحثين ، فقواعد البلاغة قد سنها الفكر أولا ليجرى عليها الأدب بل ان طبيعة الأدب موجودة من قبل سواء بحثت أو لم تبحث[5] ، فالأدب وخواصه الأدبية موجودان من قديم وأما معرفة هذه الخصائص ودراستها وبحثها على أنها علم وأصول وقواعد فلم يوجد الا بعد القرن الثانى الهجرى ، « فعلم البلاغة اسلامى لا عهد للجاهلين به »[6] ، والبلاغة باعتبارها فنا مدروسا أى التحليل العلمى للأساليب البلاغية ليست من علوم العصر الجاهلى انما هى دراسة متأخرة فى نشأتها على انه لا شك كان هناك فى العصر

---

(١) ٣ و ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر .

(٢) ١/٤٨ النثر الفنى ، ومن قبل رأى الصاحبى أن النحو والعروض نشأ من قديم (٨ وما بعدها الصاحبى) .

(٣) ١/٥٦ النثر الفنى .

(٤) ١٦ وما بعدها تاريخ البلاغة العربية مخطوط بمكتبة كلية اللغة .

(٥) ٨ قواعد النقد الأدبى .

(٦) ٢٩ تاريخ البلاغة العربية .

الجاهلى وصدر الاسلام بعض الخصائص والأساليب البلاغية المتعارف عليها[1] ، وهـذا كله مما لا سبيل الى الشك فيه .

وأما الأمر الثانى وهو هـل تأثرت البلاغة العربية فى نشـأتها الأولى ببلاغة الأمم الأخرى ؟ فيمكننا بسط الحديث فيه :

يذكر ابن الأثير أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية « فهذا شىء لم يكن ولا علم أبو نواس شـيئا منه ولا مسلم ولا أبو تمام ولا البحترى ولا المتنبى ولا غيرهم وكذلك جرى الحكم فى أهل الكتابة كعبد الحميد وابن العميد » ، ثم ينفى أن يكون هو قد تأثر فى رسائله ومكاتباته بما ذكره علماء اليونان فى حصر المعـانى ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا فى الخطابة والشـعر فلم يوافق ذوقه واستجهله ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربى شـيئا[2] ، ويرى باحث محدث أنه كان للبلاغة اليونانية أثر فى علم البـلاغة العربى[3] ، ويرى آخر أن أرسـطو المعلم الأول للمسلمين فى علم البيان[4] ، وأن الكتاب والمتكلمين الذين عاشوا فى القـرن الثانى وأثروا فى البيـان وتطـوره جلهم من الأعاجم[5] وأن متكلمى المعتزلة كانوا بتضلعهم فى الفلسـفة اليونانية من مؤسسى البيان العـربى[6] وأنه حتى منتصف القرن الثالث لم يوجـد الا بيان عربى واحد كان لا يزال فى دور الطفولة وكان خصبا جامعا للروح العـربى والفارسى واليونانى ثم وجـد من ذلك الوقت بيانان : عربى بحت ، ويونانى يجهر بالأخذ عن أرسـطو ، على أن البيان العـربى الصرف قد تأثر باليونانى[7] . وترجم كتاب الخطابة فى النصف الثانى من القرن

---

(1) ص ٤ و ٥ مجلة الأدب والفن نوفمبر ١٩٤٥ من مقال للأستاذ جب
(2) ٢٠ المثـل السائر .
(3) ١/١٧٧ ضحى الاسلام .
(4) ٣١ مقدمة نقد النثر .
(5) ص ٦ المرجع نفسه .
(6) نفس المرجع .
(7) ١١ وما بعدها نفس المرجع .

الثالث ، وجاء قدامة فاستفاد من كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه على الشعر العربي وكان يجهل كتاب الشعر[1] وقد درس قدامة الفلسفة وخاصة المنطق[2] ، على أن تشريع الفلسفة للأدب في رأى الدكتور يظهر أول مرة في « نقد الشعر »[3] ثم في « نقد النثر » الذي هو مستمد من آراء أرسطو في الجدل والقياس والخطابة[4] .

على أننا قد بسطنا القول في ذلك فيما سبق ورأينا أن المشتغلين بالفلسفة قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى في خدمة البيان العربي وانشائه والتأليف فيه وكان اتجاههم الأول الى البيان اليوناني فأخذوا يدأبون على الافادة منه في بحوث البيان العربي ودراساته وتلقيحه بما يمكن أن يلقح به من عناصر ومناهج علمية سلكها ومهد سبيلها اليونان ، فهم قد استعانوا بطرقهم في دراسة البيان على فهم وتحليل أصول البيان العربي والتأليف فيه .

٤ — ونحن الآن نعرض عليك خلاصة وافية لأهم الكتب التي تناولت بعض مسائل البلاغة بالبحث والتي ألفت فيها خاصة .

١ — جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي : وفي مقدمتها نجد آراء متفرقة في البلاغة والبيان ، فهو يعرف الالتفات ويشير الى أن العرب تخاطب الشاهد مخاطبة الغائب[5] ، ويعرف مجاز الحذف ويفيض في شرحه[6] .

(ب) الجاحظ وكتابه « البيان والتبيين » :

والجاحظ امام الكتاب وشيخ البيان وعلم من أعلام الأدب والنقد ،

---

(١) ١٧ المرجع . (٢) ١٦ المرجع .
(٣) ١٦ وما بعدها مقدمة نقد النثر
(٤) ١٧ وما بعدها المرجع .
(٥) ص ٣ جمهرة أشعار العرب . (٦) ص ٢ المرجع .

وهو من أئمة المعتزلة ، تتلمذ على النظام وسواه من فحول عصره فخرج واسع الثقافة عميق التفكير كثير الاحاطة والاطلاع على شتى المؤلفات والتراجم المنقولة من جميع اللغات الى العربية .

اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة وعن طريق المتكلمين وبمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية[1] ، كما أنه حذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه ، وتوسع فى الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب[2] ، وتأثر بخطابه أرسطو الى حد بعيد ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة فى الأسلوب استعماله القياس المضمر وهو المذهب الكلامى عند البديعيين[3] ، ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية وخاصة كتاب المنطق بأنه فى أسلوب سقيم ، فالجاحظ ولا شك قد تأثر « بالخطابة » لأرسطو كثيرا[4] . وأنكر باحث آخر أن يكون كتاب البيان متأثرا بخطابة أرسطو أو صدى له لأن الجاحظ لم يره[5] وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين[6] .

ومن البدهى أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية ، ففى البخلاء يحكى الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق : لو خرجت من جلدك لم أعرفك ، قال الجاحظ : وترجمة هذا الكلام بالفارسية « كراز بوستت باروان بيائى نشناسيم »[7] :

---

(١) ١/٤٠١ ضحى الاسلام . (٢) ١/٣٨٧ المرجع .

(٣) ٦٢٠ و ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة للأستاذ حمودة فى اسبوع الجاحظ ، واذا كان الجاحظ ينكر أن يكون لليونانيين خطابه (٣/١٥ البيان) فليس ذلك الا فى مقام الرد على الشعوبيين وقد يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية اليونان .

(٤) راجع ٦٢١ الرسالة العدد ١٩٦

(٥) راجع ٦٢٢ المرجع السابق .

(٦) ص ٣ مقدمة نقد النثر .

(٧) ص ١٩ البخلاء .

وأثر ثقافته الفارسية واضح فى كتبه وفى مؤلفه « البيان » ؛ أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضا فى الحيوان وفى كتابه البيان[1] ، قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمه كتاب الحيوان واستدل برأى لأرسطو[2] وكان مصدرا كبيرا له فى كتابه « الحيوان » ، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للانسان كثيرا[3] ويذكر صاحب المنطق وأنه كان بكىء اللسان مع علمه بتمييز الكلام وتفضيله ومعانيه وبخصائصه[4] . ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها اليونان[5] ويذكر كتب اليونان فى المنطق وأن الحكماء جعلتها معيارا للتفكير[6] ، ويذكر نوادر ريسموس اليونانى[7] ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم فى الخطابة ذكر[8] ، وأقسام الدلالة عند الجاحظ[9] هى من تفكير أرسطو ، ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيا ولليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها فى المنطق وللهند حكمها وسيرها وعللها ويرى أنها لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة[10] ، وللجاحظ رسالة فى نقد الكندى[11] .

ويذكر الجاحظ فى البيان « صناعة الكلام » ويعنى بها حينا علم الكلام[12] ، وحينا آخر البيان[13] ، ويذكر اصطلاحات أخرى كصناعة المنطق[14] وصناعة الخطابة ويذكر أحيانا « أصحاب الخطابة والبلاغة »[15] .

---

(١) وذلك فى مواضع كثيرة .
(٢) ٦١/١ البيـان .
(٣) ٦٩ و ١٢٨/١ البيـان .
(٤) ١٥/٣ البيـان .
(٥) ٧٥/١ البيـان .
(٦) ٧/٣ البيـان .
(٧) ١٦٥/٢ البيـان .
(٨) ١٥/٣ البيان ، الظاهر أن الجاحظ لم يطلع على شىء من خطابتهم .
(٩) ٦٩/١ البيان ، وهى فى ٤٠ الرسالة العذراء ، ٩ نقد النثر .
(١٠) ٧/٣ البيـان .
(١١) ٤٢ الجاحظ لمردم .
(١٢) ٦٩/١ البيـان .
(١٣) ١٠٨/١ البيان . ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام (٤/٣ زهر) .
(١٤) ٧٩/١ البيـان .
(١٥) ١٨٣/١ البيـان .

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو ، فدعوته الى ترك الوحشى والسوقى[1] له نظير عند أرسطو الذى دعا الى « هجر الألفاظ الخسيسة التى لا يستعملها الا العامة[2] وقال « ينبغى ألا تكون الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة الحد فى المتانة مبلغ الأمر الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا تحوج الى الكلفة المنشوءة » ، ودعوة الجاحظ الى الوضوح[3] لها نظير عند أرسطو حيث يذكر « حسن الدلالة ووضوح العبارة وأن الاغراب مستكره وأنه يجب ألا تمعن فى الاغرابات بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأماثل دون اسقاط الجمهور » ، واللحن وخروجه عن حد البلاغة[4] موجود فى خطابة أرسطو حيث يوجب أن « يكون اللفظ فصيحا لا لحن فيه » ، ويذكر الجاحظ استعمال المبسوط فى مواضعه والمقصور (المحذوف الموجز) فى مواضعه[5] ، والايجاز والاطناب يوم الاطناب[6] ، وأرسطو أول من أشار الى ذلك كله فذكر الايجاز والاسهاب وأشار الى أن لكل منهما مقاما . وعلى أى حال فمرجع هذا التشابه فى الأفكار أرجح أن سببه نقل الجاحظ كثيرا عن الذين ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو فى النقد وعلى الأخص الخطابة والشعر .

ومع ذلك فالجاحظ يجهل كثيرا من النظريات التى شرحها أرسطو فى كتابيه ، فأنواع البيان والأساليب البلاغية الأنيقة التى ألم بها

---

(١) ١٠٥ و ١١٠ و ١/١٧٦ البيان .

(٢) راجع الشفاء لابن سينا وكل النصوص المنقولة هنا عن أرسطو فهى منقولة من الشفاء .

(٣) ٦٨ و ١١٠ و ١/١٧٦ البيان .

(٤) ١/١٢١ البيان .

(٥) ١/٥١ البيان ، ويشير الى ذلك فى مواضع أخرى من كتابه ١٤١ و ١٤٧ و ١٦١ و ١/١٨٠ البيان) .

(٦) ١٢٠ رسائل الجاحظ ، وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للايجاز مواضعه وللاطالة مواضعها (مقدمة أدب الكاتب) .

أرسطو[1] لا يشير اليها الجاحظ فى بيانه ، وهو على العموم لم يطلع على كتابى أرسطو ، ولا نشك فى أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التى شاعت فى عصره كثيرا ، ونقل عمن اطلعوا على خطابة أرسطو ، ويكفينا ذلك التحقيق فى هذا المقام .

وبعد فللجاحظ فى البيان العربى آثار كثيرة : كرسالة فى تفضيل النطق على الصمت[2] ، وكتابه البيان والتبيين .

والبيان « أول كتاب ظهر فى الأدب جامعا لفنون كثيرة من ضروبه »[3] ، ويشيد به أبو هلال[4] ، ويعده ابن خلدون من أركان الأدب[5] ، والكتاب يبحث فى فنون الأدب والبلاغة ويتناول النقد واللغة ويأتى على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين وآثارهم الأدبية وهو من أجل وثائق الأدب فى الجاهلية والاسلام[6] ، ويذكر ابن رشيق أنه لا يبلغ جودة وفضلا[7] ، ويذكر أبو أحمد العسكرى مثلا من تصحيف الجاحظ فيه[8] ، وينقد ابن شهيد الكتاب[9] ورد عليه بعض المعاصرين[10] . والكتاب يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم فى البيان كما يجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى

---

(١) كدراسته للاستعاره ، وللرباطات (حروف العطف) وأنها تجعل الكلام الكثير كالواحد ، وللجناس وسواه ، ونظرية أرسطو فى الوصل ، وهى التى يفيض عبد القاهر فى شرحها فى الدلائل .. ونصيب فى نقده للكميت فى قوله « تكامل فيها الانس والشنب » لأنه باعد فى القول (١/١٣٤ الأغانى ١/٣٥٥ الكامل) لا ينم ذلك عن معرفته بأسرار هذه الدراسات البيانية .

(٢) تجدها فى ١٤٨ — ١٥٤ رسائل الجاحظ .

(٣) ٨٠ العصر العباسى للاسكندرى .

(٤) ٦ و ٧ الصناعتين .

(٥) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون . (٦) ٣٥ الجاحظ لمردم .

(٧) ١/٢٢٧ العمدة .

(٨) ٥٣ و ٥٤ التصحيف والتحريف .

(٩) ١/١٩٨ ذخيرة . (١٠) ٢/٥٠ النثر الفنى .

وقوانين البلاغة العربيـــة وأنواعهـــا وعناصرها ومذاهبهـــا واتجاهاتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته أم من رأيه وتفكيره ، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة[١] ، أو كمـــا يصـــورها بشر بن المعتمـــر[٢] ، أو كمـــا يراها ابن المقفع[٣] ، ولهـــذه النصوص قيمة كبيرة ، وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربي لمـــا جمعه من النصوص التي توضـــح لنا كيف كان العرب الى منتصف القرن الثالث يتصوران البيان العربي وتعطينا صورة مجملة لنشأته[٤] .

وفي الكتاب كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة[٥] ، ويتكلم على الســـجع[٦] ، ويشـــير الى التفصـــيل والتقســـيم[٧] ، والاستطراد ، والكناية[٨] ، والأمثال[٩] ، والاحتراس[١٠] والقلب[١١] والأسلوب الحكيم[١٢] ، والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب الكلامي بهـــذا الاصطلاح[١٣] ، ويرى الجاحظ أن البـــلاغة في النظم لا في المعاني قال : والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وانما الشأن في اقامة الوزان وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة الســـبك[١٤] ، وهـــو ما ذهب اليـــه

---

(١) ١/٧٩ البيـــان .

(٢) ١/١٠٤ وما بعدها البيان .

(٣) ١/٩١ البيـــان .

(٤) ٣ مقدمة نقد النثر .

(٥) ١/١١٦ البيـــان .

(٦) ١/١٩٤ البيـــان .

(٧) ١/١٧٠ و ٢/٩١ البيان ، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة راجع ٧٨ نقد الشعر ، ٣٣٢ صناعتين .

(٨) ١/١٨٠ و ١ و ٢٩ و ٣١ و ٣/٨٥ البيان .

(٩) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ و ٢/٢٢٤ البيان .

(١٠) ١/١٦١ وما بعدها البيان .

(١١) ١/١٨٠ البيـــان .

(١٢) ٢٠١ و ٢٠٢ جـ ٢ البيان ، ويقرب من الأسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ « اللغز في الجواب » (٢/١١٦ البيان) .

(١٣) ١٠١ البديع ، ٢/٧٦ العمدة .

(١٤) ٣/٤٠ الحيوان .

ابن خلدون[1] ، ويقول شيلر : فى الفن الشكل هو كل شىء والمعنى ليس شيئا مذكورا •• وفى البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع فى اختيار شواهد أساليب البلاغة منها ، مما لا داعى الى ذكره هنا خوفا من كثرة الاسهاب ، والجاحظ يشيد بالايجاز ويدعو اليه كثيرا فى بيانه[2] ، وفى الحديث عن رسول الله : اذا قلت فأوجز واذا بلغت حاجتك فلا تتكلف[3] ، ويحث على ترك الوحشى والسوقى وعلى الافهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتهذيب فى صناعة الكلام ، وعلى أى حال فالبيان والتبيين أثر أدبى وعلمى نفيس ، والجاحظ يده على البيان العربى لا تجحد ، ويعده ابن خلدون من السابقين فى التأليف فيه[4] •

وبعد فالجاحظ أظهر من خص البيان بالتأليف وهو أعظم السابقين الى جمع وتدوين آراء رجال البيان والبلاغة ، وله مع ذلك آراء كثيرة وصل اليها بفكره وذوقه وملكته البيانية الدقيقة الاحساس بالأساليب البلاغية ودقائقها ، ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته فى كتاب البيان موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال[5] ، فهى على كل حال ذات أثر كبير فى نشأة البيان •

(جـ) وقد كتب بعد الجاحظ كثير من العلماء فى مسائل تتصل بالبلاغة والبيان : كالمبرد فى كامله ، وابراهيم بن المدبر فى الرسالة العذراء ، وثعلب فى قواعد الشعر ، وابن عبد ربه فى العقد ، وسوى هؤلاء مما يطول الحديث لو فصلنا القول فيه •

* * *

---

(١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون •
(٢) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ٢/١٩٨ البيان •
(٣) ١/٥ الكامل للمبرد •
(٤) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون •
(٥) ٦ الصناعتين •

الجاحظ والبيـــان العربي

— ١ —

كان الجاحظ أستاذ الثقافة الاســـلامية فى النصف الأول من القرن الثالث ، وكان مجده الأدبى الذائع يعصف بمجد كل أديب ، ويدوى فى كل أفق ، ويرن صداه فى سمع كل كاتب وشاعر وخطيب .

وعاش الناس فى عصره وبعد عصره عيالا عليه فى البلاغة والفصاحة واللسان والعارضة كما يقول ابن العميد ، وعدوا التلمذة عليـــه شرفا لا يعـــدله شرف ومجدا يدنيهم من بلاط الملوك ، وتعصب له كثير من رجالات الثقافة الاســـلامية فى شتى عصورها ، فألفوا الكتب فى الاشادة به — كما فعل أبو حيان التوحيدى فى كتابه تقريظ الجاحظ — ، وبالغوا فى الاشـــادة به والثناء عليـــه حتى حســـد ثابت بن قرة الأمة العربية عليـــه ، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ونهج كبار الكتاب نهجه فى الثقافة والبيان ، وكان فخر الرجل فى أن يلقب بلقبه ، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتثقفون بثقافتها ويرونها تعلم العقـــل أولا والأدب ثانيا ، وبلغ من اهتمام خاصـــة رجال الفكر الاســـلامى بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منهـــا فى البيت الحـــرام وعرفات ، وكان معاصروه يحـــذرون خصومته حتى لا يسمهم بميسم الخزى والهوان الى الأبد ، ومن ســـاء جده منهم فكان هدفا لسخريته اللاذعة ســـار على الأجيال صورة مشـــوهة واساءة لا يغفرها الزمن كما فعل الجاحظ مع أحمـــد ابن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتهكمة « التربيع والتدوير » .. وحســـبك أن المـــأمون كان يقـــرأ تآليف الجـــاحظ ويثنى عليهـــا ويســـتجيدها[1] .

---

(١) ٣/٢١١ البيان نشر السندوبى ط ٩٢٧

ومجد الجاحظ الأدبى مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة وهو مجد بوأه صرحه الخالد : كفاءته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة ، فقد عاش الجاحظ محروما من كل شىء الا من مجد الأدب ، وشهرة العلم ، ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التى كان يصعد اليها فى عهده كثير من الكتاب ، ولم تنله كفايته الأدبية منزلة فى ديوان رسائل الدولة ، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه ، أو قل انه حورب فيها من أجله حذرا من أن يأفل به نجم الكتاب كما كان يرى سهل بن هارون ، الاخفاق فى الحياة العامة الذى منى به الجاحظ فى عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه فى رسالته « الزوابع والتوابع » ، ومما جعله يخطىء من يذهب الى تقديم الجاحظ على سهل بن هرون ، وان كان تحكيم التوفيق فى الحياة فى وزن الشخصيات وتقديرها ضلال وغبنا .

ولكن ما سر هذا الاخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الذائع ؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقديم ابن الزيات وابراهيم بن العباس اما لأنه كان مقصرا فى الكتابة وجميع أدواتها أو لأنه كان ساقط الهمة أو لأن دمامته وافراط جحوظ عينيه قعد به عن الغايات المنشودة ، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شىء قد يكون غريبا فذهب الى أن أول أدوات الكتابة العقل وقد تجد عالما غير عاقل .

أما أن الجاحظ ينقصه أداة ـ أيا كانت هذه الأداة ـ من أدوات الكتابة فذلك ما ترده الحقيقة المقررة ، فعقل الجاحظ وفنه الأدبى وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق اليه فيها شك وريب . وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح ، لا يتطلع الى مجد ينشده أو جاه سلطان يناله ، فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح . وأما أن دمامة الجاحظ كان لها أثر فى هذا الاخفاق

فذلك أحد ما نراه من أسبابه الكثيرة حتى انه ذكر للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره صرفه وأمر له بعشرة آلاف درهم .

الحق أن الجاحظ كان عربيا في روحه ودمه وحياته ، وكان يتعصب للعرب في كل شيء حتى في الثقافة والأدب في عصر كان النفوذ والسلطان في الدولة فيه للعناصر الأجنبية لا سيما الفرس ، وكثيرا ما كان ينسى أولو الثقافة والكفايات من العرب الا من اتصل منهم بحبل وزير أو أمير ، والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبد الملك الزيات الوزير م سنة ٢٣٣ هـ ، والذي أهدى له كتابه « الحيوان » وكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، كان يتخلل هذه الصداقة الشك والجفاء ، ولم يستطع أو لم يتسن له ، أن يستفيد شيئا من وراء هذه الصداقة ، وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده عدوه اللدود أحمد ابن أبي دؤاد الذي سبق اليه الجاحظ مغلولا لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك ، ثم فك قيوده وطلب حديثه وبيانه وثوقا منه بظرفه وأدبه لا باخلاصه وولائه .

ثم لا ننس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب لا مواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة ، وقد رفعته مواهبه العقلية والعلمية والأدبية مكانا عليا ما كان ينتظر أن ترفعه اليه السياسة مهما حلق في أجوائها ، وكان اخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من اخلاصه للحياة نفسها ، وكان خوضه في معامع الثقافة والعلم يشغله عن الخوض في ميادين السياسة والاجتماع ، وكانت لذته في الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته في مجد السياسة وسلطانها ، فالجاحظ أولا وقبل كل شيء هو رجل الثقافة والأدب ، وهو المعتزلي الذي تتلمذ على النظام ثم عاف تقليد غيره في العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزليين ، وهو المتكلم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المفوه والعالم الفذ والمؤلف النابه وشيخ العربية

الذى وعى الثقافة العربيـة وما خالطهـا من الثقافات فى شـتى علوم الدين والدنيـا ، وهضمها وعاصرها زهاء قرن (١٥٠ ــ ٢٥٥ هـ) . وكان له فى صـدر شبابه فخر التلمذة على شـيوخها فى اللغة والأدب وفى علوم الدين والكلام وفى التفكير والمنطق كمـا كان له صـداقة رجال الفكر والسياسة فى الدولة ، وقد اسـتفاد من وراء هذا وذاك نضوجا كبيرا فى عقليته وثقافته هيأه لأن يكون محور الثقافة الاسـلامية فى عصره لا بطلا من أبطال السياسة والدولة والاجتماع .

ولا يضير الجاحظ أن يكون كما قال بديع الزمان الهمذانى فيه من أحد شـقى البلاغة يقطف وفى الآخر يقف[1] ، فقد يجيـد الرجل فى باب من أبواب الأدب دون باب ، ولا يغض ذلك من احسانه فيما أحسن فيه ، ولكن البديع أراد الفخر بنفسه على حساب الجاحظ ، وليته وقف عند هـذا الحد فلم يرم الجاحظ بأن كلامه بعيـد الاشارات قليـل الاسـتعارات قريب العبارات وأنه منقاد لعريان الكلام يسـتعمله نفور من معتاصه يهمله ، وأنه ليس له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة[2] . وانما أراد البديع أنه فوق الجاحظ أدبا وبيانا ، وهيهات !

وثقافة الجاحظ ثقافة واسـعة منوعة تحيط بسائر ألوان الثقافات التى مازجت الثقافة الاسـلامية فى عصره ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين وعالم يحيط باللغـة وبيانها وآدابها احاطة لا تقف عنـد غاية ، وقد خاض الجـاحظ فى جـداول الثقافات الأخرى التى سرت فى تيـار الثقافة العربية منـذ مشرق القرن الثانى الهجرى ، وعقلية الجاحظ البعيـدة التفكير لا نشك أنها أفادت ذلك من أسـتاذه النظام ومن علوم الفلسـفة والمنطق التى شاعت فى البيئـة الاسـلامية فى عصر الجاحظ . ولا شـك أن عصر الجاحظ ، وعقليته وشـغفه بالدراسة والبحث ، وعكوفه على القراءة ، ونشأته بالبصرة ،

---

(١) ص ٨٢ مقامات البديع ــ المقامة الجاحظية .
(٢) ص ٨٢ و ٨٣ المرجع .

وتلقيه اللغة من الأعراب فى المربد والعلماء فى حلقات البصرة ومجامعها العلمية ، وتلمذته على كثير من أساتذة الثقافة فى شتى مناحيها كأبى يوسف القاضى والنظام والأصمعى والأخفش وابن الاعرابى وأبى عبيدة • وأبى زيد الأنصارى ، كان له أثره فى ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب المتعددة الألوان •

وشخصية الجاحظ تطالعك فى أدبه وكتبه من كل جانب وناحية ، وهى شخصية رجل الفكر الواثق بشخصيته وعقليته وثقافته ، المؤمن بها ، الحريص على كرامته ، المعتز بنفسه ••• يخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم ، فلا ينفى شخصيته فى شخصياتهم ، بل يراهم اخوانه ، ويرى له عليهم حق الصداقة ودالة الأخرة ، ولا يجبن عن توجيه العتاب واللوم اليهم ، وأنت حين تقرأ فى كتب الجاحظ ومؤلفاته تغيب فى جو بعيد تطل عليك فيه شخصية الرجل ، بسعة ثقافتها وبعد مكانتها ، وبتوجيهها الساحر القارىء وفكره وشعوره حتى ليكاد ينسى أمامها نفسه ، ويشعر شعورا صادقا أنه قد نقلك من جوه هو الى جو آخر تشيع فيه روح قوية ساحرة تملك عليك عقلك وعاطفتك ، وتروعك بكثرة حفظها وروايتها ، كما تروعك بروعة فكرها وجلال بيانها ، وتتركك صريعا فى معارك فكرية ترى الجاحظ فارسها المعلم ، وترى قلمه البليغ عصا الساحر المتحدى تسترعى السمع والبصر ، وتبهت الفكر والعقل ، وتلهب العاطفة والشعور •

والعجيب أن سعة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته فى تآليفه جعلت كثيرا ممن لا يفهمون الجاحظ يرونه كاتبا لا شخصية له ، تطمس شخصيات من يروى لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته ، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ لسواه وتبدو أمام عينك صور شتى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم ولا تلمس آثاره بينهم •

ومنشأ ذلك أن الجاحظ رجل من الخاصة فى فكره وفى كتابته وأسلوبه وفى بحثه وتأليفه ، فاذا فكر فبعقل الخاصة ، واذا كتب

أو ألف فبأسلوبهم ولمن يفكر في مجال تفكيرهم ، وليس ذلك لأن الجاحظ « يستمسك بفائدته ويضمن بما عنده غيرة على العلم وشحا بثمرة الفهم ولذلك كان كتاب « البيان » موقوفا على أهله ومن كرع في حوضه ، أما الجاهل والمبتدىء فلا نفع له من كتابه » كما يقول ابن شهيد، انما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع الا أن يفكر تفكير الخاصة ، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم ، ولأنه رجل يكتب لنفسه قبل كل شيء ويرضى شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتابة الموسوعات • كما يرى بعض الباحثين المعاصرين[1] ، وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن يفهمه الا رجل مثله في فكره واتجاهه وثقافته ، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته في كتبه ومؤلفاته ما داموا لا يستطيعون مجاراته في نواحي ثقافته العقلية والأدبية • وحسب الجاحظ مجدا وخلود ذكر أن يكون له كتاب مثل كتاب البيان والتبيين •

* * *

— ٢ —

ألف الجاحظ كتابه « الحيوان » وأهداه الى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار • ثم ألف بعده كتاب « البيان » وأهداه الى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، والجاحظ يشير في مواضع متعددة من البيان الى كتاب الحيوان ، وكان لظهور « البيان والتبين » ضجة كبيرة في الأدب والبيان حتى انه حمل الى الأندلس فيما حمل من نفائس المؤلفات •

وكتاب « البيان » ألفه الجاحظ على نمط طريف في التأليف ، من كثرة الرواية التي قصد الجاحظ من ورائها أن ينال كتابه الشهرة والاعجاب كما يقول الجاحظ نفسه في كتابه ، وينال كتابه الذكر

---

(١) ٢/٤٩ النثر الفني •

والذيوع ، ومن كثرة الاستطراد الذى يستدر به الجاحظ نشاط القارىء واعجابه كما يقول الجاحظ فى تعليله له ، والجاحظ حين يعلل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكرهم فى كتابه ترتيبا يتمشى مع التاريخ يعجزه عن تنسيق ذلك فان ذلك يقابل بتحفظ كبير ، فالجاحظ لو أراد لما أعجزه انما هو مذهبه فى الاستطراد والانتقال .

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله ـ أو كثيرا منها ـ محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسبغ عليها أحيانا روحا توائم بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى اليه كتابه من تقدير واجلال ، وأسلوب الكتاب الاستطرادى جعل الجاحظ يعدنا فى كتابه بأنه سيذكر الشىء ثم لا يذكره ولا يفى بوعده ، وهذا الأسلوب الاستطرادى أيضا جعل الجاحظ ينقد نفسه فى ترتيب فصول كتابه وجعله يرسم منهجه فى أجزاء كتابه فى آخر الجزء الأول منه ، وجعله يضع فى أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارىء بمزيد الابتسام ، فهو يعنون فصولا بباب البيان وأخرى يسميها باب الصمت وأخرى باب اللحن أو باب الزهد الى آخر هذه الألقاب التى تعلم أن الجاحظ لم يرد شيئا منها ولم يضعها الا للتغرير بالقارىء واكتساب نشاطه وامتحان ملكاته .

وكتاب « البيان » يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم فى البيان كما يجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى وقوانين البلاغة العربية ، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر ، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم ، ورسم فيه صورا صادقة لروح الأدب والبلاغة الى عهده ، والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصر الجاحظ وهو ذو قيمة فذة فى تاريخ الأدب والأدباء لا سيما المعاصرين للجاحظ ومن سبقوه بقليل ، وقد عنى فيه الجاحظ بتدوين المثل الساحرة من الأدب العربى : شعره ونثره ، وقاده الاستطراد الى الالمام بكثير من مسائل الأدب والنقد والبيان .

يبدأ الجاحظ كتابه بمقدمة يذكر فيهـا البيان وشرفه ويلم فيهـا بالكثير من عيوبه الفطرية وسواها فى استطراد جميل ، ثم يشرح البيان ويحلل عناصره ، ويذكر البلاغة ومذاهب رجال البيان فيها ، ويبين الصلة بين البليغ ومظهره ، ذاكرا بلاغه الخطيب وعناصرها وأدواتها ، ملمـا بالكثير من الخطباء ، داعيا الى قوة الطبع وشرف المعنى وجمـال اللفظ والى مراعاة شتى المقامات والأحوال ، مبينا أثر هـذه البلاغة فى النفس والوجدان ، ويتكلم على الحديث المردد ومن عابه ومن مدحه ، وعلى الصمت : من أشاد به ومن ذمه داعيا البليغ الى أن لا يتمسك بحكمة الصمت حتى لا يورثه ذلك العى والحصر ، ويدعو الأدباء الناشئين الى أن يعرضوا انتاجهم الأدبى على أولى الذوق والبيان حتى يعرفوا قدر أنفسهم ومنزلتها فى البيان ، كما يتحدث عن السجع : مطبوعه ومتكلفه وعن منزلته الأدبية ، محللا عناصر الشعر نافيا أن يكون ما فى القرآن من كلمات موزونة شعرا ، ملما بطبقات الشعراء وألقابهم ، وينعى على المتقعرين ، ويسرد أحاديث النوكى والحمقى سردا بليغا ، وبذلك ينتهى الجزء الأول من الكتاب الذى أودع فيه الجاحظ جل ما أورده من بلاغة البيان وعناصرها وألوانها ومذاهبها وأسبابها •

أما الجزء الثانى فتحدث فيـه عن الخطابة وأقسـامها وأثرها ، وألم فيـه بسحر بلاغة رسول الله فى أحاديثه وخطبه ، وبخطب كثير من جلة الصحابة والسلف الأولين ، وتكلم عن الحوليات وطبقات الشـعراء ومذاهب المطبوعين وأصحاب الصنعة ، كما تكلم على اللحن واللحانين والنوكى والحمقى والمجانين •

وفى الجزء الثالث يرد على الشـعوبية مطاعنها التى قدحت بها فى العرب لا سيما ما نعوه عليهم من أخذ العصـا والقوس عند الخطـابة وفى مواقف الكلام ، ورد الجاحظ على الشـعوبية فيه كثير من حرارة الايمان التى أذكت فى دفاعه روح الجدل وقوة المناقشة وسعة التفكير • وينقل الجاحظ كثيرا من حكم النسـاك ومواعظهم ، وخطب الخوارج

وكلماتهم ، وسياسة بنى العباس ودهائهم ، ويتحدث عن رواية الأدب واتجاهات الرواة وطبقاتهم ، وعن كلام رسول الله وسحر ايجازه وبعده عن مذاهب العرب فى شعرها ، وعن أمية رسول الله مع بلاغته وعن مجد الشعر وأثره ومكانته الى غير ذلك من شتى الآراء ، ويختم الجاحظ كتابه بهذه الكلمة الجامعة : « وهذا أبقاك آخر ما ألفناه من كتاب البيان والتبيين ونرجو أن نكون غير مقصرين فيما اخترناه من صنعته . وأردناه من تأليفه . فان وقع على الحال التى أردنا والمنزلة التى أملنا فذلك بتوفيق الله ، وان وقع بخلافها فما قصرنا فى الاجتهاد ولكن حرمنا التوفيق والله أعلم » .

وبعد فكتاب البيان ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة التى أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب ، وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والاحاطة التامة بالبيان وبلاغته ، وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية الفذ وبطلها الكبير .

وأثر « البيان » وقيمته مما يعسر على الباحث تفصيله وايفاؤه فيها حقه من التقدير والانصاف ودقة الحكم :

فكتاب البيان أصل من أصول الأدب وهو فى أسلوبه وفى نهجه وفى رواياته وفى آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين فى آدابها .

وقيمته فى البيان العربى خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء فى البلاغة وعناصرها واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغاياتها وأثرها سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته وتدوينه أم من ابتكاره ورأيه الشخصى واتجاهه الأدبى المستقل ، وفيما جمعه الجاحظ من ذلك الكثير مما لا يزال محل اعجاب الباحثين وتقديرهم ، وكفى أن تقرأ فيه : البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة ، أو كما رآها ابن المقفع أو كما تحدث عنها بشر بن المعتمر فى صحيفة من تحبيره

وتنميقه الى غير ذلك من شتى الآراء التى كتبها الجاحظ مستقبلا بالتفكير فيها .

واذا كان للجاحظ فخر التلمذة والرواية ـ فى كتابه ـ عن شيوخ العربية وأدبائها كالأصمعى وأبى عبيدة وابن الأعرابى وابن سلام وأبى العاصى ، وكابراهيم بن السندى وعبد الكريم بن روح الغفارى ومحمد بن بشير الشاعر ، وكثمامة والنظام ، وسوى هؤلاء وهؤلاء ، فيجب أن لا ننسى أنه قد كان لعلماء الأدب والبيان الذين جاءوا بعد عصر الجاحظ هذا الفخر نفسه بالتلمذة عليه وعلى كتابه « البيان » .

فابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ تبع فى كتابه « الشعر والشعراء » الجاحظ فى مذهبه الأدبى من ايثار الطبع والرونق والماء والبعد عن التكلف والاستكراه والتعقيد .

ومؤلف نقد النثر يبدو فى كتابه أثر الجاحظ ، وهو وان كان نقد « بيان » الجاحظ فى أول كتابه الا أنه قد تأثر به الى حد كبير ، فكلامه على أنواع البيان ونظره اليه نظرة واسعة أعم من البيان بالعبارة هو صنيع الجاحظ فى كتابه ، ويتكلم على اختيار مواقع الكلام وأوقاته ومناسبته للسامعين ومطابقة الكلام للمقام[1] وتلك آراء الجاحظ ، ويرى أن اللحن يستحسن من الجوارى وأن من الصواب معرفة أوقات الكلام والسكوت وأقدار الألفاظ والمعانى بأن يلبس المعنى ما يليق به من اللفظ ، كما يرى أن من أوصاف البلاغة أن يتساوى فيها المعنى واللفظ فلا يكون اللفظ الى القلب أسبق من المعنى ولا المعنى أسبق من اللفظ ، وتلك كلها آراء الجاحظ ، الى غير ذلك من كثير من مظاهر التأثر والاحتذاء .

وكذلك دعا الآمدى الى المذهب الأدبى الذى دعا اليه الجاحظ فى كتابه البيان .

---

(١) ٩٦ نقد النثر .

ودعوة أبي الحسن الجرجاني في وساطته الى ترك التكلف والاسترسال مع الطبع[1] ، والى تقسيم الألفاظ على رتب المعاني هي دعوة الجاحظ في بيانه ، وان كانت مظاهر التأثر بالجاحظ تبدو معدومة في الوساطة .

وأبو هلال العسكري في « الصناعتين » متأثر بالجاحظ وكثير الافادة منه ومن كتابه « البيان » . وكتاب « الصناعتين » سير في السبيل الذي عبده الجاحظ واتمام لما بدأ به ، وكثير من آراء الجاحظ نجدها في الصناعتين وإن كان للصناعتين ميزة شرحها والتعليق عليها ، وقد ينقلها نفسها ، وقد يستدل بها ، وينقل وصية بشر بن المعتمر ويشرحها ، وعلى العموم فالجاحظ هو المرجع الأول لأبي هلال .

وكذلك ابن سنان الخفاجي ينقل في كتابه « سر الفصاحة » عن الجاحظ كثيرا .

وعبد القاهر الجرجاني شديد التأثر بالجاحظ وكتابيه « الحيوان » « والبيان » . يأخذ عنه كثيرا من آرائه بدون ذكر له ، وقليلا ما يشير اليه ، فكلام عبد القاهر عن البيان يتجلى فيه روح الجاحظ ورأيه في أن فضيلة الكلام لنظمه لا للفظه ولا لمعناه هو روح كلام الجاحظ ، وعبد القاهر ورأيه في السجع متأثر بالجاحظ ، وبلاغة الألفاظ من أن تكون مألوفة ليست وحشية ولا سوقية دعا اليها الجاحظ قبل عبد القاهر ، وتعريف عبد القاهر للبلاغة هو روح الجاحظ في بيانه ، وايثاره من الكلام ما كان معناه الى قلبك أسرع من لفظه الى سمعك مما سبقه اليه الجاحظ وينقل عبد القاهر عن الجاحظ كثيرا ، الى غير ذلك من مظاهر التأثر الكثير .

ولكتاب البيان كذلك أثره في النقد الأدبي فهو سجل حافل للآراء

---

(١) ٣٠ من كتاب الوساطة .

المختلفة فى النقد مما لا يزال الى الآن موضع البحث والاعجاب .. والجاحظ الذى نقد مذاهب أصحاب الصنعة من الشعراء وآثر عليها مذهب المطبوعين كان يضع بذلك آساسا كبيرا لعلم النقد وتطوره الأدبى .. وعصرنا الحديث يؤمن كل الايمان برأى الجاحظ ويسير فى تياره الفكرى والأدبى كما يسير على ضوئه فى البيان العربى وبلاغته .

* * *

— ٣ —

كان للعرب فى حياتهم الأولى ذوق وفيهم طبع ، وكانوا بهذا الطبع وذلك الذوق وفى مثل بيئتهم البدوية فى غنى عن الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل لأحكام النقد الأدبى ولأصول البيان العربى ومذاهبه واتجاهاته . كانوا يسمعون النص الأدبى فيوحى اليهم طبعهم بكل شىء ، ويرون من يسمع منهم ويأخذ عنهم فى غنى بذوقه وطبعه عن كل شىء ، ولذلك بقيت أصول النقد والبيان بعيدة عن البحث والدراسة والتقرير .

وفى ظلال الحياة الاسلامية اختلطت العناصر وتمازجت الثقافات وتجاورت الطباع والأذواق ، فسرت العدوى فى البيئة العربية الخالصة ، وظهرت فى مظهر من اللكنة المستهجنة ومن الخطأ المردود فى اشتقاق بعض الكلمات العربية وتصريفها وفى اعرابها وأشكال الحرف الواجبة لها، فسرت بين علماء الدين والعربية روح من الجد والاقدام والعزيمة التى صممت على تلافى آثار هذه العدوى حتى لا تمس العربية فى صميمها وفى كتابها المقدس الحكيم ، وظهرت لذلك الدراسات النحوية ثم اللغوية بمظهر جاد لا وناة فيه . بيد أن ذلك لم يثن رجال الأدب عن غاياتهم ، ولم يحل بينهم وبين اتجاهاتهم وطبائعهم ، فكثر النقد الأدبى ودخلته روح جديدة من البحث والتوجيه والتعليل ، وتكونت من ذلك أصول أدبية موجزة لها قيمتها فى الأدب والنقد والبيان .

وبعد أن أشبع الفكر الاسلامى رغباته من البحث والدراسة

فى تقويم اللسان العربى وتصحيح الملكات العربية فى النطق واللهجة ، اتجه رجال العربية ــ مع مسايرهم للدراسات العربية واللغوية ــ الى الدراسات الأدبية والبيانية حرصا على ارضاء ملكاتهم وأذواقهم وتمشيا مع التطور الفكرى والترف العقلى فى دراسة العربية وآدابها ، ومسايرة لروح البحث المتجلية فى الثقافات الأخرى التى امتزجت بالثقافة الاسلامية ، والتى كان لهـا الأثر والخطر فى اثارة مشكلات الأدب والبيان ، وفى بحث عناصر بلاغة الكلام ، وفى توجيه أذهان الكتاب والأدباء الى المجدى المقبول من الأساليب وطرق الأداء وفى التفكير والمعنى ، وفى مراعاة شتى المقامات وسائر الأحوال التى يجب على الأديب والخطيب والكاتب والشاعر مراعاتها والالمام بها . وكانت عناصر الثقافة البيانية والأدبية اذ ذاك تتجلى فى طبقتين :

(أ) طبقة رواة الأدب العربى من البصريين والكوفيين والبغداديين، الذين كانوا يرونه اشباعا لنهم فطرتهم وأذواقهم الأدبية العربية الخالصة ، من أمثال : خلف والأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة وابن سلام ، وأستاذهم أبو عمرو ابن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية[1] ومن عامة رواة الأدب والبيان الذين لا يقفون الا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة ، وعن الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المكن والسبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى التى اذا صارت فى الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة ــ كما يقول الجاحظ ــ دون النحويين الذين ليس لهم غاية الا كل شعر فيه اعراب ، والأخباريين الذين لا يقفون الا على كل شعر فيه الشاهد والمثل ، واللغويين الذين لا يرون الا كل شعر فيه غريب[2] . بجوار هذه الطبقة الشعراء الذين طارت شهرتهم فى آفاق الأدب العربى أمثال ابن هرمة وبشار وصالح بن عبد القدوس وأبى نواس وأبى العتاهية والسيد الحميرى

(١) ١/٢٠٦ البيان .

(٢) ٣/٢٢٤ البيان .

وأبان اللاحقى ومنصور النمرى وسلم الخاسر وابن أبى عيينة ويحيى ابن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن بشير والعتابى ومسلم وأبى تمام[1] ، وغيرهم من الخطباء ، ورجال الأدب والبيان ، من بيت بنى هاشم وبنى العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لا سيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء[2] .

(ب) طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا[3] ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم[4] وحكم مذهبهم فى نقد[5] البيان ، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتهم ثم قرءوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يحدثون فى اللغة العربية مذاهب جديدة فى الكتابة والأدب والبيان ويدعون الى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبى وترضى اتجاهات الحضارة والترف العقلى والاجتماعى الذى داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثانى ، كما أخذوا يلقنون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايعين لهم من شداة الأدب كما ترى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى م سنة ٢١٠ هـ فى أصول البلاغة التى يقول الجاحظ عنها : ان بشرا مر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن ابراهيم أنه انما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : أضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا ، ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه فى أصول البلاغة وعناصر البيان[6] ، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك

---

(١) البيان ١/٥٤ .
(٢) ١/١٠٦
(٣) ١/١٠٥
(٤) ٣/٣٢٥
(٥) ١/٢٤٠
(٦) ١/١٠٤

وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ[1] ، وعبد الله ابن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى ابن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد ابن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة الذين صعدوا بفنهم وبلاغتهم الى أرقى المناصب فى الخلافة الاسلامية ، وكان لهذه الطبقة أثرها فى بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام ورسم المذاهب الأدبية التى توائم ذوق بيئتهم وعصرهم مما نراه مبثوثا فى كتاب البيان والتى لا تخرج عن أحكام الذوق الأدبى السليم ولا يتعمد أصحابها فيها مذاهب العلماء فى الشرح والتحليل •

وظهر الجاحظ والبلاغة العربية تفيض سحرا وقوة وروعة ، سواء فى خطب الخطباء وشعر الشعراء ورسائل الكتاب ومحاضرات المحاضرين وجدل المجادلين • كما ظهر وعناصر البيان العربى تكاد تخطو فى طفولتها نحو الغاية وتسير فى هدى العلم والذوق الى منزلتها من الوضوح والتمايز والاستقلال ، فدخل الجاحظ المعمعة وتوسط الميدان وسار أنبه أبطاله المعلمين •• أما الجاحظ فى بلاغة بيانه وجلاله أسلوبه وحلاوة منطقه واستقلاله بمذهب خاص فى الكتابة والبيان فهو فى ذلك ليس له نظير ولا ينكر عليه أحد ، ويحق ما وسم بشيخ الكتاب •• وأما الجاحظ فى وضع أسس البيان وعناصر البلاغة العربية فهذا ما نريد أن نعرف أثره فيه •

خدم الجاحظ البيان العربى خدمة لا تقدر ، بالكتابة — فى كتبه — فى شتى بحوثه وجمع مختلف الآراء والمذاهب فى عناصره وألوانه • ولم نعلم أن باحثا أفرد البيان العربى بتأليف قبل الجاحظ ، كما كان كل ما هناك آراء مبثوثة متفرقة لكثير من رجال البيان والأدب ، وكانت خسارة البيان فى عدم تدوينها تكاد تكون فادحة بالغة

---

(1) ١/١٥١

منتهاها ، وما نجد فى الكتاب لسيبويه ومجازات القرآن لأبى عبيدة والشعر والشعراء لابن سلام فانما هو قليل من كثير اذا قيس بما جمعه الجاحظ فى كتبه ومؤلفاته ، نعم لا يمكن لأى باحث أن ينكر حقيقتين هامتين :

أولاهما أن الجاحظ أظهر من أفراد البيان بمعناه العام بالتأليف فى كتابه الكبير « البيان والتبيين » ، وثانيهما أن له فضل جمع مختلف الآراء والمذاهب فيه ، والجمع والاحصاء أول خطوات البحث والابتكار والتجديد ، ومنزلة العالم فى الجمع لا يمكن الغض منها أو الاستهانة بها ، واذا قرأت كتب الجاحظ لا سيما « الحيوان » و « البيان » عرفت منزلة الجاحظ فى هذا السبيل . ومن الغريب أن ترى شخصية الجاحظ واضحة فيما يجمعه وضوحها فيما يبتكره من آراء ومذاهب بعكس كثير من العلماء والباحثين .

والجاحظ فوق أثره الكبير فى جمع آراء رجال البيان والبلاغة فى مذاهبهما وعناصرهما فى كتابه « البيان » على الخصوص ، له وراء ذلك فضل خاص وجهد مستقل فيه ، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها بشخصيته واستمدها من عقليته وثقافته وعرفت له وحده دون سواه من الباحثين فى البيان العربى وقواعده ، وقبل أن نفصل ذلك كله نتساءل : ما هو البيان الذى نريده ويعنيه الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » ؟

لا شك أن الجاحظ لم يعن بالبيان ذكر قواعد البلاغة العربية وأدائها فى ألفاظها وأساليبها ومعانيها كما فهم مؤلف نقد النثر ونقد على ضوئه الجاحظ فى كتابه البيان حيث يقول : « أما بعد فانك ذكرت لى وقوفك على كتاب عمرو بن بحر الجاحظ الذى « سماه البيان والتبيين » وأنك انما وجدته قد ذكر فيه أخبارا منتخلة وخطبا منتخبة ولم يأت فيه بوصف البيان ولا أتى على أقسامه فى هذا اللسان ،

وكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذى نسب[1] اليه » .

ولا شك أن أبا هلال العسكرى كان أدنى الى الانصاف حينما نوه فى كتابه الصناعتين بكتاب « البيان » وذكر خطورته كمؤلف من مؤلفات البيان العربى ، وان كانت أبحاثه فى البيان موجزة مفرقة[2] ، فهو بدون شك ومهما أردنا بكلمة البيان من معان مؤلف من مؤلفات البيان ، ولا يضيرنا بعد ذلك ان كانت بحوثه فى البيان مجملة أو مفصلة مجموعة أو مفرقة ، ونحن على كل حال فى الرأى مع أبى هلال .

ولا شك أيضا أن ابن شهيد حين ذهب الى أن كتاب « البيان للجاحظ » لم يكشف فيه مؤلفه عن وجه تعليم البيان ليرى القارىء كيف يكون وضع الكلام وتنزيل البيان وكيف يكون التوصل الى حسن الابتداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء ، وأن الجاحظ استمسك بفائدته وضن بما عنده غيرة على العلم وشحا بثمرة الفهم[3] قد ظلم الجاحظ وكتابه وحكم عليه حكمه متأثرا باتجاهه هو فى البيان الذى انتحى فيه ناحية تطبيقية حتى كان كما يقول يعلم الشحاذ الأساليب التى يستدر بها عطف الناس[4] . فابن شهيد حين أراد أن يكون كتاب « البيان » كتابا يرسم فيه مؤلفه طرق الأداء ويعبد سبل التعبير عن مختلف الأغراض التى تؤثر فى عقول الناس وعواطفهم ، قد ظلم الجاحظ مرتين : ظلمه حين تناسى ما كتبه وما جمعه الجاحظ فى رسم المذاهب الأدبية المختارة فى الأداء والتعبير ، وظلمه مرة أخرى حين حكم فيه اتجاهه هو ونقده على ضوئه وقاس كتابه بمقياسه .

وعلى كل فالجاحظ انما أراد بالبيان ما كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضى السامع الى حقيقته[5] ، وأراد

---

(١) ص ١ نقد النثر . (٢) ٦ و ٧ الصناعتين .
(٣) الزوابع والتوابع ، والذخيرة .
(٤) الذخيرة . (٥) ١/٦٨ البيان .

ما أراد جعفر بن يحيى من البيان ، وهو أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلى عن مغزاك وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة والذى لابد منه أن يكون سليما عن التكلف بعيدا من الصنعه بريئا من التعقيد غنيا عن التأويل[1] ، أراد به ساحر الأدب ورائعه من نثر ونظم وأسجاع ورسائل وخطب ومقالات وأحاديث وحجاج ، وأراد به أمثل الأساليب وأقوم الألفاظ التى تقرب ما غمض من المعنى وتوضح ما خفى من الأفكار ، ذاكرا معها أصحابها من أولى اللسن والخطابة والبلاغة فى المنثور والمنظوم ، ولذلك كان كتابه أخبارا منتحلة وخطبا منتخبة كما يقول مؤلف نقد النثر ، والجاحظ لا يكتفى بذكر ذلك وحده بل يذكر المذاهب الأدبية العامة فى عصره وقبل عصره فى النقد والأدب والبيان كلما دعا اليها داع أو ألمت بها مناسبة ، ويذكر فى سياق ذلك آراءه الأدبية التى يؤثرها ويدعو اليها فى شيء من الاجمال والايجاز وفى مواضع متفرقة من كتابه كما يقول أبو هلال .

* * *

— ٤ —

ارتاب بعض الباحثين المعاصرين فى شخصية الجاحظ فى كتابه البيان ، ورأى أنها تكاد تكون معدومة فيه[2] . وهذا موضع مناقشة هذه الفكرة الجائرة .

ان من يمعن فى كتاب « البيان » يؤمن معى ايمانا جازما بمدى ما فى هذا الرأى من جور على الجاحظ وغبينة لكتابه ، فشخصية الجاحظ فى كتابه البيان ليست معدومة ولا ضعيفة ، بل نراها قوية مهيمنة ونلمسها فى ثناياه فى مظاهر منوعة :

فهى فيما يذكره الجاحظ من أدب ورواية ، وفيما يسرده من آراء رجال البيان العربى فى البلاغة وعنصرها ومذاهبها ، ويكفى لظهورها

---

(١) ٨٥ و ١/٨٦ البيان .   (٢) ص ٧ مقدمة نقد النثر .

في ... المأثور صبغ شخصية الجاحظ لهذه الروايات بصبغته ، وهضم ... لها واخراجها في أسلوبه الساحر ، وفي استطراده الفاتن العجيب ، وفي ... تامة واحاطة كبيرة باللغة والأدب والبيان .

وفي في تعليقه على هذه الروايات والآراء . وفي نقده لها وحكمه عليها ، وان نتعدى من ذلك نقده للآراء العامة في الأدب وما يتصل به ، ... نراه في تعليقه على رأى الأهتم في الأحنف بن قيس[1] ، وفي موافقته لرأى أياس في حمد اعجاب الرجل بقوله[2] ، وفي تعليقه على الحكمة القائلة : قيمة كل امرىء ما يحسنه[3] ، وفي ثنائه على ... بلاغة لمحمد بن على [4] ، وفي نقده لرأى في تعليل تهيب عمر في خطبة النكاح[5] ، وفي مناقشته لكلمة عن ابن الزبير[6] ، وفي نقده لمن يستحمق المعلمين ورعاة الغنم[7] ، وفي نقده لرأى من يضع العرب دون الامم العريقة في الثقافة[8] ، وفي نقده رواية خطبة رويت لمعاوية[9] الى آخر ما فيه من التعليق والنقد في هذا الباب . انما نريد نقده لما يتصل بالبيان من آراء ومذاهب تمس صميم البلاغة العربية ، ولا بأس أن نعد بعض هذه التعاليق والنقود .

أنشد خلف الأحمر الجاحظ :

وبعض قريض القوم أولاد علة — يكد لسان الناطق المتحفظ

تعلق الجاحظ على هذا البيت تعليقا جميلا ، فالشعر « اذا كان مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات ... وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فيعلم بذلك أنه أفرغ افراغا جيدا

(1) ٥٧ ، ١/٥٨ — (2) ١/٨٢
(3) ١/٧٣ — (4) ١/٧٤
(5) ١/٩٢ — (6) ١/١٩٢
(7) ١/١٧٤ — (8) ١/١٤٣
(9) ٢/٥٧

وسبك سبكا واحدا ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى على الأذهان[1] » وذلك تقرير لبلاغة الألفاظ والنظم ولتنافر الحروف والكلمات سبق اليه الجاحظ عبد القاهر وتسيعنه والسكاكي ومدرسته بقرون ٠

ويرى بليغ أن بلاغة الكلام فى أن يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه الى سمعك أسبق من معناه الى قلبك ؛ والجاحظ ينثى على هذا الرأى ويجتبيه[2] ٠

ويرى ابن المقفع أنه يجب أن يكون فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى اذا سمعت صدره عرفت قافيته (١/٩١ بيان) ، فيشرح ذلك الجاحظ ويدلى برأيه فيه[3] ، مقررا بلاغة الاستهلال تقريرا ليس بعده من غرابة ٠

والجاحظ جد معجب ببلاغة الكتاب ، يتجلى ذلك فى نقده للمذهب الأدبى فى الكتابة والبيان[4] ؛ وهو يرى أن حديث الأعراب الفصحاء بالغ الغاية فى الامتاع ، وليس أفتق للسان ولا أجود تقويما للبيان[5] منه ، كما يعجب ببلاغة المتكلمين والنظارين ويراهم فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء[6] ٠

وذكر الجاحظ رأى ابراهيم بن محمد فى البلاغة وأنه يكفى من حظها ألا يؤتى السامع من سوء افهام الناطق ولا الناطق من سوء فهم السامع ، ثم أشاد به وأثنى عليه (١/٧٥) ٠

واختلف علماء البيان فى الخطابة وهل يستجاد فيها الاشارة والحركة ؟ فذهب النظام الى استجادتها ، وجعلها رجل كأبى شمر

---

(١) ١/٦٢ (٢) ١/٩١
(٣) ١/٩٢ (٤) ١/١٠٥ و ٣/٢٢٥
(٥) ١/١١٠ (٦) ١/١٠٦

عيبا فى الخطيب ، والجاحظ يذكر ذلك ويميل الى رأى أستاذه النظام محللا رأى أبى شمر ويرجعه الى صفاته الخلقية والنفسية من الوقار والتزمت (٦٩ و ٧٧ و ١/٧٨) .

ويختلفون كذلك فى شىء آخر يمس الخطيب والبليغ ، فهل السمت والجمال من تمام آلة البليغ أو لا ؟ يورد الجاحظ ذلك ويذكر بتفصيل رأى سهل بن هرون فى عدم عدهما من أدوات البلاغة (١/٧٦) ، ولا شك أن الجاحظ كان يدافع عن نفسه بما أورده وفصله فى ذلك الموضوع .

وكثرة الكلام يراها بليغ كاياس خيرا وبلاغة ، ولكن الجاحظ يرد عليه ، لأن للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية (١/٨٢) ... وكذلك اعادة الحديث من العلماء من ذمة ومنهم من حمده ومنهم من جعل لحمده مواضع وأسبابا ، والجاحظ يتكلم فى ذلك ويدلى برأيه فيه ويجعله على قدر المستمعين له ودرجاتهم العقلية ، ويعلل سر ما فى الذكر الحكيم من اعادة وتكرير (٨٤ و ١/٨٥) .

والجاحظ يروى وصف ثمامة بن أشرس لبلاغة جعفر بن يحيى (١/٨٥) ، ويصف هو بلاغة ثمامة (١/٨٩) ، ويصف بلاغة بليغ يحذر من سحر الكلام وأثره ويدعو الى اجتناب السوقى والوحشى والى أن لا يجعل الأديب همه فى تهذيب الألفاظ وشغله فى التخلص الى غرائب المعانى (١٧٦ و ١/١٧٧) . والجاحظ هو نفس هذا البليغ . وكثيرا ما يتكلم فيخرج آراءه فى معرض الرواية عن سواء لغرض سنعلمه بعد حين ، وذلك كله يستحق الدراسة والامعان ، لأنه يمس عناصر البيان وبلاغته .

والخطبة يستحسن أن يكون فيها آى من القرآن أو بيت من الشعر أم لا ؟ يذكر ذلك الجاحظ ويروى مذاهب البلغاء فيه (١/٩٣) ، ويذكر أن منها الطوال ومنها القصار ، وأن لكل مواضع تليق به (٢/١٩) .

ويرى العتابى أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ ، فيذكر الجاحظ ذلك ويحلله (١/١٢١) .. والصمت يحمده قوم ويذمه قوم (١٤٣ ــ ١٤٦ ، ١/١٨٣) والجاحظ يقف من هؤلاء وهؤلاء موقف الناقد الحصيف ، فيناقش رأى من آثر الصمت (١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٥ جـ ١) ويدلى برأيه هو فى قوة وروعة ، داعيا الى ألا يتمسك البليغ بحكمة الصمت مادام يجد القوة والمقدرة والملكات البيانية المواتية (١/١٤٧) .

والشاعر أو البليغ قد يستطيع فنا من فنون البيان ويجيد فيه دون فن آخر ، ورأى بعض الشعراء حين سئلوا عن عدم احسانهم فى بعض أنواع الشعر وفنونه أن ذلك ليس مرجعه قصورا فى ملكاتهم أو عجزا فى مقدرتهم الأدبية ، والجاحظ يناقشهم ويفيض معهم فى الجدال ذاهبا الى أن الرجل قد يكون له طبع فى فن من فنون الأدب دون فن وفى باب دون باب (٥١ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، جـ ١ ، ٢٥٩ جـ ٢) .

وبلاغة المتقعرين من اللغويين والنحويين يستسمجها الجاحظ وينقدها ويرى أن نهجهم فيها ليس من أخلاق الكتاب ولا آدابهم (١/٢٤٠) .

وللشعوبيين رأى فى العرب وبيانهم ، والجاحظ لا يدعهم دون أن يحاسبهم ويناقشهم ويرد عليهم فى قوة وحرارة دفاع ، وفى كل ما أخذوه على العرب ، لا سيما ما يمس البيان والبلاغة بوجه خاص (١٥ و ٣/١٦) .

ويرى بعض الباحثين أن أداة الكتابة وقريض الشعر كانت فى رسول الله (ص) معدومة ، فيناقش الجاحظ رأيهم ذاهبا الى أنها كانت فى رسول الله تامة ، ولكنه (ص) صرف تلك القوى الى ما هو أزكى بالنبوة ، وأراد أن لا يكون للشاعر متعلق عما دعا اليه ، وأنه (ص) لما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته صار لسانه

لا ينطق به ، والعادة توأم الطبيعة (٣٣٠ و ٣/٢٣١) ، ونحن نستجيد رأى الجاحظ كل الاستجادة ، وعلل الجاحظ أمية رسول الله وعدم قرضه الشعر فى افاضة وقوة بيان (٢/٢٢٨) ، وأدلى برأيه فى قوله (ص) : نحن معشر الأنبياء بكاء (٣/٢٧٦) •

وأخيرا فهذه هى شخصية الجاحظ فى بعض ما ناقش فيه آراء رجال البيان وهى لعمرى شخصية قوية مهيمنة لا تدعك حتى تؤمن بالجاحظ وثقافته ومذهبه واتجاهه فى الأدب والبيان •

للجاحظ فوق ذلك كله شخصية الباحث فى أصول البيان العربى :

١ ـ فالجاحظ أظهر من تكلم فى البيان وحاجته الى التمييز والسياسة والترتيب والرياضة والى تمام الآلة واحكام الصنعة ، والى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف واقامة الوزن وأن حاجة الكلام الى الحلاوة كحاجته الى الجزالة • وأن ذلك من أكبر ما تستمال به القارب وتزين به المعانى (١/٣٠) ولذلك فقد تحدث عن عيوب المنطق وآفات اللسان (٣١ و ٣٣ و ٤٤ ـ ٤٦ و ٥٨ ـ ٦٢ و ٦٦ و ٦٧ جـ ١) ، وتكلم على تنافر الحروف والألفاظ (٦٢ ـ ٦٤ جـ ١) ونادى بضرورة تجنب البليغ ألفاظ المتكلمين (١٠٦ ـ ١٠٨ جـ١) وبترك الوحشى والسوقى (١١٠ ، ١٧٦ جـ ١) وكراهة الهذر والتكلف والتعقيد والتقعير والاسهاب والفصول (٢١ و ١٤١ و ٢٣٩ جـ ١) ، ونفى الكلام الملحون عن أن يكون من البلاغة (١٢١ ـ ١٢٤ جـ ١) متحدثا عن اللحن واللحانين (١٥٤ ـ ١٥٥ جـ ٢) • وذكر البيان وأن مداره على الأفهام (١/٦٨) والوضوح مع شرف المعنى وبلاغة اللفظ وصحة الطبع والبعد عن الاستكراه والتكلف ومع قوة التأثير وسحر البيان (٧٣ و ٧٥ و ٨٩ جـ ١) وأن يكون الكلام موزونا أصيب به مقدار الحاجة (١٦١ و ١٦٢ جـ ١) مع العارضة واللسن (١٣٠ ، ١٦٣ جـ ١) ومع ترك الاسراف فى الصنعة والتهذيب (١/١٧٦) ومع استعمال

المبسوط والمقصور في موضع البسط والقصر (١/٢٨١) ومع الطبع المتمكن والديباجة الكريمة والماء والرونق (٢٢٤ و ٢٢٥ جـ ٣) ومتى شاكل اللفظ معناه وأعرب عن فحواه وكان لتلك الحال وفقا ، ولذلك القدر لفقا ، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف والفضول والتعقيد ، حبب الى النفوس واتصل بالأذهان وهشت اليه الأسماع وخف على الألسن وشاع في الآفاق • وكثيرا ما يكرر الجاحظ اصطلاحات أدبية خاصة مثل (صناعة الكلام) (٦٩ و ٢٢٠ جـ ١) وصناعة المنطق (٤٨ و ٦٧ و ٢٠٩ و ٢٤٢ جـ ١) وهو يعني بذلك هذا اللون الخاص من البيان البلاغي الذي يرسم مناهج الأداء •

وعني الجاحظ أكثر ما عني بالخطابة فأطال الكلام في أوصافها وعناصرها وأدواتها ومظاهرها وفي هيئة الخطيب وسمعته ، وذكر عيوبها وآفاقها ، ودعا الخطيب الى مراعاة شتى المقامات والأحوال ، والى أن يطيل حيث تجب الاطالة ويوجز حيث يجب الايجاز ، وذكر أكثر أعلامها ورجالها حتى عصره ، كما تكلم على رسالة الخطيب وأثرها في نفسه ، وأورد من الخطب القصار والطوال الكثير الرائع •

وتكلم على النثر والمحادثة والكتابة : بلاغتها وعناصرها ومذاهب الكتاب الأدبية فيها ، وعلى سحر الحديث المعاد ، والسجع مطبوعة ومتكلفة وبلاغة المطبوع منه ، وعلى اللحن وبدء ظهوره واللحانين ، وكثير من المثل في لحنهم ، وذكر الحكم والمواعظ والزهد والدعوات السياسية والدينية وكثيرا من مثلها ، وتكلم على رواية الأدب وطبقات الرواة من نحويين ولغويين واخباريين وأدباء واتجاهاتهم في الرواية •

كما ذكر الشعر وأثره وخطره وألوانه وطبقات الشعراء ، وتحدث عن مذاهب المطبوعين وأصحاب الصنعة منهم ، وعن الحوليات ورجالها ، وذكر بعد كلام الله ورسوله عن الشعر ، ومكانة الشعر والشعراء في الجاهلية وكيف غلبته الخطابة أخيرا بعد التكسب بالشعر وكثرة الشعراء ، وحتم على الأدباء الناشئين عرض ثمراتهم الأولى على أولى

العلم ورأى أن اجتماع الشعر والرجز والخطابة قليل ، وقلما ينبه الانسان فى أكثر من فن واحد منها ، وأن الشعر والغناء والنادرة مما يستجاد أطرافها دون أوساطها ، وتكلم على استواء الشاعرية واختلافها . الى غير ذلك مما يتصل بصميم البيان ، ومما تراه متفرقا فى الأجزاء الثلاثة من كتاب البيان .

٢ ــ ودعوة الجاحظ فى كتابه « البيان » ــ وفى مواضع متفرقة منه لاسيما الجزء الأول من كتابه الكبير ــ الى مذهب أدبى جديد مستمد من عقليته وثقافته وبيئته : هى المظهر القوى من مظاهر شخصية الجاحظ الواضحة فى كتابه البيان والتبيين . ويمكننا ارجاع هذا المذهب الى عناصره الأولى من : سحر اللفظ وتلاؤم الحرف ، ووضوح المعنى وترك التكلف والتعقيد والاغراب والوحشية والسوقية ، ومراعاة المقام واصابة الغاية ، مع الحذق والرفق والتخلص الى حبات القلوب واصابة عيون المعانى فى سحر ايجاز ، ومع البعد عما يكره من مظاهر مذمومة فى البيان مما يتعلق بخلق البليغ وخلقه أو طبعه وزيه ، ومع الحرص على صبغ ذلك كله بصبغة الرجل وأسلوبه وظهور شخصيته وأثره فيه ، ومع مسايرة الأديب للحركة الفكرية العامة فى بيئته ، ومع الحرص على اثار نشاط السامعين والقراء والاحتيال عليه ، بالفكاهة الجميلة ، والاستطراد الساحر ، وبراعة الأسلوب وسحره وقوته ، والرواية الكثيرة لأعلام الأدب والبيان التى تلقى فى روع السامع والقارىء روح الهيبة والاعجاب بهم وبالمؤلف ، وبمناقشة الآراء التى تستحق المناقشة والنقد مما تجعل السامع والقارىء متطلعا مسايرا للمؤلف فى اتجاهاته الفكرية والأدبية ، الى غير ذلك من عناصر هذا المذهب الأدبى التى ترجع الى المعنى والأسلوب دون حرص على ترف البيان أو طلب لشتى ألوان البديع الا اذا طلبها الطبع واستدعاها المقام ، ومن الجدير بالملاحظة أن كثرة الرواية فى كتاب الجاحظ التى رآها بعض الباحثين المعاصرين من أسباب ضعف شخصيته انما هو غرض قصد اليه الجاحظ وأراده ، ليشعر القارىء بروحه ويؤمن

بما يوجهه المؤلف اليه من آراء وأفكار ، وليكتسب به رضاه وتقديره واعجابه • ولا أحيلك فى فهم مذهب الجاحظ ذلك على صفحة من كتابه ، فاقرأ أى صفحة وعلى الأخص الجزء الأول من هذا الكتاب ، فستؤمن معى بما ذكرت •

٣ ــ وقد ظهر الجاحظ فى عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان : اتجاه يرمى الى الظهور بمظهر البداوة التقليدى فى الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الألفاظ والعنجهى من الأساليب متناسيا روح العصر وذوقه ، والاتجاه آخر تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية وبألوان الحضارة فى العيش والتفكير ، فمال الى رقة الأسلوب وسهولته ، مع حرص على ارضاء الطبع والذوق ، وشاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية والأدبية المنوعة وعاصرها ولكنه مال بطبعه وذوقه الى الاتجاه الأخير ، وكتابه البيان كله دعوة الى هذا الرأى ، فهو حينا يشيد بأدب الكتاب ومذهبهم فى البيان (١٠٥/١) ، وحينا يكرر الدعوة الى الوضوح والافهام ومسايرة الذوق والطبع (٧٣ جـ ١ و ٢٠ جـ ٢ و ٢٢٥ جـ ٣) ، وحينا ينقد مذاهب الصنعة فى الشعر (٥٤ ، ١٥٠ جـ ١ و ٢١ ، ٢٥ و ٢٦ جـ ٢) ، وحينا يدعو الى ترك التكليف والتعقيد والتقعير وايثار الأساليب السمحة الكريمة (١١٠ جـ ١ و ٢٠ ، ٢١ جـ ٢ و ٢٢٤ جـ ٣) •

٤ ــ وتكلم الجاحظ عرضا على ألوان كثيرة من البيان ، وحال كثيرا من أساليبه البيانية :

ذكر البديع ، حينما ذكر بعض مثله وأساليبه ، ورأى أنه مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وذكر كثيرا من الشعراء الذين أكثروا منه فى شعرهم ، « ورأى أنه لم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة (٢٤٢ جـ ٣ ، ٥٤ و ٥٥ جـ ١) •• وتكلم على ألوان من البيان من سجع ومزدوج وقصيد وأجازة (١٦ جـ ٣) ، فأما السجع فقد تكلم عليه الجاحظ بتفصيل وذكر آراء رجال البيان فيه

وآثر المطبوع منه (١٩٤ و ١٩٥ جـ ١) وأما المزدوج من الكلام فقد ذكر له مثلا في باب صغير عقده له (٩٦ جـ ٢) ومن مثله التى ذكرها الحديث : « اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب » . وقول مالك ابن الأخطل فى الشاعرين « الفرزدق وجرير » : جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر .

وتكلم على الاستعارة وعرفها حين ساقه الكلام الى ذكر مثل من مثلها ورآها تسمية الشىء باسم غيره اذا قام مقامه (١١٥ و ١١٦ جـ ١) ، ويرجع بعض الأساليب الى الاستعارة (راجع ١٩٢/١) .. وذكر التفصيل والتقسيم حين مر بأسلوبين من أساليبهما (١٧٠/١ ، ٩١ و ٩٢/٢) .. وتكلم على الاستطراد وبلاغته وأثره فى التأليف والكتابة (١٣٨/١ ، ١٠٥/٣) .. وذكر كثيرا من مثل الكناية وحللها (١٨٠/١ ، ٣١ جـ ٣) ، كما ذكر كثيرا من الأمثال التى ضرب بها العرب المثل (٨٦ ، ١٨٣ جـ ١) .. وتكلم على جودة الابتداء ، وجودة القطع والقافية — أى حسن خاتمة الكلام والشعر — (٨٩ و ١٥٥ جـ ١) .. وعقد الجاحظ بابا قال فيه : ويذكر الكلام الموزون ويمدحون به ويفضلون اصابة المقدار ، وذكر كثيرا من مثله ، وهذا هو باب الاحتراس الذى ذكره البيانيون .. وحلل الجاحظ كثيرا من الأساليب البيانية البليغة (راجع ١٦٣ ، ١٦٦ جـ ١ و ٢٠١ جـ ٢) تحليلا بيانيا احتذى حذوه فيه العلماء وذكر مثلا رائعة للتشبيه (٢٢٩/٢) وأشار اليه فى الجزء الثالث ص ٢٤٣ ، وعقد الجاحظ فصلا من فصول كتابه عنونه بباب اللغز فى الجواب (٢١٦/٣) ، والمذهب الكلامى نوع من البديع كان الجاحظ أول من لقبه[1] به ، والجاحظ جد خبير بمذهب الايجاز وكثير الدعوة والاشارة اليه (٨١ جـ ١ و ١٩٨ جـ ٢) ، وأشار الجاحظ الى أسلوب القلب (١٨٠ جـ ١) ، والى سواه من الأساليب التى يعنى بها علماء البلاغة .

---

(١) راجع البديع لابن المعتز نشر محمد خفاجى ، ٧٦/٢ العمدة .

وبعد : فتلك آراء الجاحظ البيانية الخاصة به ، وهى وان كانت دراسات موجزة مفرقة الا أنها على كل حال ذات أثر كبير فى خدمة البيان العربى ..

* * *

أول صحيفة فى البلاغة لبشر بن المعتمر
عن البيان والتبيين للجاحظ

مر بشر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة السكونى الخطيب وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن ابراهيم أنه انما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة ، فقال بشر ، اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا .. ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها اياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جواهر ، وأشرف حسبا ، وأحسن فى الاسماع . وأحلى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع ..

واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطاك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا ، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه .

واياك والتوعر ، فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد ستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فليتمس له لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله الى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس اظهارهما وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما .

وكن فى ثلاث منازل أ فان أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا ، اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، واما عند العامة ان كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يشرف أن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، وانما مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامى والخاصى ، فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام .

فان كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسمح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر الى قرارها والى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل فى مركزها وفى نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة فى مكانها نافرة من موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول فى غير أوطانها ، فانك اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، وان أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك أو مالك ، عابك من أنت أقل عيبا منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك .. فان ابتليت بأن تتعاطى الصنعة وتتكلف القول ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلة وتعصى عليك بعد اجالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر ودع بياض يومك أو سواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة ان كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق .

فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ومن غير طول اهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة الى أشهى الصناعات اليك وأخفها عليك ، فانك لم تشتهه ولم تنازع اليه الا وبينكما

نسب ، والشيء لا يحن الا الى ما يشاكله ، وان كانت المشاكلة قد تكون في طبقات الأين النفوس لا تجود بمكنونها ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود مع المحبة والشهوة ، فكذا هذا . قال بشر : فلما قرئت على ابراهيم قال لى ، أنا أحوج الى هذا من هؤلاء الفتيان .

***

مؤلفات متأخرة فى البلاغة

١ ــ من شروح تلخيص المفتاح للخطيب : شرح للخلخالى م ٧٤٥ هـ ، وشرح للزوزنى م ٧٩٢ ، شرح لابن عربشاه م ٩٤٥ ، وقد شرح العباسى أبيات التلخيص فى كتابه « معاهد التنصيص » ونظمه السيوطى فى كتابه « عقود الجمان » .. وقد شرح جمال الدين محمد بن محمد الأقصرائى م ٨٠٠ هـ كتاب الايضاح للخطيب القزوينى فى كتاب أسماه « ايضاح الايضاح » .. (٢ و ٤٥٩) بلاغة ــ دار الكتب المصرية ــ مخطوطات) .

٢ ــ وعلى المطول حواش كثيرة : منها حاشية السيد م ٨١٦ ، وحاشية الفنرى م ٨٨٦ ، وحاشية ملا خسرو م ٨٨٥ ، وحاشية السيرامى المصرى م ٨٣٣ وحاشية الحفيد م ٩٠٦ هـ ، وحاشية الشيرازى م ٩٩٤ هـ ، وعز الدين بن جماعة م ٨١٩ هـ ، والبساطى م ٨٤٢ هـ ، والسمرقندى م ٨٨٠ هـ ، وعبد الحكيم السيلاكوتى ١٦٠١ هـ .

٣ ــ ومن الكتب المتأخرة فى البلاغة : الجوهر المكنون لعبد الرحمن الأخضرى وقد شرحه ابن يعقوب ، والشيخ أحمد الدمنهورى م ١١٩٢هـ .

ومنها : تحفة الأعواز فى علاقات المجاز للسجاعى م ١١٩٧ ، وتحفة الاخوان فى علم البيان للدردير م ١٢٠١ هـ ، والرسالة البيانية للصبان م ١٢٠٦ هـ ، والتجريد للبنانى م ١٢١١ هـ ، وحسن الصنيع للشيخ البسيونى م ١٣١٣ هـ ، وزهر الربيع للحملاوى م ١٣٥٢ هـ ،

والبلاغة الواضحة للجارم المتوفى فى ٨ فبراير ١٩٤٩ ، وكتاب « فن القول » للأستاذ أمين الخولى • وهناك مذكرات قيمة مطبوعة فى بحوث البلاغة للأستاذ سليمان نوار ، وللأستاذ حامد غونى •• وللشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء كتاب قيم فى البلاغة سينشره عما قريب ، وله محاضراته البلاغية التى كان يلقيها فى قسم الأستاذيه بكلية اللغة العربية ، والتى أفاد منها جمهور كبير من العلماء •

***

تطبيقـــات

— ١ —

عين الأساليب الخبرية والانشائية فيما يأتى :

١ ــ « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتب ورسـله » .

٢ ــ « يمحق الله الربا ويربى الصـدقات ، والله لا يحب كل كفـارٍ أثيم » .

٣ ــ « يأيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

٤ ــ قال صلى الله عليه وسلم : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذى نعمة محسود » .

٥ ــ ومن وصية عبد الملك بن مروان لأولاده : يا بنى ، كفوا أذاكم ، وابذلوا معروفكم ، واعفوا اذا قدرتم ، ولا تبخلوا اذا سئلتم ، ولا تلحفوا اذا سـألتم ، فان من ضيق ضيق الله عليـه ، ومن أعطى أخلف الله له .

٦ ــ قال أبو العلاء المعرى :

لا تحلفن على صـدق ولا كذب ... فما يفيـدك الا المـأثم الحلف

٧ ــ وقال :

لا تفرحن بمـا بلغت من العـلا ... واذا سبقت فعن قليـل تسـبق

وليحـذر الدعوى اللبيب فانهـا ... للفضـل مهلكة وخطب موبق

٨ ــ وقال أبو العتاهية :

بكيت على الشباب بدمع عيني فلم يغن البكاء ولا النحيب
ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

٩ ــ وقال :

يا صاحب الدنيا المحب لها أنت الذى لا ينقضى تعبه

١٠ ــ وقال :

ما أحسن الدنيا واقبالها اذا أطاع الله من نالها
من لم يؤاس الناس من فضلها عرض للادبار اقبالها

١١ ــ وقال الشاعر :

أراك تؤمل حسن الثناء ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود أخو فطنة يمن كثيرا ويعطى قليلا

١٢ ــ وقال سعيد بن حميد :

وأراك تكلف بالعتاب وودنا صاف عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قصيرة فعلام يكثر عتبنا ويطول

* * *

— ٢ —

بين أساليب الخبر وأدوات التوكيد فى الأمثلة الآتية :

١ ـ « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » •

٢ ـ « وفى السماء رزقكم وما توعدون • فورب السماء والأرض أنه لحق مثل ما آنكم تنطقون » •

٣ ـ وقال صلى الله عليه وسلم : « شر الناس الذين يكرمون اتقاء ألسنتهم » •

٤ ـ وقال على كرم الله وجهه : « مارست كل شىء فغلبته ، ومارسنى الفقر فغلبنى ، ان سترته أهلكنى ، وان أذعته فضحنى » •

٥ ـ وقال النبى عليه السلام يصف الأنصار : « انكم لتقلون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » •

٦ ـ وقال بشار بن برد :

خليلى ان المال ليس بنافع ... اذا لم ينل منه أخ وصديق

٧ ـ وقال أبو العتاهية :

ان البخيل وان آفاد غنى ... لترى عليه مخايل الفقر
ما فاتنى خير امرىء وضعت ... عنى يداه مئونة الشكر

٨ ـ وقال آخر :

وللحلم خير فاعلمن مغبة ... من الجهل الا أن تشمس من ظلم

٩ ــ وقال حسان بن ثابت :

أصـــون عرضى بمالى لا أدنســـه ... لا بارك الله بعد العرض فى المـــال
أحتال للمـــال أن أودى فأكسبه ... ولست للعرض ان أودى بمحتال

١٠ ــ وقال المقنع الكندى يعاتب قومه ، ويصف وفاءه لهم :

وان الذى بينى وبين بنى أبى ... وبين بنى عمى لمختلف جـــدا
فان أكلوا لحمى وفرت لحومهـــم ... وان هم هووا غيبى هويت لهم رشدا
وان زجروا طيرا بنحس تمر بى ... زجرت لهم طيرا تمر بهم ســـعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس ... رئيس القول من يحمل الحقدا
لهم جل مالى ان تتـــابع لى غنى ... وان قـــل مالى لم أكلفهم رفـــدا
وانى لعبد الضـــيف ما دام نازلا ... وما شيمة لى غيرها تشـــبه العبدا

١١ ــ وقال رجل من فزارة يفخر بشرف خصاله وجوده :

الا يكن عظمى طـــويلا فاننى ... له بالخصـــال الصالحات وصـــول
ولا خير فى حسن الجسوم وطولها ... اذا لم تزن حسن الجسوم عقول
اذا كنت فى القوم الطوال علوتهم ... بعـــارفة حتى يقـــال طويل
وكم قد رأينـــا من فروع كثيرة ... تموت اذا لم تحيهن أصـــول
ولم أر كالمعروف ، أما مذاقه ... فحـــلو ، وأما وجهه فجميـــل

١٢ ــ وقال ســـعيد بن سلم الباهلى : مدحنى أعرابى فأبلغ ، فقـــال :

ألا قل لسارى الليل لا تخش ضلة ... ســـعيد بن ســـلم نور كل بلاد

لنا سيد أربى على كل سيد   جواد حثا فى وجه كل جواد

قال سعيد : فتأخرت عنه قليلا ، فهجانى ، فأبلغ ، فقال :

كل أخى مدح ثواب علمته   وليس لمدح الباهى ثواب
مدحت سعيدا والمديح مهزة   فكان كصفوان عليه تراب

وفى هذا الشعر اشارة الى قول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر . فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا » .

١٣ ــ وقال الشماخ يمدح عرابة بن أوس الأنصارى :

رأيت عرابة الأوسى يسمو   الى العلياء منقطع القرين
اذا ما راية رفعت لمجد   تلقاها عرابة باليمين

١٤ ــ وقال بشار بن برد فى العتاب :

اذا ما راية رفعت لمجد   تلقاها عرابة باليمين
فعش واحدا أو صل أخاك فانه   مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى   ظمئت ،وأى الناس تصفو مشاربه

١٥ ــ وقال ابراهيم الصولى يعاتب محمد بن عبد الملك الزيات وقد تغير عليه بعد ما صار وزيرا :

وكنت أخى باخاء الزمان   فلما نبا صرت حربا عوانا
وكنت أذم اليك الزمان   فأصبحت فيك أذم الزمانا

وكنت أعدك للنائبات فأصبحت أطلب منك الأمانا

١٦ ـ ومن الهجو قول جرير يهجو تيما :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود
وانك لو رأيت عبيد تيم وتيما قلت أيهم العبيد

١٧ ـ وقال الحسين بن مطير يرثى معن بن زائدة :

ألما على معن وقولا لقبره سقتك الغوادى مربعا ثم مربعا
فيا قبر معن أنت أول حفرة من الأرض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده وقد كان منه البر والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
فتى عيش فى معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

١٨ ـ ولقطرى بن الفجاءة فى الحماسة يخاطب نفسه :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى
فانك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع
وما للمرء خير فى حياة اذا ما عد من سقط المتاع

١٩ ـ وقال الشاعر :

ولم أر كالمعروف أما مذاقه فحلو ، وأما وجهه فجميل

٢٠ ــ وقال صردر :

تذل الرجـــال لأطماعهـــا كذل العبيـــد لأربابهـــا
وأعلم أن ثيـــــاب العفـا ف أجمـــل زى لمجتابهـــا

أى للابسها .

٢١ ــ وقال آخر :

لعمرك ما يدرى امرؤ كيف يتقى اذا هـــو لم يجعل له الله واقيـــا

٢٢ ــ وقال سعيد بن حميد فى العتاب :

أقـــلل عتابك فالبقـاء قليـــل والدهر يعـدل تارة ويميـــل
ولعـــل أحـــداث المنيـــة والردى يوما ستصدع بيننـــا وتحـــول
فلئن سـبقت لتبكين بحسرة وليكثرن على منـــك عويل
ولئن سبقتـــ ولاسبقتـــ ليمضين من لا يشـاكله لدى خليـــل
وليذهبن بهـــاء كل مروءة وليفقدن جمالهـــا المـأهول

* * *

— ٣ —

عين الأغراض المستفادة من الخبر فى الأمثلة الآتية :

١ ــ قال تعالى : « لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، والله على كل شىء قدير » .

٢ ــ وقال تعالى : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى » .

٣ ــ قال صلى الله عليه وسلم : « عدل ساعة فى حكومة خير من عبادة ستين سنة » .

٤ ــ وقال : « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى حكمه ، فأدخل عليه الجور فى عدله » .

٥ ــ ومن خطبة له عليه السلام بمكة حين دعا قومه الى الاسلام : ان الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت بالناس ما غررتكم ، والله الذى لا اله الا هو ، انى رسول الله اليكم خاصة ، والى الناس كافة .

٦ ــ قال الشريف الرضى :

جار الزمان فلا جواد يرتجى ... للنائبات ولا صديق يشفق
واذا الحليم رمى بسر صديقه ... عمدا فأولى بالوداد الأحمق

٧ ــ وقال المعرى :

عرفت سجايا الدهر ، أما شروره فنقد ، وأما خيره فوعود

٨ ــ وقال :

رأيت سكوتى متجرا فلزمته اذا لم يفد ربحا فلست بخاسر

٩ ــ قال ابن حيوس مادحا :

بنى صالح أقصدتم من رميتم وأحييتم من أم معروفكم قصدا
وذللتم صعب الزمان لأهله فذل وقد كان الجماح له وكدا
مناقب لو أن الليالى توشحت بأذيالها لابيض منهن ما اسودا

١٠ ــ وقال أبو فراس :

صبرت على اللأواء صبر ابن حرة كثير العدا فيها قليل المساعد
منعت حمى قومى وسدت عشيرتى وقلدت أهلى غر هذى القلائد

١١ ــ وقال يخاطب سيف الدولة :

وكم لك عندى من أياد وأنعم رفعت بها قدرى وأكثرت حسدى
وانك للمولى الذى بك أقتدى وانك للنجم الذى بك أهتدى

١٢ ــ وقال :

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا فى المعالى نفوسنا ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

١٣ ــ وقال ابن الرومى فى رجل اسمه عيسى :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
ولو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

١٤ ــ وقال أبو العلاء :

بلوت أمور الناس من عهد آدم فلم أر الا هالكا اثر هالك
اذا كان هذا الترب يجمع بيننا فأهل الرزايا مثل أهل الممالك

١٥ ــ وقال أعرابى يرثى ولده :

بنى لئن ضنت جفون بمائها لقد قرحت منى عليك جفون
دفنت بكفى بعض نفسى فأصبحت وللنفس منها دافن ودفين

١٦ ــ قال زهير فى قوم هرم بن سنان :

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

* * *

— ٤ —

بين المسند والمسند اليه ، وبين الأساليب الخبرية والانشائية ، واذكر أغراض الخبر فيما يأتى :

١ ــ قل تعالى : « يايها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم * يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » .

٢ ــ قال عليه السلام : « من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير كله ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير كله » .

٣ ــ وقال : « لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم ، فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل » .

٤ ــ ومن خطبة لخالد بن عبد الله القسرى : « نافسوا فى المكارم ، وسارعوا الى المغانم ، واشتروا الحمد بالجود .. واعلموا أن حوائج الناس اليكم ، نعمة من الله عليكم ، فلا تملوا النعم فتحولوها نقما » .

٥ ــ ومن رسالة لابن زيدون : « قد يغص بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمنى فى أمنيته ... وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاة المروءة ، وفضل الجاه تعود به صدقة :

واذا امرؤ أسدى اليك صنيعة　　من جاهه فكأنها من ماله

٦ ـ قال أبو العتاهية :

اذا ما مضى القرن الذى أنت منهم　　وخلفت فى قرن فأنت غريب
وان امرأ قد سار خمسين حجة　　الى منهل من ورده لقريب

٧ ـ وقال أبو العلاء :

احذر سليلك فالنار التى خرجت　　من زندها ان أصابت عود فاحترقا

٨ ـ وقال الأخطل :

وان امرأ لا ينثنى عن غواية　　اذا ما اشتهتها نفسه لجهول

٩ ـ وقال حسان بن ثابت :

وان امرأ يمسى ويصبح سالما　　من الناس الا ما جنى لسعيد

١٠ ـ وقال المتنبى :

تلذ له المروءة وهى تؤذى　　ومن يعشق يلذ له الغرام

١١ ـ وقال الحسين بن مطير :

أحب مكارم الأخلاق جهدى　　وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما　　وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه　　ومن حقر الرجال فان يهابا

١٢ ــ قال رجل من طيىء :

ومن يفتقر فى قومه يحمــد الغنى — وان كان فيهم واسط العم مخولا
ويزرى بعقــل المــرء قلة ماله — وان كان أسرى من رجال وأحولا

١٣ ــ الشــاعر :

ان الطبيب يمــوت بالــداء الذى — قد كان يشــفى مثله فيما مضى

١٤ ــ قال عروة بن الورد .

ذرينى للغنى أســـعى فانى — رأيت النــاس شرهم الفقــير
يبـــاعده القـــريب وتزدريه — حليلته وينهــره الصـــغير
وتلقى ذا الغنى ولــه جـــلال — يكــاد فؤاد صــاحبه يطــير
قليـــل ذنبـــه والذنب جــم — ولكــن للغنى رب غفـــور

١٥ ــ وقال قيس بن عاصم المنقرى فى قومه :

خطبــاء حــين يقــول قائلهم — بيض الوجــوه مصــقع السن
لا يفطنـــون لعــيب جــارهم — وهم لحــفظ جــواره فطن

١٦ ــ وقال وعلة بن الحارث :

قومى همو قتلوا ــ أميم ــ أخى — فاذا رميت يصــيبنى ســهمى

١٧ ــ وقال المتنبى :

ذل من يغبط الذليــل بعيش — رب عيش أخف منــه الحمــام

بحمد الله وتوفيقه تم طبع الجزء الأول

وباذن الله يليــه الجزء الثانى

فهرست الجزء الأول

الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب المصرية ٣٦٤٥/١٩٩٣

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزهر: ٣ حيضان الموصلي
بجوار جامع الدعاة



